ADAM CHRISTOPHER

STRANGER THINGS

آدم كريستوفر

الظلام عند أطراف المدينة

NETFLIX
A NETFLIX SERIES

ترجمة: شيرين هنائي

بيان
BAYAN PUBLISHING

الظلام عند اطراف المدينة

كريستوفر، آدم

الظلام عند اطراف المدينة :رواية /آدم كريستوفر.

ترجمة : شيرين هنائي.

القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2022.

384 صفحة، 20 سم.

تدمك : 978-977-820-109-3

-1 القصص الأمريكية

أ- هنائي،شيرين (مترجم)

ب- العنوان : 823

رقم الإيداع : 23749 / 2021

الطبعة الأولى : سبتمبر 2022.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

كيان للنشر والتوزيع

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

This translation published by arrangement with Del Rey, an imprint of Random House, a division of Penguin Random House LLC

by Netflix CPX, LLC and NETFLIX CPX 2019 © International, B.V

Netflix 2022. Used with permission ©

4 ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم

هاتف أرضي: 0235918808

هاتف محمول: 01000405450 - 01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى **الناشرين**.

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من النـاشـر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الظلام عند اطراف المدينة

آدم كريستوفر

ترجمة: شيرين هنائي

رواية

٢٦ ديسمبر ١٩٨٤
كوخ هوبر
هوكينز، إنديانا.

حاول جيم هوبر قتل الابتسامة التي شعر بها تنتشر في أرجاء ملامحه، إذ يراقب عبر نافذة المطبخ كُتَل الثلج في حجم قبضة اليد المتساقطة من السماء، وذراعاه مغموسان في الحوض المليء بالماء الدافئ والصابون.

لم يَعُد موسم عيد الميلاد المجيد وقتًا مُبهجًا بالنسبة له، لم يعُد كذلك منذُ..

منذ رحيل سارة..

كان يعرف سبب شعوره المُمض هذا ويقبله. خلال السنوات الست التي قضاها في هوكينز أجبَر نفسه على التعايش مع شعور البؤس والفقد الذي يتزايد بداخله أكثر وأكثر في كل عام مع اقتراب موسم الإجازات والأعياد.

أجبر نفسه على التعايُش؟ كلا، هذا تعبير غير دقيق. الحقيقة أنه قد رحَّب بهذا التعايُش، وسمح له بإفعام روحه لأنه كان شعورًا بسيطًا.. مُريحًا.

وآمِنًا بشكلٍ غريب..

في نفس الوقت، كَرِه نفسه من أجل تعايشه، من أجل استسلامه، من أجل تَركِه لبذرة اليأس تنمو في عقله عبر الأعوام حتى أينَعت. تلك الكراهية لذاته لم تقده إلى أي مكان سوى إلى الظلام، وإلى الدوران في دائرة الحزن والفقد واليأس والكراهية، ثم الحزن من جديد.

لكن عليه أن يوقف كل هذا، خاصة في هذا العام الذي اختلف فيه كل شيء. حياته تغيرت وهذا التغيير أراه إلى أي منحدرٍ هوى، وإلى أي حالٍ آل.

وهذه الصحوة كانت من أجلها. جين، ابنته المُتبناة، والتي هي رسميًّا وقانونيًّا ابنته.

جين هوبر.

أحد عشر1..

إيل..

شعر هوبر بالابتسامة تتسع على وجهه مرة أخرى، وتجذب طرفي شفتيه إلى أعلى. هذه المرة لم يحاول منعها.

وجود إيل في حياته لا يعني أنه سينسى الماضي، فهو أبعد ما يكون عن ذلك، إنما يعني أنه يحمل مسئولية أكبر على كتفيه؛ لديه ابنة الآن ليربيها، مما يدفعه إلى المُضي قُدُمًا في حياته. ماضيه انتهى وعليه أن يُودِعه ركنًا قَصيًّا من عقله.

استمر الثلج في الانهمار بالخارج، ودُفِنت جذوع الأشجار العملاقة حول الكوخ وسط الغطاء الثلجي الأبيض الكثيف. أذاع الراديو أن خبراء الطقس لا يعتبرون المنخفض الجوي عاصفةً جليدية ولم تكن ثمة تحذيرات للمواطنين، لكن يبدو أنهم كانوا متفائلين أكثر من اللازم.

يبدو أن السُّحُب المثقلة بالثلوج قد أفرغت حمولتها كلها حول كوخ جد هوبر القديم. كان مذيع الطقس قد نصح الناس ألا يخرجوا من بيوتهم، وأن يمكثوا في الدفء يحتسون شراب مخفوق البيض.

ونصيحة مذيع الطقس ناسبت مزاج هوبر للغاية.

على جانبٍ آخر هتفت إيل:

- الماء بارد!

أفاق هوبر من شروده، ووجد إيل تقف جواره عند حوض المطبخ. كانت مُتعجبة، حيث وقف أمام الحوض لوقت طويل حتى بردت المياه أمامه. أخرج كفيه من الماء والصابون وقد تجعدت أصابعهما، ولم يَنقُص تل الأطباق التي كان عليه غسلها إلا قدرًا يسيرًا.

- هل أنتَ بخير؟

نظر هوبر إلى إيل مرةً أخرى. كانت عيناها مُتسعتين تنتظران إجابة. عادت الابتسامة إلى وجهه ولم يقدر على التحكم بها.

- أجل، كل شيء على ما يرام.

قالها ومد يده يداعب تموجات شعرها القصير الأسود، فتراجعت إثر لمسته المُبللة بالماء والصابون. ضحك هوبر وسحب يده قاصدًا المنشفة بالقرب منه، وأومأ برأسه تجاه حجرة المعيشة قائلًا:

- هل وصلتِ إلى مايك بعد؟

تنهَّدت إيل بشكل درامي بعض الشيء بالنسبة لهوبر. لكن على العموم كل شيء كان جديدًا مُتحديًّا بالنسبة لها. راقبها إذ تعود إلى الأريكة وتُمسك بجهاز الـ"ووكي توكي" الجديد الضخم، وتمد يدها به إليه. كانت تتواصل مع أصدقائها عبر جهاز الاتصال اللا سلكي هذا.

تبادلا النظرات لوهلة، ثم لوَّحت له بالجهاز في نفاد صبر. علَّق هوبر منشفة الطبخ على كتفه وتساءل:

- ماذا أفعل؟ هل هو مُعطل؟

أخذ منها الجهاز وأداره بين يديه وأردف:

- ربما يحتاج إلى بطارية جديدة؟

تنهدت إيل مرة أخرى وقالت بكتفين مَحنيين:

- لا يوجد أحد هناك.

- أوه.. أجل، تذكرت..

أصدقاء إيل؛ مايك وداستِن ولوكاس وويل كانوا في الخارج لملاقاة عائلاتهم، وقد ابتعدوا عن نطاق استقبال مكالمات إيل عبر جهاز الـ"ووكي توكي".

أخذت إيل الجهاز منه مرة أخرى وراحت تعبث بأزراره، وتلف مقابض الصوت يُمنة ويسرة، وتغلق الجهاز ثم تعيد تشغيله فينطلق منه صوت تشويش إستاتيكي مزعج في كل مرة.

هتف هوبر:

- احذري أن تفسديه، هذه هدية عظيمة منهم.

كان قد أجفل أمس حين قارن هديته لإيل؛ لعبة «أفراس النهر الجائعة» والتي كانت تناسب سنًّا أصغر بكثير من سنها، بجهاز الاتصال اللا سلكي الذي أهداه لها الأولاد.

كانت مهاراته الأبوية قد صَدِئت لقلة الاستخدام، فقد اشترى اللعبة دون تفكير لأن سارة كانت تحب تلك اللعبة، و...

إيل ليست سارة.

لم تلاحظ إيل شعور هوبر بالانزعاج الآن، وقد صبَّت تركيزها على الجهاز. عاد إلى الحوض وفتح صنبور الماء الساخن وراح يُقلِّب الماء بيد واحدة وهو ينظر إليها من وراء كتفه:

- لكنك قضيتِ وقتًا ممتعًا أمس، أليس كذلك؟

أومأت إيل وتوقفت عن العبث بالجهاز. أردف هوبر وهو يغلق الصنبور:

- حسنًا، سيعودون جميعًا غدًا، ربما تستطيعين التواصل معهم عبر الجهاز الليلة حين يقتربون أكثر.

أكمل هوبر مهمة غسل الأطباق، ثم سمع صوت إيل تعود إلى المطبخ وتقف جواره مرة أخرى. أخذ طبقًا من الكومة جواره وقال:

- أعرف أنك تشعرين بالملل، لكن الملل مفيد، ثقي بي.

عبست إيل متسائلة:

- الملل مفيد؟!

توقف هوبر عن الحديث هنيهة وتمنى أن يسير حديثه في الاتجاه الصحيح مع محاولاته لمنحها قبسًا من الحكمة الأبوية. أردف:

- بالتأكيد. لأنك عندما تشعرين بالملل فأنتِ آمِنة. وحين تشعرين بالملل تراودك الأفكار، والأفكار شيء مفيد. لا يمكن الاكتفاء أبدًا من الأفكار المفيدة.

قالت إيل:

- الأفكار مفيدة.

لم تكن عبارتها سؤالًا، كانت تصريحًا. نظر إليها هوبر مرة أخرى وكاد يرى التروس في عقلها تدور.

- هذا صحيح. والأفكار تقود إلى التساؤلات، والتساؤلات أيضًا مفيدة.

أشاح هوبر بنظره إلى النافذة كي يخفي عبوسه عن ابنته. *التساؤلات أيضًا مفيدة*؟ عمَّ يتحدث بحق الجحيم؟!

ليت لديه ما يكفي من شراب مخفوق البيض..

خرجت إيل من المطبخ، ثم بعد لحظات، سمع هوبر صوت تشغيل التلفاز. نظر إليها حيث جلست على الأريكة، كان التلفاز بعيدًا عنها، لكن الصور كانت تتغير على الشاشة الملونة من قناة إلى أخرى من تلقاء ذاتها.

هتف هوبر:

- التلفاز لن يعمل بشكلٍ جيد في هذا الطقس. ألا تريدين اللعب معي بلعبة أفراس النهر الجائعة؟

قابل الصمت سؤال هوبر، فالتفت من فوق كتفه مرةً أخرى ليرى إيل تنظر إليه نظرة لا تعني سوى أنها غير مسرورة. ضحك هوبر قائلًا:

- كان مُجرد اقتراح! اذهبي واقرئي كتابًا مثلًا.

أنهى هوبر غسل الأطباق وجذب سدادة الحوض ليصرف الماء، ثم جفف يديه ناظرًا عبر نافذة المطبخ. في انعكاس الصورة على زجاجها رأى التلفاز لا يزال يعمل ولم يكن ثمة أثر لإيل.

جيد..

لم يكن في وسعه فعل شيءٍ بصدد الطقس، لكن انعزالهما في الكوخ لم يكن سيئًا. كانا قد قضيا عدة أيام حافلة في موسم عيد الميلاد المجيد. أمضت إيل وقتًا مع أصدقائها مما أتاح لهوبر فرصة لمصاحبة جويس. كانت تحاول أن تتماسك وقد راقت له صحبتها وصحبة جوناثان.

التفت هوبر متوجهًا نحو المنضدة المُربعة الحمراء -عند الناحية الأخرى من منضدة المطبخ الرخامية- والموضوع عليها لعبة «أفراس النهر الجائعة» في صندوقها المفتوح. تساءل إن كان في إمكانه اللعب ضد نفسه. جذب كرسيًّا في نفس الوقت الذي ظهرت فيه إيل خارجةً من حجرتها.

نظرت إليه نظرةً جادة للغاية جمَّدت يد هوبر على ظهر الكرسي. سألها:

- هل كل شيء على ما يُرام؟

أمالت إيل رأسها ككلبٍ يُنصت إلى صوتٍ بعيد عن نطاق سمع البشر، وثبتت عينيها على هوبر. سألها:

- مذا يحدث؟

- لماذا تعمل شرطيًّا؟

أغمض هوبر عينيه وأطلق زفيرًا عميقًا. لقد نزل عليه السؤال كمطرٍ من سماءٍ صافية.

إلامَ تهدف من سؤال كهذا؟

مسَّد شعرها بيده النديَّة وأجاب:

- حسنًا.. هذا سؤال مثير.

- أنت قلت أن التساؤلات مفيدة.

- آه.. أجل، قلت ذلك. وهي بالفعل مفيدة.

-إذًا...؟

تنحنح هوبر وارتكن إلى ظهر الكرسي بكوعيه وقال:

- بالتأكيد أعني أنه سؤال مفيد، لكن.. لست واثقًا من وجود إجابة بسيطة.

قالت إيل:

- أنا لا أعرف عنك شيئًا، بينما تعرف أنت كل شيء عني.

أومأ هوبر وقال:

- في الحقيقة.. هذا صحيح.

جلس هوبر على الكرسي، فجذبت إيل الكرسي المقابل وجلست مُسندة كوعيها على المنضدة. فكر هوبر ثم أردف:

- لست واثقًا من السبب الذي دفعني لأكون شرطيًا. فقط بدت لي فكرة معقولة وقتها.

- لماذا؟

توقف هوبر عن الحديث وفرد ظهره، ومسح لحيته الخشنة القصيرة بيده وقال:

- آه، حسنًا. لم تكن لدي فكرة وقتها عما عليَّ فعله بنفسي وبمستقبلي. كنت قد عدت للتو من...

ثم توقف عن الحديث مرة أخرى.

هذا موضوع نتحدث فيه وقت آخر، ليس الآن..

حرك كفه في الهواء أمامه مُردفًا:

- أردت أن أفعل شيئًا.. أن أغير شيئًا. أن أساعد الناس على ما أظن. وجدت أن لدي الخبرة والمهارات اللازمة لذلك، لذا التحقت بالشرطة.

- و...؟

قطب جبينه متسائلًا:

- وماذا؟

- هل نجحت في تغيير شيء؟

- حسنًا..

- هل ساعدت الناس؟

- أنا ساعدتك، أليس كذلك؟

ابتسمت إيل قائلةً:

- أين كنتَ قبلها؟

هز هوبر رأسه مُجيبًا:

- لا أعتقد أنك مُستعدة لسماع هذه القصة بعد.

شعر فجأة بضيقٍ في صدره، واندفع الأدرينالين في دمه مختلطًا بأثر شراب مخفوق البيض فشعر بالغثيان.

جاء دور إيل كي تهز رأسها وتقول:

- الأسئلة مفيدة.

بالطبع كانت مُحقة، فقد آواها وساعدها وحماها، وقد مرَّا سويًّا بأحداثٍ لا يتخيلها أحد، والآن قد صارا قانونيًّا عائلة واحدة.

لكنه الآن قد أدرك أنه لغز بالنسبة لها، كما كانت لغزًا بالنسبة له في الليلة التي وجدها فيها مع الأولاد في ساحة الخُردة، ونقلها إلى منزل جويس.

أنزلت إيل ذقنها ونظرت إليه مائلة الرأس. كانت تريد إجابة.

- اسمعي يا طفلتي، ثمة أمور لستِ مُستعدة لسماعها، وأمور لستُ مستعدًا لإخبارك بها.

انعقد حاجبا إيل في تركيز، ووجد هوبر نفسه يرمقها مُعجبًا، ويتساءل إلى أي وجهة سيذهب بها قطار أفكارها. سألته:

- فايتنام؟

كانت الكلمة ثقيلة كأنها لم تتفوه بها من قبل. رفع هوبر حاجبيه متسائلًا:

- فايتنام؟ أين سمعتِ عنها؟

هزَّت إيل رأسها وأجابت:

- قرأت عنها.

- قرأتِ عنها؟

- في صندوق، تحت الأرضية.

- تحت الـ...

وضحك هوبر مُردفًا:

- إذًا قد ذهبتِ في رحلة استكشافية؟

أومأت إيل، فأضاف:

- حسنًا إذًا، أنت مُحقة. ذهبتُ إلى فايتنام وعُدت. هي دولة بعيدة جدًّا عن هنا.

مالت إيل أكثر نحو المنضدة فأضاف:

- لكن.. هذه ليس فكرة جيدة حقًّا.

- ماذا؟

- الحديث معك عن فايتنام.

- ولمَ لا؟

تنهَّد هوبر. ثمة سؤال في الطريق.. لكن ماذا قد تكون الإجابة؟

أدرك هوبر حقيقة أنه لا يريد الحديث عن فايتنام، ليس لكونها أمرًا صادمًا، أو ذكراها شيطانًا يُطارده، إنما لكونها تاريخًا عتيقًا.. كان يشعر أن تلك الذكريات جزء من حياة شخصٍ آخر. لم يُفكر في الأحداث بشكل مُدقق من قبل، وكان مُدركًا أنه قد قسّم ماضيه

في عقله وعزل عن ذكرياته فايتنام. أجل، حرب فايتنام كانت قاسية وقد عاد منها شخصًا آخر كما حدث مع أغلب العائدين.

تقبَّل أن ماضيه مُنقسم إلى قسمين؛ ما قبل سارة وما بعدها. ولا شيء آخر يهم حتى فايتنام. لكنه لم يكن واثقًا كيف سيشرح كل هذا لإيل. أجاب هوبر باسمًا:

- لأن فايتنام كانت منذ زمن طويل.. وانتهت. أنا لم أعد نفس الشخص الذي كنته وقتها.

مال نحو الطاولة مُستنِدًا إلى كوعيه وأردف:

- أنا آسف. أتفهم فضولك وأتفهم أنك تريدين معرفة المزيد عني، فأنا...

صَمَت، فرفعت إيل حاجبيها وأخفضت ذقنها مرة أخرى في انتظار أن يُكمل. تنهَّد هوبر في سعادة وأردف:

- أنا أبوكِ الآن. وأعرف أن هناك المزيد مما تريدين معرفته عني وعن فايتنام. حين تكبُرين سأخبرك بكل شيء.

قطبت إيل جبينها، فرفع هوبر كفه مُغيرًا مسار الاحتجاج القادم:

- ثقي بي في هذا الأمر. ستكونين مُستعدة في يوم من الأيام. لكننا الآن نحتاج إلى تجاوُز هذا الموضوع، مفهوم يا طفلتي؟

زمَّت إيل شفتيها، ثم أخيرًا أومأت برأسها. قال هوبر:

- ممتاز. أعرف أنك تشعرين بالملل، ولديك الكثير من التساؤلات، وهذا أمر لا بأس به. لنجد شيئًا آخر نتحدث عنه. فقط دعيني أجلب بعض القهوة.

وقف هوبر ثم اتجه نحو جهاز صُنع القهوة وشغَّله. كان جهازًا عتيقًا وجده في أحد الأكواخ لكنه ما زال يعمل. شرع يملأ خزَّانه بالماء. سمع فجأة صوت ارتطام ثقيل خلفه.

كانت إيل واقفة جوار المنضدة الحمراء تمسح التراب عن كفيها في بنطالها الجينز. على المنضدة رأى صندوق ملفات ضخمًا، على أحد جوانبه مكتوب: نيويورك.

لم ير هوبر هذا الصندوق منذ سنوات، لكنه كان يعرف ما يحويه. سار نحو المنضدة، ثم جذب الصندوق نحوه ناظرًا إلى إيل:

- أنت تعرفين، لست واثقًا.

- أنت قلت لنتحدث عن شيء آخر.

ثم أشارت إلى الصندوق مُردفة:

- وهذا شيء آخر.

عرف هوبر من نظرتها ونبرة صوتها أنها لن تستسلم، ليس هذه المرة.

حسنًا.. نيويورك، نيويورك..

جلس هوبر إلى الطاولة ونظر إلى الصندوق. على الأقل يحوي أمورًا حديثة.

هل هي مستعدة لسماع هذه الأمور؟ والأهم، هل هو مستعد للحديث؟

بينما تجلس إيل أمامه، فتح الصندوق. في الداخل كانت فوضى من ملفات ومُستندات، وفوقها ملف أصفر مليء بالأوراق، مربوط بشريطين مطاطيين بلونٍ أحمر.

أوه..

دون أن يخرج الملف، أزال الشريطين المطاطيين، وفتح الغلاف. واجهته صورة كبيرة بالأبيض والأسود، صورة لجثة ممدة على فراش، قميصها الأبيض مُلطخ ببقعة سوداء.. دماء.

أغلق هوبر الملف، ثم أغلق الصندوق، ثم رجع في كرسيه خلفًا ناظرًا نحو إيل.

- هذه ليست فكرة صائبة.

- نيويورك!

- اسمعي يا إيل...

هنا، انفتح غطاء الصندوق من تلقاء نفسه. رَمَش هوبر ثم نظر إلى إيل. علا وجهها تعبير مُصمِّم، ثابت، عازم. رفع هوبر رأسه هاتفًا:

- حسنًا، لا بأس. أنت تريدين نيويورك، فإليكِ نيويورك.

قرَّب الصندوق إليه أكثر، وأخرج منه بطاقة بيضاء كبيرة موضوعة داخل كيس شفاف، مرفق بها وريقة عليها التفاصيل. حدق هوبر إلى البطاقة، ثم قلبها وفتح الوريقة المرفقة. على ظهر البطاقة رمز واحد، مرسوم بالحبر الأسود؛ نجمة خماسية مُفرغة.

- ما هذا؟

رفع هوبر عينيه، ومالت إيل واقفةً تنظر من فوق الصندوق. أزاحه هوبر جانبًا ورفع البطاقة ثم قال ضاحكًا:

- هذه مجرد بطاقة من لعبة سخيفة.

ثم ضحك، وماتت الضحكة في حلقه. نظر مرة أخرى إلى الرمز.

- أعتقد أنها لعبة، وأعتقد أنك ستبرعين فيها.

جلست إيل مرة أخرى، ونظرت إلى هوبر، عندها رأى بريقًا في عينيها. سألت:

- لعبة؟

- سنعود إلى هذا لاحقًا.

وضع البطاقة أمامه، ثم أنزل صندوق الملفات الثقيل إلى الأرض جوار كرسيه، مُتجاهلًا الملف بداخله. جذب مجموعة أخرى من الملفات، يعلوها خطاب توصية من رئيس شرطة نيويورك. قرأ هوبر التاريخ عليه: الأربعاء، 20 يوليو 1977.

أخذ نَفَسًا عميقًا، ثم نظر إلى إيل.

- قبل أن أصبح رئيس شرطة هوكينز، كنت شُرطيًّا في نيويورك.. مُحققًا، أعمل في قضايا الجنايات.

رددت إيل كلمة «الجنايات» غير المألوفة لديها، فقال هوبر:

- الجنايات تعني القتل والجرائم الكُبرى.

اتسعت عينا إيل. تنهد هوبر وتساءل إن كان قد فتح على نفسه بابًا للأهوال.

- في صيف 1977، حدث شيء في غاية الغرابة.

- سُميت الفتاة «أحد عشر» أو «إيليفين» حين كانت تعيش في معمل أبحاث. ذُكرت في رواية «عقول مرتابة"

الفصل الأول

حفل عيد الميلاد

٤ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك.

كانت الردهة بيضاء؛ أرضها وسقفها وحوائطها. كل شيء كان أبيض حتى أن منظرها تسبب لهوبر في شعورٍ بالدوار. بياض الثلج محبوس داخل حوائط، تخيل هذا.

منزل بالكامل كل شيء فيه أبيض، من أعلاه إلى أسفله، كل حجراته وطوابقه بيضاء. من الخارج كان منزلًا من الطراز الشائع في بروكلِن والمبني بالطوب البني الأنيق، أما من الداخل فكان تحفة فنية. حين أمسك هوبر بكأس النبيذ الأحمر جوار المسبح، كان مُرتعبًا من أن يسكب قطرة منه حتى.

الأغنياء فقط هم القادرون على العيش في منزلٍ كهذا، لأن الأغنياء فقط هم القادرون على توفير جيشٍ من الخدم ليحافظوا على نظافة كل هذا البياض! الأغنياء الذين يظنون أنفسهم آندي وارهول2 أو أصدقاءً لآندي وارهول، أو على الأقل فنه المجنون مألوف لديهم.

كان لديهم طفلان، توأمان، يحتفلان بعيد مولدهما في المطبخ الواسع عند مقدمة المنزل. مطبخ مفتوح على حديقة وارفة مُحاطة بأسوار عالية. واحة مُستحيلة الوجود وسط صفوف المنازل المُحيطة. لم تتأثر المزروعات لسبب ما بموجة الحر الحارقة التي اجتاحت نيويورك وحولتها إلى مطفأة سجائر عملاقة. تردد صدى صخبهم واصلًا إلى هوبر حيث يقف في الصالة إسبرطية الطراز، العارية من أي مظهر من مظاهر الزينة أو الألوان.

رفع هوبر كأسه ونظر إلى محتواها؛ نبيذ أحمر في حفل عيد ميلاد طفلين!

أجل، آل بالمر كانوا من هذا الطراز من الناس الذين يُضيّفون حضور حفل عيد مولد أطفال بنبيذ أحمر. تنهَّد هوبر ورشف من الكأس، لم يكن هذا ما خططه لقضاء عطلة يوم الرابع من يوليو، لكنه كذلك لم يكن ليحكُم على اليوم من الآن.

كان الأطفال –ثلاثة عشر طفلًا- في عمر سارة ابنته، يقضون وقتًا ممتعًا وهو يشاهدون فريقًا من العارضين المُتخصصين في عروض الأطفال، والذين جلبهم آل بالمر لتسلية المدعوين الصغار. يطوف عليهم خدم يطعمونهم ويسقونهم، وغالبًا ما يتلقون أجرًا يوميًّا أعلى مما يتقاضاه هوبر شهريًّا.

لم تكن التسلية خاصة بالأطفال فقط، فالآباء -باستثناء هوبر- كانوا متحلقين حول عرض ترفيهي خاص بهم في إحدى الحجرات الشاسعة. عرض سحري كما قال أحدهم. حاولت دايان أن تقنع هوبر بحضور العرض، حتى أنها حاولت جرَّه حرفيًّا من ذراعه، لكن.. عرضٌ سحري؟!

كلا، كان مُرتاحًا حيث هو، وحيدًا، في الصالة لا نهائية البياض برفقة كأسه.

هدرت ضحكات من ناحية المطبخ، ردَّت عليها ضحكات متماثلة من الجهة الأخرى من الصالة الواسعة. نظر هوبر إلى ناحية، ثم إلى الأخرى، حائرًا إلى أي اتجاه عليه الذهاب. ثم استسلم أخيرًا وقرر التوجه إلى تجمُّع العائلات.

توقع أن يرى خلف الباب الذي يفتحه حجرة بيضاء يتوسطها بيانو أبيض، خلفه يجلس المُغني جون لينون3، وزوجته يوكو أونو مُتمددة أمامه على غطاء البيانو.

لكن ما وجده خلف الباب حجرة استقبال أخرى من حجرات الاستقبال المتعددة في المنزل، وكانت هذه الحجرة أقل غرابة من مثيلاتها، إذ كسرت بياض الحوائط زخارف خشبية بُنية أصلية، ومكتبات.

أغلق هوبر الباب من خلفه، وأومأ مُحييًا باحترام الآباء الواقفين في الجوار. لاحظ هوبر أن أغلبهم من الرجال، بينما جلست النساء حول الطاولة الكبيرة في منتصف الحجرة، مُركزين أنظارهم على الشخص الجالس عند «رأس» المائدة قُبالة الباب. كانت امرأة، ترتدي وشاحًا مُزخرفًا فوق رأسها، ولم يكن أمامها شيء إلا كرة بلورية.

قاوم هوبر النظر إلى ساعته، فلم يكن مرتاحًا أثناء تواجده في هذا المكان. كان هو الرجل الوحيد الذي لم ينتهز فرصة الدعوة لحفل عيد ميلاد طفل كي يتأنَّق. كان الآباء الآخرون يرتدون سُترات ذات ياقاتٍ عريضة وألوان تُرابية مع ربطات عنق تناسبها.

ارتدِ أي سترة رائجة تناسبك ما دامت ذات لون من درجات البني.

فجأة، لم يعد هوبر يشعر بالسوء تجاه قميصه الأحمر ذي نقشة المُربعات، وبنطاله الجينز الأزرق. كان مُرتاحًا على الأقل. قرار ارتداء قماش الـ"بوليستر" في هذا الحر قرار غير صائب، وهو أمرٌ اكتشفه أغلب الرجال حوله حين احمرت وجوههم وتصببوا عرقًا.

أخفى هوبر ابتسامته في كأسه وهو يجرع ما تبقى فيها، ثم صبَّ انتباهه على الحدث الجاري في منتصف الحجرة حيث تجلس دايان مع المرأة الأخرى. كانت الأولى ترتدي فستانًا خفيفًا مُزدانًا بنقوش الأزهار، وتميل نحو قارئة الطالع المُحدقة إلى كرتها البلورية، مُتظاهرة بقراءة مستقبل.. من؟ سيندي والدة توم؟

فقد هوبر تواصله مع منطقية ما يحدث، وشعر بحاجة إلى كأس أخرى من النبيذ.

بدأت قارئة الطالع قراءتها. كانت أصغر مما تصور هوبر مع أنه لم يكن يعرف إلى أي عمر تنتمي قارئات الطالع. أليس من المفروض أن يكُنَّ من العجائز؟ لا يهم، هذا مجرد عرض للتسلية.

أمر هوبر نفسه بأن يسترخي ويستمتع بالعرض ويتوقف عن التذمر بشأن كل شيء.

أفاق هوبر من خواطره على صوت التصفيق، ووجد أن السيدة الجالسة أمام قارئة الطالع قد قامت، وجاءت غيرها؛ دايان.

ضحكت دايان على شيء همسته لها إحدى رفيقاتها، ثم نظرت من فوق كتفها، وأضاءت عيناها حين رأت هوبر. أشارت له كي يقترب.

تحرك هوبر نحو مقعد دايان وسط نظرات خبيثة من الآباء الواقفين. مدت له زوجته يدها وأمسكت كفه وضغطت عليها، ثم نظرت إليه مبتسمة.

- مدام ميستيك ستقرأ لك الطالع.

ضحكت قارئة الطالع، ودفعت وشاحها قليلًا إلى الخلف ناظرة نحو هوبر وقالت:

- الماضي، والحاضر، والمستقبل.. كل الدروب مفتوحةٌ أمامي.

وأشارت بيديها إلى الكرة البلورية.

ابتسمت دايان، واعتدلت في جِلستها وأغلقت عينيها، ثم تركت الزفير يخرج من أنفها ببطء. أخيرًا قالت:

- حسنًا.. هاتِ ما عندك.

هلَّل من بالغرفة مُشجعين. حاولت قارئة الطالع كتم ضحكتها، وهي تحني رقبتها لتنظر إلى الكرة البلورية باسطة كفيها على المنضدة.

لم تتحدث قارئة الطالع في البداية. راح هوبر يرمقها وهي تُدقق النظر، حاجباها ينعقدان في تركيز. سرت همهمات من آخر الحجرة حين فقد بعض الرجال اهتمامهم بما يحدث.

وعندها..

- أنا... أوه!

ابتعدت قارئة الطالع فَزِعة عن الكرة البلورية. وضع هوبر كفه على كتف زوجته، وشعر بيدها تمسك يده.

أغلقت قارئة الطالع عينيها، وتقلصت ملامحها كأنها تتألم. شعر هوبر بالقلق. كل هذا تمثيل ولا شيء منه حقيقي، لكن شيئًا في الحجرة قد تغير، وتبخر إحساس الخفة وروح الدعابة فجأة.

تنحنح هوبر..

فتحت قارئة الطالع عينيها وأمالت رأسها وهي تحدق إلى الكرة البلورية.

- أرى.. أرى..

صمتت وهزت رأسها، ثم أغلقت عينيها بإحكام مُردفة:

- هناك.. ظلام.. سحابة.. كلا، موجة تمتد وتجتاح كل شيء.. تجتاح كل شيء.

تململت دايان في مقعدها وهي تنظر إلى هوبر.

- ضوء.. هناك.

تجهمت قارئة الطالع وامتعضت كأنما قضمت ليمونة، ثم أردفت:

- هناك.. كلا، ليس ضوءًا.. هذا.. فراغ، عدم. عتمة.. سحابة كالموج تجتاح كل شيء.. كل شيء..

شهقت قارئة الطالع، ففزعت دايان وكذا أغلب الموجودين. هز هوبر رأسه هاتفًا:

- لو أن هذا نوع من المزاح...

ظلت قارئة الطالع تُحرك رأسها يُمنةً ويُسرة مرة تلو الأخرى.

- ظلام.. لا شيء سوى الظلام، وسحابة عظمى، وأفعوان أسود...

قال هوبر:

- هذا يكفي.

- الظلام آتٍ. ظلام بلا نهاية. يومٌ بلا غروب.. يوم الـ...

صاح هوبر وهو يطرق الطاولة بكفه:

- قلت هذا يكفي!

انفتحت عينا قارئة الطالع، وعبَّت الهواء. رمشت عدة مرات وهي تنظر إلى الوجوه من حولها، وتعبير ذهولٍ يعلو وجهها وكأنما استيقظت لتوها من نومٍ عميق.

بدأ الجميع في الحديث في وقت واحد، وشرعت النسوة في مغادرة مقاعدهن بسرعة، مُحرجات من مشاركتهن في لعبة كتلك، بينما أزواجهن يغمغمون في مؤخرة الحجرة.

وقفت دايان، فطوقها هوبر بذراعه.

- هل أنتِ بخير؟

أومأت دايان وهي تحك جبينها وقالت:

- أجل.. أنا بخير.

والتفتت إليه مبتسمة ابتسامة واهنة.

التفت هوبر إلى قارئة الطالع هاتفًا:

- اسمعي، لا أعرف كنه هذا الذي حدث، لكننا في حفل عيد ميلاد طفل، بحق يسوع! أتريدين أن تُفزعي الناس؟ لتدخري جهودك إلى الهالوين!

حدقت قارئة الطالع إلى هوبر، وجهها لا يزال خاليًا من التعبير. كانت تُجاهد كي تفهم ما يقول. من حولهم الأزواج يغادرون الحجرة، فتبعهم هوبر.

سألته دايان:

- هل أنت بخير؟

نظر لها هوبر وأدرك أنها لا تحدثه، بل تسأل قارئة الطالع التي كانت تُدلِّك صدغيها.

- أجل.. اسمعي، أنا آسفة بشأن ما حدث. أنا بالفعل آسفة، لا أعرف ماذا حدث لي.

قال هوبر وهو يجذب ذراع دايان كي تتبعه:

- أجل، أعرف.

قبل أن يغادر هوبر الحجرة، نظر خلفه. المرأة الجالسة إلى المنضدة بدت له فجأة أصغر سِنًا، وكان وشاحها والبلورة أمامها سخيفين لا يتسقان مع مظهرها. قال هوبر:

- سأتحدث مع سوزان وبيل عما حدث.

قالت دايان:

- جيم، لا داعي لذلك.

قطب هوبر جبينه، وزفر بقوة، ثم غادر الغرفة. بمجرد أن وصلا الصالة تلاشى غضبه حين أبصر سارة تنطلق نحوه برفقة الأطفال الآخرين. كانت تمسك بحقيبة ورقية مُخططة بالأحمر والأبيض في يدٍ، وباليد الأخرى تحمل صندوقًا ورقيًّا ذا فتحات جانبية مُربعة، وأعلاه مطوي ليُشكل مقبضًا تقبض عليه بقوة.

ركع هوبر ليحمل ابنته ذات الأعوام الستة وهو يقول:

- مرحبًا صغيرتي. ما هذا؟

- كعكة عيد الميلاد! وصخرة أليفة4! الكل حصل على واحدة منها، وسميت صخرتي مولي.

- حسنًا.

أمال هوبر الصندوق الذي يشبه ذلك المُخصص لنقل الحيوانات الأليفة، ونظر داخله ليرى الصخرة. سأل ابنته:

- أتظنين أن مولي سترغب في قطعة من كعكة عيد الميلاد؟

- أبي! مولي تشرب فقط عصير الليمون.

- بالطبع تشرب عصير الليمون!

التفت هوبر إلى دايان، مرفوع الحاجبين، فاغرًا فاه في دهشة وقال:

- هذا يعني نصيبًا أكبر لنا من الكعكة!

ضحكت دايان، وهي تمسك بكوعه وتقول:

- هيا بنا.

تبعوا العائلات المُتوجهة نحو الباب الأمامي. في الصالة مؤديان مسرحيان يرتديان ملابس العم سام من أجل الاحتفال بيوم عيد الاستقلال، يعطيان الأطفال أعلام الولايات المُتحدة مربوط في صاريتها الصغيرة كيس من الحلوى. طوَّحت سارة صندوق صخرتها الأليفة نحو أبيها كي تُفرغ كفها لتلقي العَلَم والحلوى.

سألتها دايان:

- ماذا نقول حين نتلقى هدية؟

- شكرًا سيدي المُهرج!

سار ثلاثتهم حتى وصلوا إلى الرصيف، وأمامهم راح المدعوون يختفون تدريجيًّا في زحام أسطول السيارات الذي كاد يملأ الشارع بالكامل.

منزل عائلة هوبر كان قريبًا، فقرروا السير. ما أن ساروا عدة خطوات عبر الشارع حتى جذبت سارة كف أبيها، فتركها تسير وحدها كي تحرق بعض طاقتها في المرح والعدو حتى يصلوا إلى شقتهم على بعد عدة بنايات.

عقدت دايان ذراعها بذراع زوجها، ووضعت رأسها على كتفه وهما يسيران بتؤدة.

- حفل رائع.

- أجل، حفل رائع. قضيت الوقت في رعب خشية أن أُسقط قطرة نبيذ أحمر فوق شيء فيطالبونني بثمنه. ثم أخيرًا حصلنا على نبوءة نهاية العالم!

رفع الصندوق الورقي مُردفًا:

- آه، وانضم إلى عائلتنا ضيف جديد! أجل، كان حفلًا رائعًا! لا أطيق انتظار حفل العام المُقبل.

ضحكت دايان مُبتعدة عن هوبر، وهي تقرص كتفه في مرح.

- مهلًا! لم يكن الحفل بهذا السوء. فليزا...

حركت كفيها في الهواء محاولة انتقاء تعبير يقرب ما تريد قوله. سألها هوبر:

- ليزا؟

- ليزا سارجيسون، قارئة الطالع. هي صديقة لواحدة من آباء الأطفال المدعوين، وتمارس السحر كعمل جانبي.

- قراءة الطالع سحر؟

- الحقيقة هي لا تقرأ الطالع فقط، بل تؤدي كذلك بعض حيل الهروب من الأغلال والأقفال. تطوعت جانيس مَكجَن وقُيدت بالأغلال، كادت أن تصاب بنوبة قلبية حين أخبرتها ليزا أن المفتاح ليس بحوذتها!

ابتسم هوبر لحكايتها، ثم قال:

- وما هو تفسير ما حدث أثناء قراءة الطالع إذًا؟ ليزا سارجيسون.. ماذا أقول؟ انجرفت؟

هزت دايان كتفيها وقالت:

- غشيتها اللحظة.

صفَّر هوبر وقال:

- وأي لحظة!

- وأي حفل.

- قوليها مرة أخرى؛ وأي حفل! زملاء سارة في المدرسة كانوا جميعًا هناك مع أولياء أمورهم، وأكاد أقسم أن الخدم فاقونا عددًا. لقد استأجروا مؤديين لتسلية الكبار كذلك! لا تقولي لي أن سوزان وبيل لا يتباهيان أمامنا.

- المهم، لقد أمضيتُ وقتًا لطيفًا، حتى لو لم يكن الحال كذلك معك.

- لم أقل هذا.

- ليس عليك أن تقول، أنا رأيت حالك وقتها.

- أخبرتك أنني كنت خائفًا من إفساد شيء.

- أجل.. أجل.

- أجل!

عقدت ذراعها بذراعه مرة أخرى وهتفت:

- جيمس هوبر، لقد كنت متوترًا طيلة الوقت. يجب أن تتعلم فنون الاسترخاء.

فتح هوبر فمه ليتكلم، ثم قرر ألا يفعل. رفع كتفيه ليُفاجأ أنه غير قادر على إنزالهما مرة أخرى.

- الأمر فقط...

- فقط؟

- أعني، ذلك المنزل. أؤلئك الناس. حسنًا.. آل بالمر لُطفاء، لكنهم.. لا يشبهوننا. لا يشبهون أيًّا من أولياء الأمور المدعوين. لم يقيموا الحفل في منزلهم في هامبتون لأن أولياء الأمور لن يستطيعوا توفير ثمن الوقود اللازم للذهاب إلى هناك!

- هذا ليس حقيقيًّا.

أخيرًا استطاع هوبر إنزال كتفيه وهو يقول:

- ربما كنت مخطئًا. لكن، انظري لبيتهم! الأشخاص الطبيعيون لا يعيشون في مكان كهذا. وإن كان لديهم كل هذا المال، فلمَ يُلحقون توأميهما بمدرسة عمومية؟

- المدرسة جيدة. ما كنت لأدرِّس فيها، وما كنت لأدع سارة تتعلم فيها إلا لو كانت جيدة.

- أعرف هذا، لكن لا بد أن هناك عشرات المدارس الفاخرة التي يمكن أن يرسلوا أولادهم للدراسة فيها. أعني.. ألم تكوني لترسلي سارة إلى مدرسة فاخرة لو أن ذلك في مقدورك؟ مدرسة سارة قد تكون جيدة، لكننا في نيويورك ونحن نتكلم عن نظام تعليم حكومي!

- إن كنت أشك في أن نظام التعليم الحكومي في نيويورك غير كُفء، فلم أكن لأسلمه عقل ابنتي. أليس كذلك؟

نظرت دايان إلى وجه هوبر وأردفت:

- لست الوحيد الذي يحاول تغيير العالم يا جيم. أنا لم آتِ إلى تلك المدينة كي أواسيك في إحباطاتك فقط. عليك أن تتذكر هذا.

أومأ هوبر، وقرَّب زوجته منه إذ يسيران. بالتأكيد لنيويورك مشاكل، لكن نظام التعليم في مدرسة سارة كان جيدًا بالفعل، وكان يعرف أن دايان محظوظة كونها استطاعت الالتحاق بالتدريس في مدرسة كهذه نظرًا لحال التدريس في المدينة بشكلٍ عام.

كانت قد حكَت له عن المدارس الأخرى التي سمعت أن مدرسيها لا يحضرون حصصهم، وتلامذتها يتداولون الكحوليات في عمر الثانية عشرة تحت نظر المدرسين الذين لا ينتوون التدخل. فقد كانوا عالمين أن محاولات استدعاء السلطات لن يُلتفت لها، إن لم تُقابل بالعنف كذلك. كانت هذه نماذج متطرفة، لكن أحيانًا ما كانت تتحول المدينة بأكملها لنموذجٍ متطرف. انهيار تام للخدمات العامة والبنية التحتية.

مرحبًا بكم في مدينة نيويورك 1977.

كان هوبر بعيدًا تمامًا عن الندم على قرار انتقالهم إلى نيويورك، فقد كان هذا هو القرار الصائب من وجهة نظره. العودة من حرب فايتنام والمكوث في هويكنز بدا له كالغوص في عالمٍ موازٍ. كان قد منح دمه وعرقه وفكره وجزءًا من سلامة عقله لحرب بدت بلا نهاية، ولا سبب يفهمه، بينما دخلت الحياة في بلدة سمول تاون حلقة زمنية لم تتغير فيها قيد أنملة منذ رحيله حتى عودته. تساءل هوبر في نفسه إن كانت المدينة ستتغير حقًّا أو قادرة على التغيُّر؟

كان قلقًا، ولم يُخف قلقه، لكن قصة حبه لدايان، التي بدأت عام 1969، قد ألهته، وسرعان ما أينعت بعد ولادة ابنتهما سارة عام 1971.

لكن مدينة هوكينز ظلت كما هي، ويبدو أن السعادة الزوجية لم تكن كافية لهوبر، كان يحتاج لشيء إضافي، شيء أكبر.

مكان أكبر..

مكان كنيويورك.

كان عليه أن يُصرح بما يعتمل في عقله. إقناع دايان تطلب بعض الجهد والوقت، وظل هوبر يشعر بالذنب كلما ساندته وساعدته على فعل ما يحتاج.

الانتقال من هوكينز لنيويورك كان قرارًا ثوريًّا على أكثر من صَعيد؛ مدينة هوكينز كانت صغيرة خاملة، لكنهما كانا قد أقاما عائلة فيها. كانت آمنة ومريحة، ومع تراجع ذكريات حرب فايتنام صارت.. قابلة للعيش فيها.

ربما كانت هذه هي المشكلة، القابلية للعيش والأمان والراحة مزايا عظيمة، لكن سرعان ما أدرك هوبر أنها لم تكن ما يحتاج. حرب فايتنام قد غيرته، والعودة أشعرته أنه يندثر في حياة الضواحي هذه.

أدرك هوبر مبكرًا عدم مناسبة تلك الحياة له، وكذا فعلت دايان، وكان لها شاكرًا. ارتكن إلى مساندتها، والتي بدونها لم يكن لـ.. حسنًا، هو لا يعرف ماذا كان ليحدث لولا مساندتها، لكنه عرف ما حدث للعائدين الآخرين حين عجزوا عن التعايش مع واقعهم الجديد.

احتاج هوبر إلى تغيير، لذا فقد خلقا تغييرًا وانتقلا إلى نيويورك. مدينة كبيرة، مشاكل كبيرة. مدينة في حاجة إلى مساعدة. كان يعرف أن الأمر لن يكون سهلًا، فحياته الجديدة ستكون بمثابة تعميدٍ بالنار في مدينة هي الجحيم على الأرض. كانت تلك مقولة مجازية حتى قبل أن تجتاح المدينة موجات القيظ.

لكنها كانت بالضبط ما أراده، ما احتاجه..

لذا، في ربيع 1972، وافقت دايان على الانتقال، فقد كان هذا هو الوقت المناسب بينما هم في أوج شبابهما، قادرين على تعبيد طريقهما عبر عقبات الحياة. سيكون هذا قرارًا مفيدًا لثلاثتهم.

ساعد سجل هوبر في الحرب على التحاقه بشرطة هوكينز بعد عودته، وأمضى ثلاثة أعوام ونصف العام منغمسًا في العمل الشرطي، مما ساعده مع خبرته الحربية السابقة على الانضمام إلى شرطة نيويورك، ومن ثم أُختير أثناء عملية تحويل أكفأ الأفراد إلى مُحققين.

ظل يعمل عدة أشهر خلف زي الشرطة المُوحد حتى عرف المدينة جيدًا، ثم وجد هوبر شارة درع المُحققين في جيبه، ومكتبًا خاصًّا به. تحمل مسئولية العمل كاملة بكل جد، ورغم تقليص الميزانيات وتقليل العاملين، لكن جهده لم يذهب سُدى، فترقَّى إلى قسم الجنايات.

ولم يسعد هوبر بشيء قدر سعادته بهذه الترقية.

الحقيقة أن هوبر لم يملك مالًا، لكنه كان سعيدًا هو وعائلته. كان يعيش في شقة لا بأس بها في بروكلِن، وتعمل دايان في مدرسة ابتدائية حكومية جيدة. حياة متوسطة يمكن أن تتحسن، أو تسوء. لا شيء مضمون. أما سارة فقد كانت طفلة بارعة رغم أنها لم تُكمل عامها الدراسي الأول بعد، وكانت دايان معها لا لتساعدها، إنما كي تُبقي نظرها عليها، فهم في مدينة نيويورك رغم كل شيء.

شعر هوبر بشيء يجذب ساقه، فأفاق من ذكرياته. نظر إلى أسفل فوجد سارة تجذب ركبته بكل قوتها. كانت البناية التي يسكنون فيها قد ظهرت أمامهم.

صاحت سارة:

- هيا، هيا! حان وقت المزيد من الكعك يا أبي!

- أجل! لو أن هذه الصغيرة في حاجة إلى شيء فهي في حاجة إلى جرعة أخرى من السكر!

قالها هوبر ضاحكًا ورفع ابنته عن الأرض، بينما سارت دايان أمامهما لتفتح الباب. كاد يتبعها لولا أن اصطدم بها حين توقفت فجأة.

- ماذا؟

نظرت دايان إلى زوجها وهمست:

- أهذا صوت هاتف؟

أنصت هوبر، وكانت مُحقة. ثمة صوت جرس هاتف يأتي من مكانٍ يعلوهم.. من شقتهم في الطابق الثاني.

ناول سارة إلى دايان وهو يقول:

- سأرى إن كنت أستطيع الوصول إليه سريعًا، ربما كان أمرًا هامًّا.

اطمأن هوبر إلى أن ابنته آمنة بين ذراعي والدتها، فصعد الدرجات درجتين درجتين.

- مرحبًا.

- هوب، من الصعب أن يجدك المرء بسهولة.

كان الصوت عبر الهاتف نسائيًّا خشنًا بفعل التدخين. كان هوبر يعرف هذا الصوت جيدًا.

- كنت آمل هذا يا ديلجادو. اليوم هو ذكرى يوم الاستقلال وعملي اليوم يتلخص في مرافقة سارة إلى حفل عيد ميلاد.

- حسنًا، كنت أريد دعوتك إلى نوع مختلف من الحفلات.

شعر هوبر بنبضه يتسارع. كانت المُحققة روساريو ديلجادو شريكة تحقيقاته منذ ستة أسابيع، وإن كانت تحاول الاتصال به خلال إجازته، فلا بد أن هناك أمرًا عاجلًا حقًّا.

كان واقفًا جوار الهاتف المعلق على الحائط، شاعرًا أنه يعرف سبب اتصالها. من خلفه سمع دايان وسارة تدخلان الشقة، وسمع وقع خطواتهما إذ تدلفان إلى المطبخ الصغير. نظرت دايان لوجهه متسائلةً، فأومأ برأسه سريعًا.

- من مراقبة العمليات إلى المُحقق جيمس هوبر، احضر من فضلك.

- جريمة أخرى؟

- عليك الحضور في أسرع وقت.

- أنا في الطريق، ما العنوان؟

دار بعينيه حوله بحثًا عن قلمٍ وورقة، ليجد دايان قد أحضرت قلمًا والدفتر الصغير الذي تكتب فيها ما تريد شراءه من بقالة. همس لها «شكرًا» ثم أسندت الدفتر إلى الحائط وأملته ديلجادو التفاصيل فدوَّنها سريعًا.

- سأكون عندك في أسرع وقت.

- سأحتفظ بالبساط الأحمر في انتظار تشريفك.

ثم أنهت المُكالمة. أعاد هوبر السماعة إلى مكانها، وشعر بيدي دايان على كتفيه. أمسكهما واستدار إليها. قال:

- اسمعي...

- عليك أن تذهب.

- عليَّ أن أذهب. آسف.

ابتسمت دايان وقالت:

- لا تعتذر. لا تعتذر أبدًا بسبب اضطرارك للقيام بواجبك.

- سأعوضك.

- سأعتبر هذا وعدًا.

اتجه هوبر للباب، وفتحه، ثم استدار وهو ممسكٌ بالمقبض.

- سأتصل بك وأخبرك أين سأكون.

ثم نظر إلى سارة المشغولة بكعكتها.

- اتركي لي بعضًا منها يا طفلتي!

نظرت إليه سارة مبتسمة، ووجهها مغطى بزينة الحلوى الزرقاء والحمراء. قبَّلت دايان هوبر على خده وهمست:

- خذ حذرك.

قبَّل شفتيها وقال:

- هذا بالفعل ما أنتوي.

ثم غادر مُغلقًا الباب خلفه.

- رسام أمريكي وصانع أفلام وله لوحات شهيرة، أكثرها انتشارًا لوحة ملونة لوجه الممثلة مارلين مونرو - أحد مغنيي فريق البيتلز الإنجليزي

Pet rock -

عبارة عن زلط دائري من شاطئ من شواطئ المكسيك، وكان يُباع كحيوان أليف للأطفال في منتصف السبعينيات في الولايات المتحدة.

الفصل الثاني

الضحيّة الثالثة

٢٦ ديسمبر ١٩٨٤
كوخ هوبر
هوكينز، إنديانا

- الثالث؟!

حدق هوبر إلى كوب القهوة أمامه، وكان فارغًا تقريبًا. أنهى كوبًا من القهوة ولا تزال حكايته في بدايتها. عليه أن يُسرع الحكي.

أمامه عبر المنضدة، كانت إيل تهز رأسها، وشفتاها منفرجتان في حيرة. قام هوبر مُتوجهًا نحو وعاء القهوة في المطبخ وهو يقول:

- أجل، كانت هذه هي الضحية الثالثة. كنا نعمل وقتها منذ شهرين على قضية قتل الضحيتين السابقتين. نفس طريقة القتل وهذا يشكل نسقًا مُوحَّدًا يدل على نفس القاتل. لكن ثلاثة قتلى يدفعوننا للتفكير في أمر آخر، وعرفنا وقتها أن علينا القبض على قاتل مُتسلسل.

ضيَّقت إيل عينيها في تركيز وسألت وهي تحاول فهم الكلمة:

- متسلسل؟ تعني مثل المُتسلسلات التليفزيونية؟

جلس هوبر على كرسيه وقال:

- أوه، كلا.. ليس مُسلسلًا، بل مُتسلسل.

كرر الكلمة أمامها ببطء ثم أردف:

- القاتل المُتسلسل هو.. هو شخص يقتل عددًا من الأشخاص.

- مثل بابا؟

بابا؟!

ثم فهم، لقد كانت تقصد برينَر، دكتور برينَر، الوحش المسئول عن حبسها وتربيتها داخل معمل.

بئس الأمر!

- كلا، هذا أمر مختلف. لقد كان هو مختلفًا.. الأمر.. الأمر مُعقَّد. اسمعي..

صمت، ورشف من قهوته. أحقًّا يحكي لطفلة كل هذا؟ شعر فجأة بأن الحكي فكرة سيئة حقًّا. إيل كانت -من عدة أوجه- أصغر من عمرها الحقيقي، وها هو يحكي لها عن نيويورك عام 1977 ومواجهته لقاتل مُتسلسل؟

هذا كثير. تنهَّد ومسح وجهه بكفه.

- لا أعتقد أن هذه فكرة جيدة، حقًّا.. أعني...

هتفت إيل:

- لا تتوقف عن الحكي الآن!

تنهد هوبر مرة أخرى وقال:

- هل أنتِ واثقة من هذا؟ لأنني...

- ماذا حدث؟

- لأنني لا أريد أن أتسبب لك في كوابيس طيلة عامٍ قادم.

نظرت إيل لهوبر بحدتها المُعتادة، وامتد الصمت بينهما قبل أن تتكلم إيل في النهاية وتقول:

- عُد إلى البداية.

- البداية؟! القصة طويلة بما يكفي، والجريمتان السابقتان كانتا مثل الثالثة، وكما قلت الجريمة الثالثة هي ما يهمنا، ومن بعدها بدأت الأحداث الهامة.

حدقت إيل إلى المنضدة، ونظر هوبر إليها من فوق حافة كوبه. لم تتحدث، فأنزل هوبر الكوب وسألها:

- ماذا الآن؟!

أجابت إيل دون أن ترفع عينيها عن المنضدة:

- البداية، الوسط، النهاية.. هكذا تكون القصص، بداية ووسط ونهاية.

- هذا حقيقي.

رفعت إيل عينيها إلى هوبر وقالت:

- ابدأ بديلجادو.

- ديلجادو؟ هذا سؤال أستطيع إجابته.

رشف هوبر القهوة وبدأ من البداية..

الفصل الثالث

سوني وشير

١٧ مايو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

لم تكن حجرة المُحققين مزدحمة في الثامنة صباحًا. لام هوبر حرارة الجو على هذا الخمول المُتفشي فيهم. نيويورك تُشوى ببطء رغم أن الصيف لم يدخل بعد. لو ظل الطقس على هذا الحال فسينقل هوبر مكتبه إلى سطح البناية، على الأقل ثمة نسمة هواء بالأعلى.

الشيء الوحيد الذي يحرك الهواء في حجرة المُحققين ثلاث مراوِح رأسية مُهملة أخرجها الشاويش مَكجويجَن من خزانة مهجورة. لم يكن مُكيف الهواء يعمل بالطبع، ولا يذكر هوبر إن كان يعمل من الأساس، ولم يأمل أن يُصلحه أحد خلال العِقد القادم، ليس والميزانية مُخفضة بهذا الشكل.

المكتب المُقابل لهوبر، كان مثل مكاتب المُحققين الستة الآخرين في قسم الجنايات -لنجعلهم خمسة مؤقتًا- وكان مصنوعًا من المعدن الذي مرت عليه أيام أفضل في الماضي. كان المكتب عاريًا تمامًا بلا هاتف يعلوه حتى، أدراجه خاوية، وقد ظل على هذا الحال لأسابيع.

استئصال الموظفين الزائدين عن الحاجة كان وحشيًا، وقد أزال واحدًا من المحققين في قسم الجنايات فلم يعد لهوبر شريك.

بشكل ما، كان هوبر يفهم الحاجة إلى إحداث تغيير. كانت المدينة خالية من الأموال، لو لم تُحرك الحكومة الفيدرالية ساكنًا إزاء هذه الأزمة، فسيكونون مضطرين للاستغناء عن الموظفين. هذا العذر لم يجعل القرار صائبًا، فلا يمكنك قطع المزيد من طبقات الدهن قبل أن تصيب اللحم ويبدأ النزف. لكن هوبر كان يفهم دوافعهم ويفهم كذلك أنه محظوظ للغاية. في النصف الأول من عام 1977 وقعت حوالي ستمائة جريمة قتل في المدينة، لكن هذا العدد لم يكن مُوزعًا بالتساوي على الأحياء الخمسة. كان القسم رقم 65، حيث يعمل

هوبر، هادئًا نسبيًّا يتقصى ما لا يزيد على ثلاث جرائم في المرة الواحدة، وكان هذا العدد كبيرًا لكنه كان راضيًا شاكرًا حتى في غياب شريكٍ له. كان فقط يشعر بالأسى من أجل النقيب بوبي لافورنيا، وهو رجل إيطالي بدين ذو شارب يشبه شاربي الفقمة، له خبرة خمس وعشرين عامًا في توزيع المهام على مُحققيه. لكنه هذه الأيام يغلق على نفسه مكتبه، مُختنقًا في دخان سجائره، يهاتف رؤساءه راجيًا المزيد من الإمدادات والمال والرجال.

لم تكن حياة مُحقق الجنايات في نيويورك حياة سهلة، لكن هوبر على الأقل لم يكن عالقًا خلف مكتبٍ يصرخ بلا آذان تُصغي.

- هل سمعت بما حدث أمس؟

رفع هوبر عينيه عن ملف القضية التي كان يعمل عليها، وأنزل قدميه عن مكتبه حين أبصر المُحقق سيموندز آتيًا من حجرة الاستراحة، حاملًا كوبًا من القهوة الساخنة ونسخة من جريدة نيويورك تايمز. ناول هوبر الجريدة ثم دس نفسه خلف المكتب الشاغر، جاذبًا بنطاله لأعلى من عند الفخذين لراحة أكبر في الجلسة.

راح هوبر يرمق سيموندز من فوق الجريدة وهو يحرك أصبعه حول ياقه قميصه، ويفُك ربطة العنق المُحكمة قليلًا.

- لمَ لا تُجرب الملابس المصنوعة من نسيج طبيعي يا سيموندز؟

جرع سيموندز المزيد من القهوة ثم قال:

- هذه هي الموضة يا جيمس هوبر. لن آخذ نصائح في فن اختيار الأزياء من السيد الريفي. عليَّ أن أجد خبيرًا أفضل.

هز هوبر رأسه في مرح، ثم عاد إلى التركيز في الجريدة. في صدر صفحتها الأولى صورة حطام طائرة.

- أتعرف أن هذا الشيء سقط في طريق ماديسون؟ زوجتي كانت في طريق ماديسون، إلهي!

رشف سيموندز المزيد من القهوة وهز رأسه.

قرأ هوبر العناوين: مصرع خمسة أشخاص إثر سقوط مروحية من فوق مبنى شركة طيران بان أمريكان، وانفصال مروحتها.

كان هوبر قد سمع عن الحادث في أخبار المساء، لكن الخبر في الجريدة منحه تفاصيل أكثر عما حدث من تعطلٍ لآلية هبوط الطائرة وسقوطها عن مهبطها أعلى البناية في الساعة الخامسة والنصف، ومن ثم قتلها لعدد من الأشخاص بشفرات مروحيتها.

هتف هوبر:

- إلهي، هل جاكلين بخير؟

- هي بخير، حمدًا لله. لكنها رأت ما حدث وصُدِمت. نصحتها أن تأخذ إجازة اليوم لكنها فضلت العودة إلى العمل. لكنني أقول لك أن الحادث حقًّا مُروع.

وأشار نحو الجريدة بيده التي تحمل الكوب، ثم أردف:

- لن تعرف أبدًا متى يحين موعدك. لا أحد يعرف.

أومأ هوبر وتصلَّبت عضلات فكيه. كان سيموندز مُحقًّا، فحين يأتي أجلك لن تجد منه مهربًا. يعرف هوبر هذا جيدًا بحكم عمله كشرطي، لكنه لم يكن يُفكر في الأمر كثيرًا، لم

يكن يقدر على التفكير في هذه الأمور، فما أن تراوده تلك الأفكار حتى يشعر بالحوائط تنطبق عليه. كان هذا شعورًا يشاركه فيه أغلب من عادوا من الحرب.

قطع خواطر هوبر صوت فرقعة آتٍ من جانب الحجرة. أعطى الجريدة لسيموندز الذي قام من خلف مكتبه ليتحرى ما حدث، فتبع هوبر عيني رفيقه إلى النافذة الكبيرة التي تطل على مكتب النقيب.

في داخلها كان لافورنيا يذرع الحجرة جيئة وذهابًا بعد أن أغلق بابه بكل قوته. الساعة لم تتجاوز الثامنة صباحًا وها قد بدأت أولى معارك اليوم وخسرها كما يبدو.

راقب هوبر النقيب يجول في الحجرة وسماعة الهاتف بين رقبته وكتفه بينما يحاول إشعال سيجارته وهو يهتف ويرغي ويزبد. كفاه يزيحان الدخان المُتراكم في الحجرة فيخلق دوامات يستطيع هوبر أن يراه خلالها. راح هوبر ينظر إلى شفتي النقيب تتحركان وهو لا يسمع شيئًا مما يقول، فقد كان زجاج النافذة عازلًا للصوت، وقد حوَّل ثورة النقيب إلى فيلمٍ صامت.

ثم حدث ما حدث.

كان النقيب لافورنيا ملتزمًا بالتقاليد، فرغم حرارة الجو كان لا يزال مُرتديًا زيه كاملًا، وقد علَّق سترته الصوفية الثقيلة فقط على ظهر الكرسي. ثم فجأة بدأ يفك ربطة عنقه وأزار قميصه وهو يتحدث.

وكانت هذه إشارة مُقلقة.

عاد سيموندز إلى مكتبه، وانصرف انتباه هوبر إلى عمله، لكن ما أن فتح الملف حتى سمع صوت الفرقعة مرة أخرى يصدر من حجرة النقيب. لافورنيا الآن يجول في حجرة المُحققين، ومن خلفه باب حجرته مفتوحًا يتأرجح في إطاره. سار النقيب حتى اختفى عند الباب الرئيسي المؤدي إلى المصعد.

عاد باقي المحققين إلى أعمالهم وقد انتهت فقرة التسلية الصباحية. هدر صوت المراوح الثلاث وسط هدوء المكتب.

استدار هوبر ببطء في كرسيه. بعد عام من العمل في القسم رقم 65 لم يندمج جيدًا مع باقي المُحققين أثناء وردية الشاويش مَكجويجَن. ربما كان هاريس وسيموندز أقربهم إليه، لكن مارني وهانت كانا أحمقين حرص هوبر على إبقاء مسافة بينهما وبينه.

كان يعرف من قبل أن ينتقل إلى نيويورك أن التعايش لن يكون سهلًا، فسيظل بالنسبة لهم المُستجد، ابن الريف الأبله الذي يظن أنه يستطيع إنقاذ المدينة التي عاشوا وتربوا فيها. كانت هوكينز بالنسبة لهم مجرد بلدة بعيدة مجهولة لا أكثر.

ترقيته السريعة لم تخدم قبولهم له، فقد كانوا يعتبرونها تمييزًا، لكن مِمَّن؟ لم يكن عند هوبر أي فكرة. سرعان ما نسوا أمر ترقيته، ومع الوقت لان له جانب سيموندز وهاريس لكن هوبر لم يتساهل مع أيهما فقد جاء إلى هنا لأداء مهمة مُحددة و.. حسنًا، ربما كانوا على حق لكن مهمته لم تكن إنقاذ المدينة، أو التحول إلى بطل، فالمدينة لا تحتاج إلى أبطال، بل تحتاج إلى رجال شرطة مَهَرة يستطيعون أداء مهامهم.

رجال شرطة مثل هوبر.

ورغم أن النقيب لافورنيا في صفه، لكنه كان مقيدًا بالقواعد والضغوط من طرف المُحققين الآخرين. كمُستجد، قَبِل هوبر شريكه الذي اختاروه له دون مُناقشة، فالأوامر هي الأوامر.

كانوا يلومونه على رحيل المحقق ستافورد، وأخذ مكانه. لكن الرجل كان مُقصرًا في عمله، ورآه هوبر أكثر من مرة يقرأ صفحة الرياضة في الجريدة بدلًا من قراءة ملفات القضايا. نجا المُحقق ستافورد من تقليص العمالة مرتين، لكن في النهاية نَفَد حظه وأحالته شرطة نيويورك هو وسترته ذات اللون الكريمي إلى المعاش.

فُتح الباب الرئيسي ودلف منه النقيب لافورنيا. سيجارته كانت قد احترقت حتى نهايتها، والعرق يتفصَّد من جبينه. عاد إلى حجرته وصفق الباب خلفه بقوة. لو استمر النقيب على هذا الحال لباقي اليوم، فلن يكون تكييف الهواء هو الشيء الوحيد الذي يحتاج إلى تصليح.

نظر هوبر إلى المكتب المجاور، حيث يجلس هاريس يكتب شيئًا في ملف بينما يرمي ويتلقَّف كرة بيزبول بيده الأخرى في شرود.

- هاريس، هل لديك فكرة عما يحدث؟

هز هاريس كتفيه لكنه لم يرفع عينيه عن الملف وقال:

- وكيف لي أن أعرف يا هوبر؟

غاص هوبر في كرسيه ليُكمل عمله، لكنه سمع صوت شخص يقلد عواء ذئب خلفه، ثم ساد الصمت. فجأة تحرك شيء أزرق أمامه ثم سمع صوت الاصطدام إذ هوى صندوق من الورق المقوى على المكتب الشاغر أمامه.

قالت الوافدة الجديدة:

- لتصمت أنت الآخر.

وقفت ويداها على جانبي خصرها جوار المكتب. كانت ترتدي بنطالًا أزرق واسعًا وقميصًا أبيض مزركشًا من الأمام، فوقه سُترة قصيرة ضيقة. بدت في عمر الثلاثين، شعرها أسود مموج يصل إلى كتفيها وكانت تحدق إلى هوبر رافعةً حاجبًا واحدًا.

نظر هوبر حوله، ورأى المُحققين يرمقونهما في صمت. بعض المحققين كان مبتسمًا، وفي نهاية الحجرة جلس هانت ومارني -يرتديان ذات البذلة الرمادية مقفلة الأزرار من تحتها

قميص مُتعدد الألوان- يتبادلان الهمسات التي كادت تُسقط مارني من الضحك، وتهتز خصلات شعره الشقراء المُجعدة فوق أذنيه وهو يحاول احتواء صوت ضحكاته.

تجاهلهم هوبر، والتفت إلى الوافدة الجديدة.

- آه...

دفعت بذقنها أمامًا تجاهه مُقاطعةً:

- أنت هوبر؟

نظر إلى مكتبه للحظة، ولم يكن يعني شيئًا.

- ماذا الآن؟ هل تبحث عن شارتك كي تتأكد من اسمك؟

رمش هوبر ونظر إلى المرأة قائلًا:

- أجل، أنا جيمس هوبر. و.. أنتِ؟

مدَّت المرأة يدها إليه وقد تحول عبوسها إلى ابتسامة بدت مُتكلفة. صافحها هوبر وشعر بأصابعه تنسحق في قبضتها القوية.

- أنا شريكتك الجديدة، المُحققة روساريو ديلجادو.

- شـ.. شريكتي الجديدة؟

سحبت ديلجادو كفها وتراجعت إلى المكتب الشاغر. جلست وجذبت الصندوق إليها وراحت تحدق إليه لحظات قبل أن تبدأ في إخراج ما فيه قطعة قطعة؛ دبَّاسة، ملفات عمل، كوب مليء بالأقلام مطبوع عليه عَلَم وكتابة بالإسبانية من تحته.

جال هوبر بنظره في حجرة المُحققين، اختفت الابتسامات عن الوجوه، بينما ظل هاريس يحملق فيهما وهو يعتصر كره البيزبول في يده مُضيِّقًا عينيه.

التفت هوبر إلى ديلجادو وقال:

- آسف، لكن هل قلتِ أنكِ شريكتي الجديدة؟

لم ترفع عينيها عن حاجياتها التي تُخرجها من الصندوق، وأجابت:

- أمنحك عشر درجات من عشر لكفاءتك في الفهم السماعي أيها المُحقق. أراهن أنك حاصل على شهادة من الأكاديمية تُثبت تفوقك هذا.

حدق هوبر إليها، ومن حولهما كان بعض المُحققين يقتربون ببطء. مارني وهانت يتصرفان ككيانٍ واحد، يرتكنان إلى العمود المُقابل لمكتب هانتر، أذرعهما مُنعقدة، ابتسامتاهما مُتسعتان وهما يتفحصان ديلجادو من أعلى إلى أسفل. التقت أعين مارني وهوبر، فرفع الأول حاجبيه.

تجاهله هوبر، وقال لشريكته:

- حسنًا، اسمعي يا آنسة ديلجادو...

- *المُحققة* ديلجادو، أيها المُحقق هوبر.

كانت قد انتهت من إخراج أمتعتها من الصندوق الورقي، ووضعته جوار مكتبها على الأرض. وقفت شامخة ودست قبضتيها على جانبي خصرها ونظرت إلى هوبر من تحت غُرتها السوداء مُردفة:

- لا تقل لي إنك باستخدام حاستك البوليسية المذهلة قد اكتشفت أنني امرأة. تهانئي! سأتأكد من أن أضعك في قائمة المسئولين عن تزكيتي.

فتح هوبر فمه ليتكلم، لكن ظهور النقيب لافورنيا أنقذه. وقف الرئيس المُتعرق جوار مكتبيهما، وبدأ يُشمِّر كُميه عن ذراعيه الشبيهين بجذعي شجرة، بينما يتراقص طرف سيجارته المُشتعلة في فمه إذ يتكلم.

- أرى أنكما قد تعارفتما. المُحققة ديلجادو انضمت إلى قسمنا بعد نقلها من القسم رقم 117 في كوينز. هي مُستجدة في قسم الجنايات، وشريكتك. إن كان لديك أي تحفظات على هذا فاحتفظ بها لنفسك، وإن كان لديك أسئلة فأنا لا أرغب في سماعها.

عدَّل من وضع ثنية الكُم لتكون تحت كوعه مباشرة وأضاف:

- هل كلامي واضح؟

اعتدل هوبر في جلسته وقال:

- واضح تمامًا يا سيدي.

ثم تردد قليلًا قبل أن يقول:

- الأمر فقط أن...

ابتسمت ديلجادو وقاطعته:

- ما يريد المُحقق هوبر قوله يا سيدي أن شريكته الجديدة امرأة.

تنهَّد لافورنيا ، ووأد سيجارته في المطفأة المُفعمة على مكتب هوبر، ثم التفت ليواجه الموجودين جميعًا.

- حسنًا. اسمعوا. نحن فخورون بكوننا جزءًا من المبادرات التي تصدَّر لها المأمور بنفسه. ابتداءً من هذا الشهر، سيُسمح بعمل المُحققات في قسم الجنايات، والمُحققة ديلجادو واحدة من أول تسع نساء أُختِرن للعمل في المديريات الخمس، وستتحمل نفس المهام التي تتحملونها، وستعمل على نفس القضايا التي تعملون عليها، وغالبًا ستكون مزعجة لي مثلما أنتم مزعجون، وهي بديل المُحقق العزيز الذي غادرنا؛ المُحقق ستافورد.

ثم أشار إلى هوبر وأردف:

- وأنت كنت تريد شريكًا منذ وقت طويل، وهاك هديتك.

صدرت من المُحقق بارني ضحكة قصيرة كالنباح، فحدجه لافورنيا بنظرة نارية.

- هل ثمة مشكلة أيها المُحقق؟

انغلق فم مارني مُستكملًا مضغ العلكة وقال:

- حسنًا، أعتقد أننا بالفعل في حاجة لشخص يصنع لنا القهوة.

وضحك هانت مُجددًا بشكلٍ مُستفز. قال لافورنيا :

- اضحك يا أيها المُحقق. هذه المدينة في حاجة إلى أفراد شرطة أكِفَّاء، أيًّا مَن كانوا، ولو كانوا حتى فضائيين، ما داموا قادرين على الانتهاء من القضايا بكفاءة وسرعة. والآن، فليعد كلٌّ إلى عمله.

عاد لافورنيا إلى مكتبه، وكذا باقي المُحققين، إلا هاريس الذي ظل مكانه يُحدق إلى ديلجادو، وديلجادو تحدق إليه حتى أسقط هاريس أخيرًا كُرته على المكتب، وأمسك بكوبه وقام باحثًا عن المزيد من القهوة.

قرَّبت ديلجادو كرسيها من مكتبها وقالت:

- أشخاصٌ ودودون. لا بد أن عالم بروكلِن المشبوه الخفي يرتعد خوفًا منا.

ابتسم هوبر وقال:

- نحن صفوة مدينة نيويورك.

هزت ديلجادو رأسها وقالت:

- لنا الله.

قلَّبت في الأوراق أمامها، ثم وضعت بعض الأقلام في الدُّرج، بعدها نظرت إلى هوبر مُردفة:

- ما قصتك أيها الشريك؟

رفع هوبر حاجبيه مُتسائلًا:

- قصتي؟

- أجل، قصتك. فقط لا تخبرني بالجزء الخاص بلونك المُفضل وبُرجك.

نظرت نحو المِطفأة وأكملت:

- هل تُدخن؟

- الجميع يدخنون.

- أنا لا أدخن، لكن أبي نصحني بألا أثق برجل لا يُدخن. لذا، فتدخينك في مصلحة عملنا معًا. لا تبدو مُنتميًا إلى هذا المكان، تبدو مُختلفًا.

- هذا صحيح. أنا من الغرب الأوسط، إنديانا.

- تقبَّل عزائي.

تراجع هوبر في كرسيه وحدق إلى ديلجادو، فتعجبت.

- ماذا؟

أشار هوبر إلى الكوب الفخاري على مكتبها وقال:

- أهذا هو علم كوبا؟

- الرجل بارع في الجغرافيا كذلك! يبدو أن مستوى التعليم في إنديانا مُرتفع.

- هل أتيتِ من كوبا؟

- كلا، من كوينز.

- أوه!

- والداي من كوبا، فرَّا إلى ميامي، ومنها إلى نيويورك قبل أن أولد.

- وماذا يعني هذا؟

أمالت ديلجادو رأسها وسألت:

- ماذا يعني؟

مال هوبر أمامًا، ونقر جانب الكوب بقلمه تحت علم كوبا، عند العبارة الإسبانية.

- هذا.

ابتسمت ديلجادو وقالت:

- لكن الرجل للأسف لا يتحدث الإسبانية.. لا بأس. العبارة هي: إيريس لا ميهور ماما ديل موندو.

- حسنًا!

- أنت أفضل أم في العالم.

اتسعت ابتسامة هوبر وهو يسألها:

- ألديكِ أطفال؟

- كلا. الكوب أعجبني فاشتريته. ماذا عنك؟

- لدي ابنة واحدة؛ سارة. ست سنوات.

- ست سنوات في مدينة نيويورك.. لا بد أن هذا صعب.

- نحن نبلي بلاءً حسنًا.

- قلت لي من أين أنت؟

- إنديانا، بلدة صغيرة تُدعى هوكينز.

- وهل ثمة شُرطيون في هوكينز، إنديانا؟

- بالتأكيد. ولدينا كهرباء وماء كذلك.

- هل أغوتك أضواء وبريق المدينة فجئت إلى هنا، أم أنها أمنية قديمة رغبت في تحقيقها قبل أن تموت؟

ضحك هوبر وأجاب:

- كلا! رأيت فقط أن الانتقال هو القرار المناسب في الوقت المناسب.

مالت ديلجادو أمامًا وقالت:

- وهل ثمة وقت مناسب للانتقال إلى نيويورك؟ العمل كشرطي في هوكينجز...

- هوكينز.

- هوكينز، أيًّا كان اسمها.. العمل كشرطي هناك يختلف عن العمل هنا.

نقرت مكتبها بإظفرها وأردفت:

- لا أفهم قرارك.

زمَّ هوبر شفتيه، ثم قال:

- أنت مُحقة، الأمر يختلف. لكنني كنت أحتاج التغيير. قبل أن أعمل كشرطي كنت مُلتحقًا بالجيش. تخرجت في المدرسة الثانوية وعملت لأربع سنوات في كل أنحاء البلاد، ثم فجأة وجدت نفسي في دغلٍ على الجانب الآخر من الكرة الأرضية.

همست ديلجادو من بين أسنانها:

- أنت تطوعت لهذا الهُراء؟ لا تبدو لي كتابعٍ للعم سام.

لعق هوبر شفتيه وقال:

- لست تابعًا، لكنها كانت الطريقة المُثلى للخروج من إنديانا. استمتعت بهذا التطوع في البداية.. حاربت في جولتين؛ 1962، 1968 ثم عدت إلى هوكينز ومعي نيشان النجمة البرونزية. ولم أجد شيئًا آخر أفعله.

- لذا التحقت بالشرطة.

فرد هوبر كفيه وابتسم قائلًا:

- وها أنا هنا. ماذا عنكِ؟

ضحكت ديلجادو وأجابت:

- الأمر كان بسيطًا، التحقت بشرطة مدينة نيويورك، وعملت بجد، فأصبحت مُحققة. وها أنا هنا.

رفع هوبر حاجبيه متسائلًا:

- هل أردت أن تعملي في الجنايات منذ البداية؟

- بالطبع! الجنايات هي القمة بالنسبة للمُحقق. دعني أخبرك أنني لم أستسلم قط أو أيأس.أهلًا بك في السبعينيات المُتأرجحة أيها المُحقق! والآن ناولني ملفًا ودعني أرى أيًا من غوامض الكون يُعجزكم أيها المُهرجون.

ضحك هوبر ومرر إليها كومة من الملفات، ثم راح يراقب شريكته الجديدة تفتح الملف العلوي وتقرأ. كانت جالسة ورأسها مُنكس، ثم بعد دقيقة مدت يدها تأخذ قلمًا وتُخطط تحت كل سطر وهي تقرأ.

عاشر هوبر شريكته الجديدة لمدة خمس دقائق فقط، وكان رأسه يدور إعجابًا؛ ذكية، سريعة، ذات سلوك مميز وتأثير قوي.

ثم رفع عينيه هو وديلجادو إذ ظللهما ظل لافورنيا الضخم للمرة الثانية اليوم.

- جميل أنكما تفاهمتما. ستكوِّنان فريقًا جيدًا كالزوجين المُغنيين سوني وشير! ممتاز.. أنا سعيد لأجلكما.

رفع هوبر حاجبيه وتبادل النظرات مع ديلجادو المُبتسمة التي سألت:

- أثمة شيء نفعله لأجلك يا سيدي؟

- يمكنكما حل الجرائم.. هذا كل ما أريد.

قالها وألقى بملف على مكتب ديلجادو، فجذبته نحوها وفتحته. مال هوبر أمامًا ليرى. في أول صفحات الملف صورة كبيرة بالأبيض والأسود لمسرح جريمة. بدت غير واضحة لوهلة، حتى أدركا أنهما ينظران إلى صورة جثة. همس هوبر:

- إلهي! ماذا حدث بحق الجحيم؟

أجاب لافورنيا:

- المُعتاد، أيها المُحقق. قُتِل أحدهم ومهمتك أن تجد القاتل.

راحت ديلجادو تهز رأسها وهي تقرأ في الملف، وأخيرًا قالت:

- هذا هراء غريب للغاية!

نظر هوبر إليها، ثم إلى النقيب وعيناه تتسعان في ترقُّب. قال لافورنيا:

- غريب، أليس كذلك؟ فريق الفحص الطبي في مسرح الجريمة الآن، وينتظرونكما منذ خمس دقائق.

قام هوبر وأخذ سُترته من فوق ظهر كرسيه، بينما قامت ديلجادو ببطء وعيناها مُثبتتان على الملف، ثم أغلقته في النهاية وناولته لشريكها. سألها هوبر:

- مُستعدة؟

- دومًا مُستعدة.

أخذ هوبر الملف، ثم انطلق الاثنان ليتقصيا أول قضية لهما معًا.

٢٦ ديسمبر ١٩٨٤
كوخ هوبر
هوكينز، إنديانا

شعر هوبر باقتراب السؤال، فتوقف عن الحكي، وقبض بكفيه على كوب القهوة مُقربًا إياه من صدره.

سألت إيل:

- إذًا!

ثم صمتت، فسألها هوبر:

- إذًا؟

جعدت إيل أنفها وثنت رقبتها وقالت:

- لم يكونوا يحبونها؟

- ديلجادو؟

- الجميع كانوا ينظرون إليها، وكانت تصرفاتهم شريرة.. أغضبوها.

- حسنًا.

كيف سيشرح لها هذا؟ جرع القهوة ثم زفر بحرارة، وكان قد قرر أن يتحدث بشكل مباشر.

- لم ترُق لهم لأنها امرأة، ولأنها هيسبانية.

- هيسبانية؟

كررت إيل الكلمة ببطء مُحاولة تقليد هوبر قدر استطاعتها.

- شخص من أصول إسبانية. الحقيقة أنهم كانوا يخشونها.

هزت إيل رأسها متسائلة:

- يخشونها؟

- كانوا يخشون ما قد تنجزه، ويخشون أنها ربما تتفوق عليهم، ولم يكن هذا ليعجبهم. كانت تُمثل تهديدًا لهم، ترويعًا. أعني، عمل امرأة معهم كان جديدًا عليهم، وكانوا يعتقدون أن العمل هو منطقة نفوذ الرجال، وفجأة وجدوا امرأة وسطهم، امرأة بارعة جريئة مستعدة لمنافستهم. شعروا أنها تغزو عالمهم وأن عليها العودة إلى حيث تنتمي. لم تُعين شرطة نيويورك محققة في جرائم القتل من قبل. كان عليها أن تقاتل من أجل حقها في العمل مثلنا، ولم يرق للبعض هذا.

عبست إيل هاتفة:

- هذا ليس عدلًا!

- بالتأكيد.

- هي كانت مُحققة.

- أجل.

- مثلك.

- أجل، مثلي.

- وهل كنت تريد أن تعمل معك؟

- أنا؟ الحقيقة أنني فوجئت بالطبع، لكني أميل إلى الظن بأن عقلي كان مُتفتحًا أكثر منهم. وكما قُلتِ، ديلجادو كانت مُحققة جنايات مثلي، وكنت في حاجة إلى شريك، وقد منحوني شريكًا، وكان لدينا عمل ننجزه. عليكِ فقط أن تتذكري أن هذا كان التفكير السائد منذ زمن، والأمور كانت مختلفة وقتها.

- وهل تغير الوضع؟

- آه.. الحقيقة...

- هل تغير الوضع؟!

هز هوبر رأسه ندمًا على البدء في هذه المناقشة رغم أهميتها.

- كلا.. لم يتغير الوضع تمامًا، لكنه صار أفضل الآن.. نوعًا.

أومأت إيل وقالت:

- لو كنت مكانها كنت سأغضب أيضًا.

- أعرف هذا، لكن ديلجادو كانت تعرف كيف تتصرف، ولم تدع مضايقاتهم تؤثر بها.

ثم ضحك مُردفًا:

- كانت شرطية عنيدة، هذا أكيد. وقد تأكَّد مع الوقت أنها أكثر مهارة من باقي المُحققين، بما فيهم أنا شخصيًّا.

ابتسمت إيل وقالت:

- والقضية كانت البداية.

اختفت ابتسامة هوبر، وانحنى مُريحًا ذراعيه على الطاولة قائلًا:

- أجل، كانت هذه هي البداية. النقيب أعطانا هذه القضية في أول يوم لديلجادو معنا.

قالت إيل مُرددة كلمات ديلجادو:

- هذا هراء غريب للغاية.

كررت الكلمات ببطء كأنها كلمات هامة عليها حفظها. عادت ابتسامة هوبر، فلم تكن تلك هي كلمات ديلجادو بالضبط، لكن لا داعي لأن تعرف إيل هذا. حكايته تحوي القتل والعنف والخطر، وعليه أن يروض كل هذا قدر استطاعته. لم يكن لديه مشكلة مع الكلمات البذيئة، لكن عليه أن يكون مثلًا مُحترمًا تحتذي إيل به.

رشف هوبر من قهوته، واستكمل سرد قصته..

الرابع من يوليو، 1977

الفصل الرابع

مجرد يوم آخر في المكتب

٤ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

كان الليل قد انتصف، حين أدخل هوبر مفتاحه في قفل باب بيته، وأداره بسرعة، ودلف إلى الشقة غير راغبٍ في إيقاظ زوجته أو ابنته.

لكن نور حجرة المعيشة كان مُضاءً، وبمجرد أن أغلق هوبر الباب خلفه سمع صوت حركة أوراق على خلفية من صوت أغنية آلان أوداي (الملاك المُتنكر)، ثم سمع صوتًا ظنه صوت كوب دايان إذ يوضع على واحد من الصحون الفخارية المُشكلة على صورة بقرة.

وضع مفاتيحه على طاولة المطبخ، وسار إلى الحجرة الأخرى. رفعت دايان رأسها عن عملها وهتفت:

- مرحبًا.

دار هوبر حول المنضدة وقبَّلها على جبينها.

- آسف، حاولت ألا أحدِث صخبًا.

- لا تقلق، كدت أنتهي من عملي.

نظر هوبر إلى المنضدة المُغطاة بأكوام من الأوراق، وفي منتصفها تقويم ورقي مكتوب عليه بخط دايان النضيد، وعند كوعها دفتر كبير. لم يكن مُلمًّا بما تفعل، لكنه كان يعرف عملية تحضير الدروس حين يراها.

- كيف الحال؟

وضعت دايان قلمها فوق الدفتر وتراجعت في الكرسي مشيرة إلى التقويم.

- كل شيء ممتاز. أعددت تخطيط الحصص للعام القادم، سيثور ديريك حين يرى ما فعلت.

ابتسم هوبر، فديريك أوسترمان هو نائب مدير المدرسة ولا يحب كثيرًا أفكار دايان لسبب بسيط، هو أن خياله أفقر من أن يأتي بمثلها.

- في يوم ستحصلين على وظيفته، وليجاهد هو في التعامل معك وقتها.

ضحكت، ووقفت مبتعدة عن الطاولة، ثم أعادت القلم إلى مهده، بعدها اقتربت من زوجها وعانقته لثوان، ثم ابتعد قليلًا.

- هل كنت تشرب؟

- كأس واحدة. كانت ليلة عصيبة. هل سارة بخير؟

ابتسمت دايان وقالت:

- استحوذت الصخرة مولي على كل اهتمامها اليوم، لذا لم تُعلق على غيابك، ثم تركتها تسهر لتشاهد الألعاب النارية على التلفاز معي، لكنها تعبت من الحفل وكل الحلوى التي تناولتها، فنامت بلا اعتراض.

- هل قرأت لها...؟

- أجل.. حتى نهاية الفصل الخامس، مع أنني لست واثقة إن كانت سمعت كل هذا. لقد انطفأت فجأة كالنور، ولم أدرك أنها قد نامت وأكملت القراءة.

ابتسم هوبر وقال:

- كان هذا كتابًا جيدًا.

ثم خفتت ابتسامته وتنهد. توجه إلى المطبخ تتبعه زوجته. فتح البراد وبحث عما تبقى من دستة البيرة التي وضعها على الرف العلوي جوار المصباح، ثم غير رأيه وأغلق الباب، وراح يبحث بين أرفف المطبخ مُتحركًا في المكان الضيق وزوجته خلفه.

- ليلة عصيبة، أليس كذلك؟

- أجل.

ظل هوبر يبحث بين الأرفف حتى أنهى دورة كاملة حول المطبخ، فعبس وقال:

- يجب أن أذهب إلى العمل غدًا أيضًا.

- يوم استقلال سعيد.

قالتها دايان ودفعت خزانة سُفلية بقدمها، انحنى هوبر يفتح باب الخزانة، وأخرج منها نصف زجاجة سكوتش.

راقبته دايان إذ جلب كأسًا وأفعمها، فقالت:

- يبدو أن بعض الليالي عصيبة، وبعض الصباحات كذلك.

توقف هوبر ونظر إليها، ثم جرع جرعة كبيرة من السكوتش، ولم يبلعها. أبقاها في فمه لحظات ليستمتع بالشعور الحارق المُرضي، ثم ابتلعها سامحًا للشعور الناري بالانتشار في أحشائه. قال وهو يصب كأسًا أخرى:

- عزيزتي، نيويورك مدينة قاسية، وكون المرء شرطيًا فيها يحيل حياته إلى جحيم.

أغلق الزجاجة وأفرغ الكأس في جوفه، ثم استند إلى المنضدة في مواجهة دايان التي عقدت ذراعيها مُحدقة إلى زوجها. تهدَّل كتفاه وهو يقول:

- آسف. بالفعل أنا آسف.

وضع الكأس جانبًا واتجه إلى زوجته، وأمسك بيدها. قاومته في البداية، ثم استسلمت وعانقته مُريحة رأسها على صدره، فلف ذراعيه حولها. همست:

- لا عليك. أنت تمنيت هذه الوظيفة وعليك أن تبذل جهدك للحفاظ عليها، لا تعتذر.

أراح هوبر خده على رأس دايان وقال:

- لم يزعم أحد أن الأمر سيكون سهلًا.

ضحكت دايان وبخفة قالت:

- أردنا تحديًا، ونلناه.

زفر بصوت عالٍ وقال:

- أجل. هل خطر لك من قبل العودة إلى هوكينز؟

ابتعدت دايان عنه كي تنظر إليه وقالت:

- أتمزح يا جيمس هوبر؟

ابتسم وقال:

- أنت تعلمين ما أعني. هل اتخذنا حقًّا القرار الصحيح بانتقالنا إلى نيويورك؟ إلهي، المكان يتهاوى من حولنا.

- أنا أثق بك.

- وأنا أثق بك كذلك.

- كلا، اسمع. أنا أثق بك وهذا يعني أنني أثق في ما تريد فعله. لم نستطع المكوث في هوكينز، أنت عرف هذا وأنا أعرفه. ليس بعد ما مررت به. أنت أردت أن تُحيل المصاعب التي مرت بك إلى شيء يساعد الناس، وكما كانت شرطة هوكينز تحتاجك، فأنت كنت تحتاج إلى ما هو أكبر. آمنت بك وقتها وأؤمن بك الآن. قرارنا كان خيرًا لنا، وقد فعلنا وما زلنا نفعل ما نراه صوابًا.

عانق هوبر زوجته. كانت مُحقة، وقد صاغت كل ما أراد قوله بشكل مرتب. جذبها هوبر وقبَّلها، شعر بحرارة جسدها تعبر خلال قميصه وتصل إلى جسده، وبنبضها تحت كفه التي تهيم حول رقبتها.

كان اليوم عصيبًا، وكان هذا بالضبط ما احتاجه، أكثر مما احتاج إلى الخمر، أو الحديث عن القرارات الصائبة. هما يعيشان في المدينة منذ خمسة أعوام تقريبًا، فلو كان المكان بهذا السوء، ولو كان قرارهما خاطئًا، فلماذا لم يغادرا حتى الآن؟

همس هوبر لزوجته وهو يحدق إلى عينيها:

- هل أخبرتك مؤخرًا أنني أحبك؟

عبست دايان وقالت:

- دعني أرى.. أنت ذكرت ذلك للتو، و... تعالى إلى الفراش.

استدارت وأخذت كفه في كفها وغادرا المطبخ إلى حجرة النوم.

الفصل الخامس

غزو الرجال المجهولين

٥ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

كان هوبر شاردًا في القضية فلم يعِ وصول ديلجادو إلا حين سمع صوت حقيبتها تُوضع على المكتب. ظل يحدق إلى شريكته خلف مكتبها وهي تفتح أول ثلاثة أزرار من قميصها وتحرك ملفًا أمام وجهها كالمروحة طلبًا للهواء. كانت درجة الحرارة تزداد باطراد والساعة لم تبلغ الثامنة صباحًا بعد. قالت ديلجادو:

- وصلت مُبكرًا.

- وهل يمكن لأحد أن ينام في هذا الحر؟

- أنا من كوبا، وهذه درجة حرارة عادية عندنا.

- كلا، أنت من كوينز والجو فعلًا حار للغاية.

ضحكت ديلجادو وأعادت الملف إلى مكانه، ورفعت كوبها هاتفة:

- أتريد بعض القهوة؟

- الآن؟ أنتِ حقًّا تمزحين.

وضعت ديلجادو كفها عند خصرها وقالت:

- أولا، أنت تعرفني الآن بشكلٍ كافٍ كي تدرك أنني لا أمزح أبدًا قبل الغداء، ثانيًا، يبدو أنك في حاجة إلى محقن قهوة وريدي لا مجرد كوب. ثالثًا، الجو حار و...

- وأنت تحبين تعذيب نفسك لتؤكدي قيمتك وحقك في أن تكوني مُحققة جنايات؟

رفعت ديلجادو حاجبًا، ولوَت طرف شفتيها هاتفة:

- أنت ملك الحمقى، أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟

مال هوبر إلى ظهر كرسيه وقال:

- ذُكر هذا في أكثر من مناسبة.

ابتسم، وبعد لحظات تنهدت ديلجادو وهزت رأسها.

مرت ستة أسابيع على شراكتهما حتى صارت علاقتهما عادة أحبها. لم يكن يدرك ما كان يفتقده منذ وقت طويل، ففي الوقت الذي كان ستافورد شريكه، لم يتوافقا قط. ربما كان ستافورد شرطيًّا جيدًا في وقت ما، لكن هذا كان في وقت بعيد لم يُعاصره هوبر.

روساريو ديلجادو كانت شريكة حقيقية. مُتفانية، كُفأة. شخص يأتمنه على.. حياته.

سألها:

- الجو حار.. و...؟

- وشرب مشروبٍ ساخن في جوٍ حار يقلل من الشعور بالحرارة فورًا.

قطب هوبر وقال:

- لست واثقًا أن ما تقولينه حقيقي.

- أتطالبني بأن أنصت للسيد "تعليم إنديانا" الآن؟ ربما أكون من كوينز لكنني أعرف شيئًا أو اثنين عن كوبا والقهوة.

قام هوبر، فأشاحت ديلجادو بيدها تجاهه وأردفت:

- اجلس. يمكنني أن أحضِّر القهوة وأظل مُحققة جنايات في نفس الوقت. إلى جانب أنك كنت غارقًا في الأفكار وأنا أعرف المجهود الذي يتطلبه تسخين خلايا مُخك لتعمل.

ناول هوبر كوبه لديلجادو، واتجهت الأخيرة إلى حيث آلة تحضير القهوة دون كلمة أخرى. راقبها هوبر للحظة، ثم التفت إلى الملفات على مكتبه.

كانت أمامه سلسلة من صور مسرح الجريمة؛ ثلاث صور كبيرة بالأبيض والأسود مصفوفة أمامه عند منتصف المكتب. حولهم صور أصغر تُظهر نفس المشهد من زوايا مُختلفة. أسفل المجموعة وضع هوبر ثلاثة أكياس بلاستيكية تحوي الأدلة الخاصة بكل جريمة.

ثلاث جرائم قتل، ثلاثة أكياس.

ثلاث بطاقات بيضاء، تحمل كل واحدة رسمًا مُختلفًا بالحبر الأسود على وجه واحد منها.

الضحية الأولى: جوناثان شنيتزر. ذكر، أبيض، في الثانية والعشرين من عمره.

بطاقة مرسوم عليها دائرة مُفرغة.

الضحية الثانية: سام باريت. ذكر، أبيض، في الخمسين من عمره.

بطاقة مرسوم عليها علامة صليب.

وضحية الأمس الثالثة: جايكوب هويلر، ذكر أبيض في الثلاثين من عمره.

بطاقة مرسوم عليها ثلاثة خطوط أفقية متموجة متوازية.

بدأ هوبر في تغيير وضع الصور والبطاقات على مكتبه، يحركها هنا وهناك محتفظًا بحدود كل مجموعة وهو يُفكر في حل المُعضلة.

الشيء الأكيد الوحيد هو أن الجرائم فعلًا غريبة، كما قال النقيب لافورنيا حين أعطى ملف القضية الأولى لديلجادو في أول يوم عمل لها. جريمة قتل طقسي واحدة، تحولت إلى جريمتين، ثم ثلاث.

لم يجد هو أو ديلجادو صلة بين الضحايا، فقد كانوا أشخاصًا عاديين، أيًّا كان معنى صفة «عاديين» في نيويورك. الشيء الوحيد المشترك بينهم هو أن أيًّا منهم ليس لديه عائلة أو مُقربين.. على حد علم المُحققين حتى الآن.

هذا، وطريقة قتلهم المُتماثلة؛ كل واحد منهم طُعِن بنصل طوله أربع إلى ست بوصات كما ظهر في تقرير الطب الشرعي، وكل منهم طُعن خمس طعنات على مسافات متساوية، وكل طعنة منهم كانت مميتة.

عبر الوقت الذي قضاه هوبر كشرطي في نيويورك، كان قد رأى ضحايا لثلاثين أو خمسين طعنة أو حتى مائة. القاتل يكون وقتها تحت سيطرة المخدرات أو اليأس أو المرض العقلي، أو كل تلك الأسباب مجتمعة، وتأخذه الحماسة فيستمر بالطعن رغم موت الضحية.

لكن في هذه القضية القاتل كان مُحددًا، وكل جرح في مكان مُعين وعلى مسافات واحدة، ترسم في النهاية شكل نجمة خماسية مقلوبة.

- القهوة.

قالتها ديلجادو وهي تضع الكوب عند حافة مكتب هوبر، ثم أردفت:

- لا أستطيع أن أعدك بشيء بشأن الطعم، لكنني أعدك أنها ساخنة.

ثم التفت حول المكتب لتقف جوار شريكها، وتنظر إلى الصور المتراصة وهي ترشف قهوتها.

- هذا شيء يختلف عن كل توقعاتنا بالتأكيد.

حك هوبر ذقنه وأمسك بكوبه قائلًا:

- أليست هذه هي الحقيقة؟

- هل توصلت لشيء بعد؟

هز هوبر رأسه نافيًا. قالت ديلجادو:

- ستكون قضية جديدة غريبة إذًا.

كانت ديلجادو مُحقة، ففي الصيف الماضي قُتلت مُراهقتان في برونكس؛ دونا لوريا، وجودي فالنتي. أُطلق عليهما الرصاص وهما في سيارة جودي، نجت جودي ولم تنجُ دونا. من وقتها ظهرت خمس ضحايا آخرون، آخرهم منذ أسبوعين. الغريب أن القاتل كان يراسل نقيبًا في شرطة نيويورك، بل يرسل بتفاصيل جرائمه إلى جريدة دايلي نيوز تحت اسمٍ مستعار!

رغمًا عنه، نظر هوبر تجاه مكتب هاريس الخالي. المُحقق لم يأتِ بعد، واللافتة يدوية الصنع التي صنعها بنفسه ما زالت جوار آلة الكتابة العتيقة من نوع سميث كورونا الخاصة به. كانت قضية السفاح مُفزعة، واللافتة تُذكره دومًا بأن الشيطان ما زال يجوب المدينة.

تسعة أيام منذ آخر ضربة لابن سام

منذ بداية الجرائم، أصبحت نيويورك مهووسة بقاتلها المتسلسل الجديد، وسيطر ابن سام على الأخبار وعناوين الصحف لمدة أسابيع وشهور إلى جانب أخبار المشاكل المادية، والفوضى الضاربة في الأرجاء، والانتخابات الأهم للجيل الحالي من سكان نيويورك.

والآن، وابن سام أبعد ما يكون عن إلقاء القبض عليه، يظهر قاتل متسلسل آخر. ومنذ اكتشاف ضحيته الأولى، وصل هوبر وديلجادو إلى نفس الاستنتاج: يجب إبقاء هذه القضية تحت الأغطية على الأقل في الوقت الحالي. وافق النقيب لافورنيا على السرية، فأخبار ابن سام تكفي، ولا يمكن التنبؤ برد فعل الناس عند إضافة أخبار قاتل متسلسل آخر لنشرة الساعة السادسة.

قال هوبر:

- على الأقل لا يبدو قاتلنا قاتلًا مُحاكيًا، فالسفاح لا يستوحي شيئًا من جرائم ابن سام، ولم يحاول التواصل مع السلطات مثله.

مال على الصور أكثر مُردفًا:

- وطبيعة القتل الطقسي كذلك مختلفة.

- واضح.

جلست ديلجادو إلى مكتبها، تشرب القهوة. قال هوبر:

- كلا، أعني أنه لا يقتل من أجل الشهرة، أو لفت الأنظار. أنا لستُ واثقًا حتى أنه يقتل من أجل القتل.

قطبت ديلجادو وقالت:

- يبدو أن القهوة كانت ساخنة أكثر من اللازم وأحرقت مخك، أيها المُحقق. أنت تقتل شخصًا بسكين، فيبدو أنك تفعل ذلك من أجل القتل، لا من أجل السرقة مثلًا.

- اسمعيني. ليست الجرائم جرائم سرقة، بل قتل، لكن يمكن ألا يكون القتل هو الهدف في حد ذاته.

- لا أفهمك.

أمسك هوبر واحدة من صور مسرح الجريمة وناولها لشريكته قائلًا:

- انظري إلى هذه المشاهد، الجرائم جرائم قتل طقسي، الضحايا مقتولون بشكل مُحدد مُوحد، مُرفق مع كل ضحية رمز. لم يُمَس شيء آخر في المكان. هذا له معنى، وماذا لو أن القاتل لا يقتل من أجل لفت الانتباه؟ هو لم يقرأ عن ابن سام ولا يفكر في أن ينافسه. القاتل يتبع هدفه الشخصي فقط.

وضعت ديلجادو الصورة أمامها، ثم مالت خلفًا في مقعدها، رافعة قدميها فوق المكتب، فتبدى لهوبر كعبي حذاءيها المُربعين.

- إذًا أنت تقول أن البطاقات التي يتركها، لا يتركها لنا؟ ولا يقصد أن يوجه إلينا رسالة من خلالها؟

- كلا. نمط الطعنات، والجروح، والبطاقات.. كل هذا له معنى، لكنه معنى غير موجه إلينا ولن نستخلص منه شيئًا.

- ثم ماذا؟ نظرية جيدة، لكنها لا تساعدنا. إن لم يكن القاتل يحاول ترك رسائل أو إشارات لنا، فهو رجل مجنون. أخبرني شيئًا لا أعرفه.

تنهد هوبر، حدق إلى البطاقات داخل أكياس الأدلة، ثم توقفت عيناه عند البطاقة التي وجدوها أمس؛ ثلاثة خطوط متموجة متوازية.

- تلك الرموز تعني شيئًا للقاتل، لو عرفنا ما هو هذا الشيء، ربما نعرف سبب الجرائم.

- مما سيقودنا إلى القاتل نفسه. لكن تلك البطاقات لا تعني لنا شيئًا يا هوبر، ولا توجد بصمات عليها. هي مجرد بطاقات بيضاء يمكنك شراؤها من أي مكان، وحبر آكريليك متوافر في بعض الأماكن القليلة نسبيًّا، لكن متاجر بيع أدوات الرسم قليلة في الأساس.

هنا اندفع النقيب لافورنيا من مكتبه، فرآه هوبر بطرف عينه. ما أن التفت إليه حتى أدرك أن شيئًا يحدث. كان لافورنيا واقفًا عند باب حجرته، ممسكًا بالمقبض، وعيناه تمسحان حجرة المُحققين. سألته ديلجادو:

- ماذا دها النقيب؟ ذبحة صدرية؟

أشار لافورنيا بإصبع لحيم نحو هوبر وصاح:

- هوبر!

ثم عاد النقيب ليجلس خلف مكتبه تاركًا بابه مفتوحًا.

- لماذا يراودني شعور سيئ حيال ذلك؟

قالها هوبر قبل أن يقوم مُتوجهًا إلى مكتب النقيب. توقف عند الباب فأشار إليه رئيسه بالدخول.

- أغلق الباب.

عقد لافورنيا كفيه على فخذيه، وحدق إلى ورق النشَّاف على المكتب بدلًا من أن ينظر إلى المُحقق أمامه. تردد هوبر وقد أدرك انحراف مِزاج النقيب، ثم انصاع للأوامر.

- اجلس أيها المحقق.

ولم ينظر إلى هوبر، فتحرك الأخير حتى وقف خلف أحد الكرسيين المواجهين للمكتب، ووضع يديه المعروقتين على ظهر المقعد.

- أهذه أخبار أحتاج للجلوس كي أسمعها؟

نظر إليه لافورنيا وقال:

- لا وقت لدي للمزاح أيها المحقق. اجلس أو قف، لا أهتم، وليس لدي وقت كي أهتم.

عضَّ هوبر شفته السفلى، ودار حول المقعد ليجلس.

- هل الأمر عن القضية؟ أنا وديلجادو كنا...

أغلق لافورنيا عينيه وهز رأسه الضخم من جهة إلى أخرى ببطء، فتوقف هوبر عن الحديث.

- آه، حسنًا.. أنا...

- أنت تقول «أنا» كثيرًا أيها المحقق.

- حسنًا، أنا.. أعني...

رفع النقيب كفه قال:

- لا توجد قضية أيها المُحقق. ليس بعد الآن.

رمش هوبر، وأخذ شهيقًا، ثم كتمه ناظرًا حوله. ماذا يحدث؟ هل فوَّت شيئًا؟ هل هناك أخبار جديدة؟ أدلة جديدة؟ شيء وجدوه في مسرح الجريمة الثالثة؟ هل ألقوا القبض على أحد؟ هل اعترف؟

طافت مئات الأسئلة الأخرى في ذهنه. زفر هوبر ببطء، واعتدل في كرسيه وأدرك أن العرق قد ألصق قميصه بظهره.

أخيرًا قرر سؤال النقيب:

- ماذا؟

- لم تكن هناك قضية أيها المحقق. لم يعد قاتل البطاقات ضمن مهامنا.

اعتدل هوبر في كرسيه مرة أخرى وسأل:

- ماذا حدث؟ هل حصلتم على معلومات جديدة؟

لم يقل لافورنيا شيئًا، حدق إلى هوبر ثم هز رأسه ببطء يُمنة ويسرة مرارًا وهو لا يرفع عينيه عن المُحقق.

فتح هوبر فمه كي يقول شيئًا، لكن باب المكتب انفتح دون أن يستأذن الطارق. التفت هوبر في مقعده متوقعًا أن يرى ديلجادو أتت لترافقهما. ربما كانت مُحققة مُستجدة لكن القضية قضيتها كذلك.

لكن ما رآه هو شرطية في زيها الرسمي، تفتح الباب لرجل يرتدي بذلة كُحلية. رفعت الشرطية حاجبًا تجاه لافورنيا، فتنهد وأشار إليها أن تغادر، فتراجعت بعد أن أدخلت الرجل.

وضع الرجل ذو البذلة حقيبته على مكتب لافورنيا، ودون أن يولي أي انتباه لوجود الرجلين الآخرين، بدأ في فتح أقفال الحقيبة.

حدق إليه هوبر في تعجب، ثم نظر إلى النقيب فهز رأسه مرة أخرى ببطء مبالغ فيه. ظل الرجل يعبث في قفل الحقيبة وهوبر يتفحصه. كان رجلًا عاديًّا من جميع النواحي، يميل إلى النحافة، وجهه من تلك الوجوه التي لا تُفصح عن عمر صاحبها، لكنه بدا في الأربعينيات أو الخمسينيات من عمره. حليق، وشعره قصير داكن، مفروق عند المنتصف، تبدو فيه آثار المشط على هيئة خطوط هندسية منتظمة. شفتاه رفيعتان مزمومتان إذا يصب تركيزه في فتح القفل.

كانت بذلته ضيقة ذات قصَّات حادة، وبنطاله مكويًّا بدقة وكأن البذلة قد فُصِّلت اليوم لكن منذ عشر سنوات. رأى هوبر هذا الطراز من الرجال من قبل، لا بد أنه محام أو يعمل في مكتب محاماة، أو هو رسول حكومي. رجل من الطراز الذي يحافظ على ترتيب مكتبه حتى لتظن المكتب بلا موظف. تخيل هوبر عدد الأقلام المصفوفة على مكتب الرجل من كل نوع وصنف إلى جانب سائل تصحيح الكتابة، لأن الرجل ذا البذلة الزرقاء يبدو من نوعية الرجال الذين يبذلون طاقتهم لتبدو تقاريرهم دقيقة، منمقة بلا أي نقيصة. هو رجل غرضه جعل الحياة في نيويورك أصعب مما هي عليه.

كره هوبر الرجل قبل أن يتحدث حتى. سأله وهو يشير إلى الحقيبة:

- هل تحتاج إلى مساعدة؟ هل جربت الأرقام 1-1-1؟

فُتح قفل الحقيبة بصوت تكَّة دوى في المكتب كرصاصة. بدا على الرجل الرضا، ففرد جذعه وابتسم ابتسامة مُتكلفة. أومأ تجاه النقيب ثم هوبر وقال:

- سادتي.

سأله هوبر:

- آه، معذرة.. لكن من أنت بحق الجحيم؟

وجه الرجل ابتسامته المُتكلفة نحو هوبر. كانت عيناه زرقاوين كبذلته، وفوق شفته العُليا أثر قطرات عرق.

الرجل بشري قبل كل شيء.

تنحنح لافورنيا وأشار نحو الوافد الجديد وقال:

- هذا هو العميل الخاص جالوب. هو هنا بشأن نقل قضيتك إلى قسمه.

عبس هوبر وأومأ في سخرية ناظرًا نحو العميل جالوب.

- أوه، حسنًا.. جيد.. جيد.. ومن أي قسم أنت أيها العميل الخاص جالوب؟

زاد تكلف ابتسامة جالوب لو أن هذا ممكن وأجاب:

- هذه معلومات سرية أيها الضابط.

ابتسم هوبر ابتسامة مماثلة وقال مُصححًا:

- *المُحقق*.

- أعتذر.

والتفت جالوب إلى لافورنيا مُردفًا:

- الأمر يخص إدارة الشرطة.

ثم ابتعد خطوتين وكأن الأمر لا يعنيه حقًّا. شعر هوبر بدرجة حرارته ترتفع لسبب آخر غير حرارة الجو. استند إلى مسندي كرسيه وقام خاطيًا نحو جالوب، وكان أطول بقليل منه.

- اسمع يا صديقي. أنا لا أعرف من تكون، ولا من الذي أعطاك الحق في الدخول هكذا دون إذن إلى قسمنا وإلى مكتب النقيب، لكنني أقول لك أنك تقف على سطحٍ هش هنا.

نظر جالوب إلى هوبر، وابتسامته ملتصقة بعد بشفتيه. حدق هوبر إلى صدغي الرجل النابضين، ثم أردف:

- لقد كنا نعمل على هذه القضية لمدة ستة أسابيع، وكنا نُحقق نتيجة. يمكننا تولي القضية، لذا أنا آسف أيها العميل الخاص، لن أترك رجلًا مجهولًا يرتدي بذلة فاخرة يأخذ قضيتي مني.

لعق جالوب شفتيه، بينما ظل هوبر يحدق إليه، إلا أن التحديق لم يكن ذا فائدة، فقد ظل الرجل على ثباته وبروده. أخيرًا أومأ جالوب وقال:

- أتفهم قلقك أيها المُحقق، لكن القضية لم تعد قضيتك.

ثم نظر نحو لافورنيا الذي لم يحرك ساكنًا حيث جلس خلف مكتبه وأردف:

- القضية لم تعد داخل نطاق عمل إدارة شرطة نيويورك، وسنتولاها نحن.

ثم عاد ونظر إلى هوبر وأكمل:

- يمكنك شطبها من قائمتك.

ونظر إلى لافورنيا مُضيفًا:

- الحق أن فكرة كتابة القضايا ومُحققيها في قائمة مُعلقة فكرة لطيفة. يمكن أن أستعيرها، فقد تكون مفيدة في المكتب.

سأل هوبر:

- وأي مكتبٍ هذا؟

- لست مضطرًا للإجابة يا سيد هوبر.

- محقق هوبر.

- معذرة، أيها المحقق هوبر.

وجَّه جالوب حديثه إلى النقيب وقال:

- معذرة، فأنا أنسى الرُّتب.

ثم حرك كفيه أمامه في الهواء وأردف:

- ترتيب الوظائف لديكم تراتبي بشكل زائد عن اللازم.

تنهد هوبر والتفت إلى النقيب ومال عليه هاتفًا:

- سيادة النقيب، ماذا يحدث؟ ما هذا الهراء؟

تنهد لافورنيا بدوره ومسح وجهه. بعد هنيهة تفكير، فك النقيب ربطة عنقه والزر الأول من قميصه. ما فعله رسم ابتسامة على وجه هوبر.

ها نحن بدأنا..

قال النقيب:

- أيها العميل الخاص جالوب، أفهم سبب وجودك، وقد أمرني رؤسائي أن أتعاون معك إلى أقصى حد، وهذا أمر يسعدني. لكن لو أعطيتنا المزيد من المعلومات لاستطعنا توضيح الأمور لك أكثر.

أومأ جالوب وقال:

- بالتأكيد.

ثم فتح الحقيبة، فألقى هوبر نظرة سريعة على ما بداخلها، فلم ير إلا ملفًّا بُنيًّا أخرجه جالوب وأعطاه له. أخذه هوبر ونظر إلى غلافه الخالي من أي كتابات. جلس جالوب مشيرًا إلى المقعد الآخر.

- اجلس.

جلس هوبر وفتح الملف، فوجد فيه حزمة صغيرة من الأوراق مُثبتة بدبوس عند الطرف. أولى الأوراق كانت استمارة من نوع ما، وفوقها مثبتة صورة غير واضحة لرجل لم يتبينه هوبر إلا بعد لحظات، قبل أن يقرأ اسمه تحتها.

كان الرجل هو الضحية الثالثة، جايكوب هويلر، والعنوان في الاستمارة مطابق لعنوان مسرح الجريمة، أما الكتابة في نصف الصفحة السفلي كانت مخفية خلف خطوط سوداء سميكة.

طوى هوبر الصفحة فوجد المزيد من الخطوط السوداء يتخللها بعض الأسطر القابلة للقراءة لكن دون سياق يصبح فهمها مستحيلًا. الشيء الوحيد الذي استطاع هوبر استخلاص شيء منه هو عنوان آخر.

وضع جالوب ساقًا فوق الأخرى، وشبك كفيه أمامه وقال:

- الضحية الثالثة كانت جايكوب هويلر.

- نحن نعرف ذلك.

- ما لا تعرفه أيها المحقق، أن الضحية الثالثة كان واحدًا منا؛ العميل الخاص جايكوب هويلر وقد كان يعمل على قضية. كونه قتل أثناء تأدية وظيفته يجعل القضية من أولويات إدارتنا. ولضمان عدم تسرب المعلومات أثناء التحقيقات، سنتولى نحن التحقيق.

هز هوبر رأسه وقال:

- الأمر لا يسير على هذا النحو. لو أنك تعمل في هيئة إنفاذ القانون الفيدرالي، يمكنك تقديم طلب رسمي، أو على الأقل يمكنك طلب تعاوننا بلطف. لكن ما لا يصح هو أن تأتي إلى هنا وتأمرنا أن نوقف العمل. لا أهتم مع من تعمل، لكن هكذا تُدار الأمور.

عادت ابتسامة جالوب المُتكلفة وقد ازدادت لزوجتها. نظر إلى هوبر ثم إلى لافورنيا سائلًا:

- هل يتناقش كل المُحققين بهذه الطريقة؟

- المُحققون البارعون فقط.

اعتدل جالوب في كرسيه، مُبدلًا وضع ساقيه، والتفت إلى هوبر.

- في الحقيقة، أنا لديّ السلطة الكاملة التي تمكنني من الدخول إلى هنا وسحب القضية منكم. ولديّ القوة القانونية أن آمر إدارة شرطة نيويورك بتسليمي كل الملفات والمستندات الخاصة بالقضية. بل والأهم، فأنا أستطيع أن أقصي شرطة نيويورك من اتخاذ أي قرار بشأن القضية، وأنا قادر على إزالة أي عراقيل تعيق تنفيذ العدالة.

ثنى ذراعيه وعدَّل من وضع أسورتي قميصه كي توازي بالضبط أطراف كُمي سُترته، ثم نظر إلى هوبر وسأله:

- أتفهمني، أيها *المُحقق* هوبر؟

خلل هوبر شعره بأصابعه ناظرًا نحو النقيب، لكن لافورنيا هز رأسه مُجددًا وقال:

- أنا مُقيد يا هوبر، الأوامر أتتنا من رئيس المحققين شخصيًا. عندما تلقيت مكالمته كان العميل الخاص جالوب ورجاله في طريقهم إلى هنا.

تراجع في كرسيه وفرد كفيه أمامه مُردفًا:

- لا يوجد ما يمكننا فعله، القضية لم تعد قضيتنا.

قطب هوبر هاتفًا:

- تقول رجاله؟

انفتح باب المكتب، واندفعت خلاله ديلجادو. نظرت إلى ثلاثتهم، ثم استقر نظرها على النقيب.

- ماذا يحدث بحق الجحيم يا سيدي؟ الرجال بالخارج يأخذون كل شيء.

قام هوبر وتوجه ناحية نافذة المكتب المُطلة على حجرة المُحققين. رأى رجلين في حُلتين سوداوين ينقلان كل الملفات من مكتبه ومكتب ديلجادو إلى صناديق كبيرة مُخصصة للمستندات، بينما رجل ثالث مُنخرط في حديث من طرف واحد مع الشاويش مَكجويجَن الذي راح يصيح فيه دون أن ينطق العميل بشيء.

ابتعد هوبر عن النافذة هاتفًا:

- لا بد وأنكم تمازحونني.

اتجه هوبر إلى مكتبه وديلجادو من خلفه. نظر إليه العميل الواقف مع مَكجويجَن، فتوقف الأخير عن الصياح والتفت إلى هوبر وقال:

- هوبر، ماذا يحدث يا رجل؟ هؤلاء الغرباء لا يتفوهون بكلمة. ومن هذا الذي مع النقيب؟

التفت هوبر خلفه ليرى لافورنيا آتيًا والعميل الخاص جالوب في أثره، ومن خلفهما وقفت ديلجادو عاقدة ذراعيها في غضب.

قال النقيب:

- يكفي هذا أيها الشاويش.

ابتسم جالوب، ومنع هوبر نفسه بالكاد عن رغبة مُلحَّة لمسح ذلك التعبير السمج عن وجه العميل الخاص الذي نظر إلى لافورنيا بطرف عينيه وسأله:

- وهل هذا من *البارعين* عندك أيضًا أيها النقيب؟

تجاهله لافورنيا ووقف بين الشاويش مَكجويجَن والعميل الآخر، ومن حولهم تحلَّق باقي المُحققين يشاهدون ما يجري. التفت النقيب نحو الشاويش مخاطبًا من في الحجرة:

- لا يوجد ما يمكننا فعله. الأفضل أن تتركوهم يؤدون مهتمهم ويرحلون. لا يزال لدينا عمل نلتفت إليه، لذا فلنكمل عملنا.

عاد المُحققون الآخرون مُغمغمين إلى مكاتبهم، ولاحظ هوبر أنهم رغم ذلك لم يعُد أحد منهم إلى عمله. بخطوات عاصفة غضبى توجهت ديلجادو إلى مكتبها وأبعدت كوبها قبل أن يأخذه العميل الذي يجمع كل شيء في طريقه. غمغمت:

- أحمق!

نقر لافورنيا على كتف هوبر وقال:

- اذهب لتحتسي بعض القهوة وعُد في الخامسة. سيكونون قد أنهوا ما يفعلون وقتها.

- ثم ماذا؟ لقد جمعوا كل شيء!

- ماذا تريدني أن أفعل أيها المُحقق؟ اتصل بشخص اسمه بيم في مجلس المدينة وأطلب منه خدمة؟ ثق بي، الرجل منشغل وكذا نحن. أم أنك نسيت اسمك المدون أمام القضايا الأخرى في القائمة؟

صمت هُنيهة، تنهد ثم أردف:

- ربما كان هذا في مصلحتنا. ربما كانت قضية قاتل البطاقات أكبر من إمكاناتنا. ربما كان عليَّ الاتصال بالعملاء الفيدراليين منذ البداية.

أنهى النقيب حديثه وانصرف إلى مكتبه مُغلقًا الباب خلفه.

التفت هوبر يرمق العملاء إذ يجمعون الملفات. كانوا يعملون ببطء وترتيب، وبدا له أنهم يفحصون كل ملف، كي يتأكدوا أنه يخص قضيتهم ولا شيء سواها، قبل أن يضعوه بداخل الصناديق. على مقربة، وقف جالوب مؤرجحًا حقيبته، يتحدث إلى العميل الثالث.

قصد هوبر حجرة الاستراحة، وبينما يعبر من أمام ديلجادو، مسَّت كوعه. نظر إليها فأومأت برأسها إلى الاتجاه الذي كان يقصده، وقامت حاملة كوبها تتبعه.

ما أن وصلا إلى وجهتهما، أغلق هوبر باب الحجرة بينما توجهت ديلجادو إلى النافذة المُطلة على حجرة المُحققين.

في ركن الحجرة جهاز تلفاز صغير، مُغلق الصوت، يذيع إعلانًا بالأبيض والأسود عن حليبٍ مُجفف. أدار هوبر مفتاح التحكُّم ليعلو صوت فيكي لورنس مُغطيًا على ما سيقولانه.

- هل أنت بخير يا ديلجادو؟

- هذا محض هراء.

أومأ هوبر مغمغمًا:

- لديك حق.

- لكن.. واتتني فكرة.

الفصل السادس

خطة الهجوم

٥ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك.

"أخبار مُستمرة على مدار اليوم. هذه هي محطة وينز، امنحنا من وقتك عشرين دقيقة فنمنحك العالم!».

غاص هوبر في مقعد سيارة العمل القديمة وأخفض صوت المذياع إذ صدح صوت موسيقى الإكسليفون المميز لمقدمة أخبار محطة وينز 1010.

السيارة بيضاء ضخمة من طراز بونتياك كاتلينا. كانت سيارة فاخرة حين كانت جديدة، أما الآن فهي تتأرجح وتتمايل كقارب وسط بحرٍ عاصف. كانوا مضطرين لركوب سيارات مُتهالكة بسبب إجراءات خفض ميزانيات الانتقالات.

لكنها -رغم هذا- ما زالت مريحة نسبيًّا وبالأخص بالنسبة لشخص في طول هوبر. بعد انتظار ساعة في مرآب السيارات تحت الأرض، مُنحنيًا في جلسته، حمد الله على أن المقعد يدعم فقرات الظهر السفلية.

"مساء الخير، درجة الحرارة خمس وسبعون في تمام الساعة السابعة. معكم ستان زي بيرنز، وإليكم آخر الأخبار. العُمدة بيمز يواصل المُحادثات بين المدينة والاتحاد، ويقول أن على الاتحاد الرضوخ قليلًا....».

يشغل مرآب السيارات طابقين تحت مبنى القسم رقم 65، وكانت السيارة البونتياك في نهاية الطابق السُّفلي، يغلفها الظلال بسبب الزوايا غير المُوفقة لإضاءات المرآب. ربما كان يبالغ عندما اختار هذا الركن المُظلم، لكن موظفي المكتب والضباط كانوا يستخدمون السيارات في المرآب بشكل مُتكرر، وكلما تخفى عن أنظارهم كان هذا أفضل، فلو ساءت الأمور لاحقًا، فآخر ما يتمناه هو شهود على اختبائه هو وديلجادو في المرآب في الليلة التي أخذ فيها العميل الخاص جالوب منهما قضية قاتل البطاقات.

أو.. يظن أنه قد أخذها.

كان المرآب باردًا مُقارنة بشوارع المدينة الحارة لو كان ما أُعلن في المذياع صحيحًا. أبقى هوبر النوافذ مفتوحة، ليس فقط للإبقاء على برودة الجو، إنما كي يسمع ويرى كل شيء يدور في المرآب.

فقط تمنى ألا تتأخر، فهو لم يتصل بدايان ليخبرها أنه سيتأخر، لكن تأخيره كان مُتكررًا فلعلها لن تقلق، إلا أنه كره قلة حيلته في التواصل معها هذه المرة بالذات.

ظهرت ديلجادو بعد عدة دقائق، تسير نحو الممر الصاعد إلى الطابق العلوي من المرآب. توقفت تمسح السيارات بعينيها، فأدار هوبر المفتاح ليُشغل البطارية وأضاء كشافي السيارة مرة، فتوجهت ناحيته وركبت إلى جواره. همست:

- هذا جنون!

- سمِّيه حذرًا.

- سمِّه جنون الارتياب.

ثم التفتت إليه قبل أن تنظر إلى المذياع عاقدة حاجبيها، فتمد يدها إلى زِره وتغلقه. ابتسم هوبر وسألها:

- ألا تُحبين ستان زي بينز؟

- أنا أفضل محطة ميلو 92. حين طلبت منك أن نلتقي لاحقًا، لم أتصور أن تتخفى هكذا كالمراهقين الفارين.

اختفت ابتسامة هوبر، ومال على شريكته هامسًا:

- أنا أفهم ما قلتِه، لكن علينا الحذر. سنذهب إلى حيث علينا الذهاب، لكني أشعر أن رحلتنا ستكون ذات اتجاه واحد بلا عودة. إما أن نفوز وإما أن نخسر، والخسارة وخيمة العواقب. لذا فأنا آخذ احتياطاتي مهما بدت لك مُتطرفة.

نظرت إليه ديلجادو، فقد كانت شرطية مُتمرسة، لكنها بعد مُحققة مُبتدئة، مُستعدة لِلَي قواعد العمل لو تطلبت المصلحة هذا.

وها هما، يختبئان في سيارة العمل، يخالفان الأوامر المباشرة لأنهما لم ينتويا التخلي عن القضية بهذه السهولة.

كان هوبر قد استمع في حجرة الاستراحة لخطة ديلجادو. في البداية بدأت بذرة الشك في النمو داخل عقله، لكن بينما تُكمل حديثها شعر بالتصميم والعزيمة في كلماتها، وسرعان ما اختفت مخاوفه.

كانت مُحقة. أنصت إليها وهي تتحدث عن واجباتهما في حماية المدينة، وكيف أن حوادث القتل قد وقعت في نطاق عملهما، وأن الناس تعتمد على قِسمهم في تحقيق العدالة، ولا يمكن أن يتخليا عن القضية بهذه السهولة. أخبرته أن عليهما حماية الناس الذين أقسما على حمايتهم، وأن جالوب لا حق له في سحب القضية منهما.

وقد وافقها وأنصت إلى حديثها وآمن به. كانت فكرتها مجنونة، لكنها جيدة.

بعد دقائق عادا إلى حجرة المُحققين و..

بدأ هوبر في الشجار، توجه إلى جالوب مباشرة وراح يصيح. فعلته أدت التأثير المطلوب، فتجمع العملاء والمحققون الآخرون حولهما، واندفع لافورنيا من مكتبه في محاولة للحيلولة بينهما. من خلف كل ذلك، رأى هوبر ديلجادو تتسلل إلى مكتب النقيب، وبعد لحظات خرجت، وأشارت له، فتظاهر هوبر بتخليه عن الشجار والاستسلام.

قبل أن يعود إلى العمل، وبخه لافورنيا، فاعتذر اعتذارًا صادقًا، ثم استمر اليوم بشكل طبيعي في القسم رقم 65. دفن هوبر رأسه في قضية أخرى، وأمضى هو وديلجادو باقي الوردية يتحاشيان بعضهما، وكان هذا أيضًا جزءًا من الخطة؛ انفجار هوبر مثال سيئ أمام شريكته الجديدة، وعليهما التظاهر بأن كليهما مُحرج من الآخر. أمضيا اليوم بعيدًا عن بعضهما إلا اللقاءات القصيرة في الممرات حيث أعطى هوبر شريكته تفاصيل المكان والوقت اللذين سيتلاقيان فيه.

قالت ديلجادو:

- عمومًا، أنا آسفة للتأخير. كان عليَّ أن أنهي بعض الأمور، لكن المُهمة أُنجِزَت.

فتحت حقيبتها وأخرجت منها ملفًا صغيرًا يخص قضية جايكوب هويلر، الملف الذي كان على مكتب لافورنيا. أردفت ديلجادو:

- وقبل أن تقول شيئًا، أجل، أنا أيضًا رأيته.

أخذ هوبر الملف وقلب أول صفحة، وعلى ظهرها رأى العنوان الثاني وسط بحر من خطوط سوداء سميكة.

قال هوبر:

- شارع ديكمان.. رقما المبنى والشقة، لكن بلا تفاصيل أكثر أو رقم بريدي.

فتحت ديلجادو دُرج السيارة، ومنه أخرجت دليل عناوين المدينة. بحثت في الفهرس، ثم عقدت حاجبيها وأضاءت نور السيارة، وأكملت بحثها حتى وصلت إلى التفاصيل المطلوبة عبر الصفحات.

- لا يوجد سوى شارع واحد يُسمى بـ"ديكمان". لا بد وأنه هو.

وأشارت إلى الصفحة، فنظر هوبر إلى حيث تشير. سألته:

- ماذا تود أن تفعل. أنذهب إلى هناك؟

أومأ هوبر وقال:

- أجل، أعتقد أن علينا الذهاب. هل أنت واثقة أنك تريدين مرافقتي؟ ما زال الوقت مُبكرًا كي ننسحب وننكر معرفتنا بأمر الملف واختفائه.

- لم أكن لأقترح مجازفة كهذه ما لم أكن مقتنعة بها. لا أحب أن يعبث العملاء -سواء خاصين أو غير ذلك- بعملي. بالطبع لم أحارب في سبيل أن أصبح مُحققة جنائية كي تُسلب مني أول قضاياي بهذا الشكل.

- تعرفين ما يمكن أن يحدث لنا لو انكشف أمرنا، أليس كذلك؟

سألها هوبر، بالرغم من وثوقه في خطتها، لكنه كان المُحقق الأقدم ويشعر بضرورة توضيح الموقف بالكامل قبل الخوض فيه، سواء كانت ترغب شريكته في هذا التوضيح أم لا.
أردف:

- لو أخفقنا، فلن تكوني مُحققة جنائية مرة أخرى، وما زالت هناك عواقب أكثر...

رفعت ديلجادو كفها مُقاطعة وقالت:

- ثق بي، أفهم كل هذا. لكن علينا القيام بما يستلزم. لذا، دعني أسألك، هل أنت مستعد لمرافقتي في هذا؟

ضحك هوبر وقال:

- أنا معك، أيتها المُحققة.

- جيد. لنتوجه إلى شارع ديكمان.

- الحقيقة، أنا أريدك أن تعودي إلى الشقة؟

عقدت ديلجادو حاجبيها في حيرة وسألته:

- الشقة مسرح الجريمة؟

- أجل، أريدك أن تدخليها وتُلقي نظرة أخرى. تأكدي أن شيئًا لم يفُتنا. نحن الآن نعرف المزيد عن الضحية، وربما تستطيعين الحصول على أي شيء يساعدنا من هناك.

- حسنًا. نتقابل هنا لاحقًا؟

نظر هوبر إلى ساعته ثم أجفل قائلًا:

- لا، سأحتاج إلى العودة إلى منزلي. أنت كذلك عودي إلى بيتك ولنتحدث غدًا.

- مفهوم.

فتحت ديلجادو باب السيارة مُردفة:

- صيدٌ موفق أيها المُحقق.

ثم خرجت وأغلقت الباب، واختفت في ظلام المرآب الرطب.

انتظر هوبر دقائق ليمنحها فرصة الابتعاد، ثم انطلق بعدها إلى شارع ديكمان والشقة الغامضة.

الفصل السابع

منزل الأسرار

٥ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك.

أوقف هوبر السيارة على بعد بنايتين من شارع ديكمان، ثم أخذ كشاف الشرطة من خلف المقعد المجاور، وترجل متوجها إلى الشقة. لم يكن لديه أدنى فكرة عما قد يجده هناك، لكنه حاول إقناع نفسه بالتفاؤل. ثمة شيء مريب في هذه القضية -القضية التي لم يكن سيحقق فيها من الأساس- وشعر باندفاع الأدرينالين في صدره وهو يردد لنفسه أنه يفعل الصواب.

ألم يكن كذلك؟

شارع ديكمان في منطقة تتنوع فيها المباني ما بين السكن والمحال التجارية؛ متاجر محلية، محال الخمور، معارض الأثاث، صالونات الحلاقة. لم تكن أفضل منطقة في المدينة، لكن هوبر كان مُرتاحًا في التجوال تحت عواميد الإنارة بإضاءاتها الصفراء الدافئة. رغم الساعة المُتأخرة لكن هوبر لم يكن الوحيد في الشارع، فقد كان الناس يدخلون ويخرجون من المحال ويملأون الطرقات.

شقة جايكوب هويلر الغامضة في الطابق الأول العلوي، ذات بوابة تطل على الشارع. صعد هوبر عددًا من الدرجات ووجد نفسه يلج إلى مدخل واسع أرضيته مغطاة بالمشمع «اللينوليوم»، وعلى جانبيه أزواج من وحدات الإضاءة النحاسية أغلبها مُطفأ. بدا مشمع الأرضيات مُتهالكًا من تحت قدمي هوبر.

راح هوبر يقرأ الأرقام على أبواب الشقق حتى وصل إلى الشقة المُبتغاة في النهاية. رأى نافذة كبيرة من خلفها تبدت شبكة مدفأة حديدية.

وقف عند النافذة مُتفحصًا الرواق، لكنه كان وحده، وكان زجاج النافذة خفيفًا، لا يحجب ضوضاء الشارع ولا أصوات التلفاز الصادرة من الشقق المجاورة. أحد السكان رفع صوت

التلفاز فسمع هوبر صوت موسيقى مسلسل ماش يشق الهواء.

أخرج هوبر منديلًا قماشيًا من جيب سترته، ولفه على مقبض باب الشقة قبل أن يُديره. انزلقت كفه حول المقبض المعدني ولم يفلح في إدارته.

مُغلق، كما هو مُتوقع.

نظر من فوق كتفه مرة أخرى مخرجًا محفظة جلدية من جيب آخر، ثم فتحها وأخرج منها طاقمًا من فاتحات الأقفال. أمسك المحفظة بين أسنانه وجثم على الأرض يحاول فتح الباب.

بعد ثلاثين ثانية، دخل الشقة وأغلق الباب من خلفه محاذرًا أن يمس شيئًا بيده العارية. كان يتصرف بعيدًا عن أي مهنية، وكان آخر شيء يريده أن يترك بصمات في المكان.

أخرج الكشاف من حيث دسه بين حزامه وظهره، وشغله على درجة إضاءة منخفضة كي لا يكشف أمر وجوده أحد المارة بالخارج.

أخذ الأمر لحظات حتى استطاع هوبر أن يتبين ما يكشفه له ضوء الكشاف الشحيح. لم يكن يعرف ما عليه أن يتوقع وجوده، لكنه لم يكن بالتأكيد ما يراه الآن.

كانت الشقة خاوية، على الأقل الحجرة التي كان يقف فيها. المكان ضيق والباب الأمامي يُفضي مباشرة إلى حجرة المعيشة. على يسار هوبر مطبخ صغير مكون من صفين من الخزائن وبينهما ممر. حرك الكشاف قليلًا ليرى بابًا على اليسار، ونافذة أمامه، وحائطًا على اليمين. لم تكن حجرة المعيشة خاوية فقط، بل قاحلة. الأرضية الخشبية لا يكسوها أي شيء، الحوائط عارية، وورق الحائط ممزق يكشف عن طبقات أقدم تحته. في منتصف السقف زينة من الجص على شكل زهرة، أثر متبقٍ من الزمن الذي كانت فيه تلك المنطقة رائجة ومرغوبة. من منتصف الزهرة يتدلى مصباح موصول بسلك.

الستائر كانت مُسدلة على النافذة أمامه. وجد هوبر مفتاح النور فضغط عليه بيده المُغطاة بالمنديل. أزَّ المصباح مُحتجًا، لكنه أضاء في النهاية.

أغلق هوبر الكشاف ودسَّه بين حزامه وظهره. خطا عبر الحجرة أكثر، محاذرًا أن تصدر الأرضية الخشبية صريرًا يفضحه. جال في المكان ولم يجد شيئًا هامًا، يبدو أن أحدًا لم يعش هنا منذ سنوات.

أم أن هناك من عاش هنا قريبًا؟

توقف هوبر مكانه. شقة مهجورة ستكون مُتربة خاصة في مبنى بهذا القدم، لكن المكان كان نظيفًا وليس مُنظَّفًا. لم يكن قذرًا. التراب الذي قد تجمع هنا عبر الأعوام قد بُعثِر جراء حركة مُستخدم الشقة؛ جايكوب هويلر.

لكن لأي غرض كان يستخدم المكان؟ لم يكن ثمة شيء في حجرة المعيشة، ما لم يكن ما يبحث عنه تحت خشب الأرضية. تفحص هوبر الأخشاب لكنها كانت ثابتة، راسخة مكانها منذ ما يقرب من مائة عام. انتقل إلى المطبخ وراح يبحث في الخزائن بيده المغلفة بالمنديل وكلها كانت خاوية. ثمة براد في الركن من طراز منتصف الخمسينيات لكنه كان غير موصول بالكهرباء، وكان كذلك خاويًا.

لم يجد شيئًا يثير الاهتمام، فتوجه إلى الباب الوحيد أمامه، فتحه فوجد خلفه ممرًا على يساره حمام، ثم بابًا مغلقًا آخر ربما لحجرة نوم على اليمين. أخرج هوبر كشافه مرة أخرى ودخل الحمام الذي يحوي حوض استحمام بلا دُش، ومرحاضًا، وحوض غسيل تعلوه خزانة صغيرة ذات مرآة. أجفل هوبر حين انعكس ضوء كشافه عليها. ثم قرر أخيرًا أن يفحص حجرة النوم.

وجدتها!

كانت الحجرة عارية من أي أسِرَّة أو أثاث، لكنها لم تكن خاوية. هناك محفة مخيمات تشبه الفراش في المنتصف، فوقها غطاء وملاءة ووسادة. جوارها طاولة صغيرة من الطراز القابل للطي، فوقها كشاف مكتب يليق بمكان عمل لا حجرة نوم. جوار الكشاف رواية سميكة ذات غلاف مقوى: «البريق»5 لستيفين كينج. لم يكن هوبر قد قرأها بعد.

التفت هوبر ووجه مصباحه إلى أرجاء الغرفة، ثم رآها.

كانت متراصة جوار باب الحجرة؛ صناديق ملفات متماثلة، مصنوعة من ورق مقوى ثقيل، على كل منها ملصق أبيض مكتوب عليه أرقام بخط نضيد وبقلم سميك، تحت كل رقم عبارة مطبوعة؛ «وزارة الدفاع الأمريكية - ممنوع التداول".

تراجع هوبر مُحركًا الكشاف عبر الصف. كانوا خمسة عشر صندوقًا. وقف هوبر يفكر.

ثمة شيء غريب للغاية يحدث، استدار على عقبيه موجهًا الضوء إلى الفراش المُرتجل.

ماذا كان يفعل العميل الخاص هويلر هنا بحق الجحيم؟ من الواضح أنه كان يستخدم هذه الشقة كقاعدة عمليات، المهم هو: لماذا يمتلك ملفات فيدرالية كهذه وكيف حصل عليها؟ هل يعرف جالوب بشأن هذه الملفات؟ هو يعرف الشقة لكن الملفات ما زالت هنا.

هز هوبر رأسه، والتفت إلى الصناديق. عليه أن يعرف ما بداخلها. جلس القرفصاء ومد يده إلى الصندوق الأول حين سمع صوت صرير خافت. نفس الصوت الذي صدر عنه منذ دقائق وهو يخطو على خشب الأرضيات في حجرة المعيشة.

شخص آخر دخل الشقة.

تجمد هوبر، فلا بد وأن القادم هو أحد رجال جالوب. الشقة تحت المراقبة وربما كانت الملفات قد تُركت عمدًا كـ..

كطُعم!

لقد دخل هوبر لتوه إلى مصيدة.

وقف وأغلق الكشاف، والتصق بالحائط جوار باب حجرة النوم. لم يخطط إلى أن يلقي عميل خاص القبض عليه اليوم. شحذ سمعه وراح يصغي. كان محظوظًا فالصوت صوت شخص واحد. ربما.. ربما استطاع الفرار.

تحكَّم في تنفسه، وهدَّأ نفسه وحاول التركيز على الصوت خارج الحجرة. بعد دقيقة تزايد ارتفاع صوت الخطوات إذ يقترب من بالخارج من الممر أمام حجرة النوم. لحظات وبدأ مقبض الباب في الدوران ببطء.

انتهز هوبر الفرصة، وابتعد عن الحائط. أمسك بالمقبض وجذبه فاتحًا الباب. جُذِب الدخيل إلى الحجرة وكاد يصطدم بهوبر، وكان الأخير مستعدًا، فجذبه ثم دفعه جانبًا، متيحًا لنفسه مساحة للهرب عبر الباب. التقط هوبر لمحة من قناع تزلج أسود على وجه الدخيل الذي كان يرتدي سترة جلدية سوداء.

لم يكن عميلًا.

لحظة التردد التي انتابت هوبر كانت هي كل ما احتاجه الدخيل، اعتدل وتوازن ثم اندفع نحوه بقوة مُدهشة. سقط هوبر أرضًا، وهرب الدخيل.

- ابن الزانية!

وقف هوبر على قدميه ثم عدا نحو باب الشقة ليراه يُغلق أمامه، وصوت الخطوات الثقيلة تبتعد. أطلق هوبر سُبة أخرى واندفع عبر الباب ليطارده. لم يكن ثمة أثر للدخيل، لكن هوبر كان يسمع صوت خطواته على الدرجات.

انطلق هوبر وراءه نازلًا الدرجات درجتين درجتين دافعًا الحوائط لكسب العزم الكافي لزيادة سرعته. حين وصل إلى المدخل كانت البوابة تُغلق. لم يتوقف هوبر وعبر إلى الخارج ثم وقف في الشارع يفكر في الاتجاه الذي قد سلكه الدخيل.

لم يكن القرار صعبًا، فقد كان الرصيف مزدحمًا، ويبدو أن الفار قد شق طريقه من وسط مجموعة من الشباب يقفون خارج حانة. كانوا أربعة، يربطون قمصانهم حول خصورهم، ويلتمع العرق على جذوعهم العارية السمراء، ويرفعون علب البيرة عاليًا تحية للرجل الذي راح يعدو مختفيًا وسط الزحام.

اندفع هوبر مخترقًا أربعتهم، فهللوا له مُصفقين. أمامه رأى الدخيل يعبر الشارع متجهًا نحو المنعطف التالي. يجب على هوبر أن يقبض عليه، لكنه قريبًا سيضل وسط متاهة الشوارع الغريبة.

ظل الدخيل يعدو بحذاءيه الرياضيين الخفيفين، بينما يتبعه هوبر على الجهة الأخرى، والكشاف ينغز ظهره. عندما وصل إلى المنعطف شعر بعضلاته تخذله وبدأ يتهاوى إذ ينسحب الأدرينالين من جسده. رفع ركبته على الرصيف وغشيته ومضات الألم ولم يستطع مواصلة المطاردة.

التقط هوبر أنفاسه ثم انعطف عند الزاوية، كان الرجل لا يزال يجري وهو يطوِّح ذراعيه كعداء أوليمبي ويشق الطريق. عدد المارة أقل وكانوا قد توقفوا ليشاهدوا ما يحدث.

اندفع هوبر خلفه لكن المسافة بينهما راحت تتسع مع كل خطوة، وكان عليه التوقف في منتصف الشارع والانحناء كي يستطيع التنفس. انطلق صوت نفير حاد من ورائه،

وانحرفت سيارة كي لا تصدمه. أشار السائق إليه وأطلق النفير مُجددًا، فسحب هوبر نفسه إلى الرصيف.

عبرت السيارة، وحين ابتعدت أضواؤها حدق هوبر إلى الشارع. كان الدخيل قد اختفى، ولا معنى للإبلاغ عنه، فلم يكن يعرف له وصفًا إلا ملابسه وقناع التزلج على وجهه، بالإضافة إلى أن لا حق لهوبر في التواجد في الشقة من الأساس ولم يجد في نفسه مُتسعًا لشرح أسباب تسلله لجالوب.

لكنه كان على حق، الشقة مهمة.

تتبع هوبر خطواته عائدًا ببطء إلى شارع ديكمان، شاعرًا بألم شديد في جنبه.

من كان هذا الدخيل؟ لم يكن عميلًا، لكن هوبر لم يكن متأكدًا من ذلك بالطبع، لكن شيئًا ما كان مريبًا بشأن ملابسه وتصرفه وطريقه هربه.

أكان هو قاتل هويلر؟ هل تعارك هوبر مع قاتل بروكلِن المُتسلسل شخصيًّا؟ ولم عاد إلى الشقة؟ هل رآه هوبر يتسلل أم هي مجرد مصادفة أن يكون الاثنان في الشقة في نفس الوقت؟ إن لم يكن الدخيل هناك لأجل هوبر، أكان هناك لغرض آخر؟

لسرقة المُستندات؟

ما أن لاح المبنى أمام هوبر، أسرع الخُطى. الشباب الواقفون أمام الحانة قد انصرفوا وصار الشارع أكثر هدوءًا.

دخل هوبر المبنى وصعد الدرجات إلى الشقة التي ما زال بابها مفتوحًا. أنصت هوبر للحظات كي يتأكد من أحدًا ليس بالداخل، ولم يكن ثمة صوت إلا صوت تلفاز الجيران والضحكات تتردد عبر الأروقة. الشيء الوحيد الذي استنتجه هو أن حلقة مسلسل ماش قد انتهت.

كم من الوقت غِبت؟

دلف إلى الشقة، وكان المصباح ما زال مُضاءً، وثمة ضوء آتٍ من حجرة النوم. دخل هوبر الحجرة فوجد مصباح المكتب مُضاء.

التفت حوله..

صاح:

- اللعنة!

كانت الملفات قد اختفت، الصناديق الخمسة عشر قد اختفت.

تلفَّت هوبر حوله غير مُصدق ما قد رآه. دار في أرجاء الحجرة كأنه ببحثه سيجد الصناديق في مكان ما، ثم توجه إلى الحمام الصغير وتأكد أن لا أحد هناك.

عاد إلى حجرة النوم وتهاوى على الفراش المُرتجل ذي الحشية الرفيعة، فانتحب إطار الفراش المعدني مُحتجًا. حدق هوبر إلى الحائط الذي كانت أمامه الصناديق. كم من الوقت غاب؟ نظر إلى ساعته ولدهشته كانت العاشرة مساءً. انقضى أكثر من نصف ساعة أثناء مطاردته للدخيل ثم عودته إلى الشقة. وقت كافٍ لدخول أحد -أو أكثر من شخص- ليأخذ الملفات.

مدَّ ساقه ليريحها على الأرض، وبدأ في تدليك ركبته المُصابة وهو يعيد الأحداث في عقله. كان هذا حين رآه، فثنى ركبته مرة أخرى ومد يده تحت الحشية وأخرج دفترًا ظهر بعدما أزاح وزن هوبر الغطاء عنه.

الدفتر ذو سلك حلزوني، فتحه هوبر وقلَّب صفحاته. كان أغلبها ممزقًا، وما تبقى منها كان خاويًا. ألقاه هوبر على الطاولة مُتنهدًا، مُقاومًا رغبته في الصراخ بأعلى صوته.

نظر مجددًا إلى الدفتر، ولم تكن صفحته الأولى خالية تمامًا. الزاوية التي أضاء بها مصباح المكتب الصفحة كشفت سرًّا. حرك هوبر المصباح نحوه فأغشاه ضوؤه للحظات، ثم وضع الدفتر تحته، وأماله في كل اتجاه كي يحصل على أفضل زوايا الرؤية.

النتيجة كانت واضحة، أثر كتابة كتبها أحدهم -ربما هويلر- على الصفحة التالية فانطبعت على هذه الصفحة. ضيق هوبر عينيه محاولًا تفسير الكلمات التي يراها. كانت الأحرف صغيرة، لكن الطريقة المكتوبة بها كشفت عن كونها قائمة.

كلمة واحدة كانت واضحة، مكتوبة على الجهة الأخرى من الصفحة بخط سميك كبير، مُحاطة بدوائر مُتعددة. قلَّب هوبر الدفتر بين كفيه مرة أخرى، عارضًا كل صفحة أمام الضوء ليرى إن كان سيكشف شيئًا آخر. لكن كان هذا كل شيء.

دس هوبر الدفتر في جيبه، وترددت الكلمة الواحدة التي تبينها في عقله..

الأفاعي..

THE SHINING -

رواية لستيفين كينج تحكي عن طفل لديه موهبة التخاطر العقلي.

الفصل الثامن

القائمة

٥ يوليو ١٩٧٧

بروكلِن، نيويورك.

وقفت ديلجادو واضعة كفيها عند خصرها وراحت تنظر إلى أركان شقة جايكوب هويلر الأخرى، الشقة التي لقي فيها العميل الخاص حتفه. حين وصلت كانت قد وجدت الشقة مغلقة بالشريط الخاص بالشرطة، وحارسًا في زيه المُوحد يقرأ صفحة الرياضة في الجريدة، وجواره مذياع تصدح منه أغنية ظنت ديلجادو أنها أغنية لستيفي وُندر. وبَّخته ديلجادو على مخالفته للقانون الذي لم تكن تعرف نصه من الأساس لو سألها عنه، لكنها كانت مُتأكدة أنه لن يفعل. ثم أمرت الحارس البائس أن يدعها تدخل ويذهب ليجلب لها قهوة. غادر مُتنهدًا واضعًا الجريدة في يد ديلجادو وكأنها لن تفعل شيئًا سوى مُطالعة نتائج مباريات كرة القاعدة «بيزبول». راقبته إذ يبتعد، قبل أن تركع وتغلق المذياع.

- آسفة يا ستيفي.

حملت المذياع ودخلت الشقة، ثم وضعته هو والجريدة على طاولة المطبخ قبل أن تبدأ مهمتها.

ظلت ديلجادو تبحث لوقت طويل كأنه ساعات، ولم تجد شيئًا. كانت محتويات غرفة النوم قد أزيلت وكذا الفراش نفسه، ونُقِل كل شيء إلى المعمل للفحص مع قطعة مربعة غير متساوية من البساط.

كل القمامة التي كانت في الشقة جُمِعت وغالبًا نُقلت إلى المعمل أيضًا في انتظار فحصها. فكرت ديلجادو في أن حظهم كان أوفر من حظها.

في الحجرة خزانة، ومقصورة ذات أدراج، فتشتهما ديلجادو بعناية ولم تجد شيئًا غير مُعتاد، أو مُخبأ، ولا شيء كذلك في جيوب السترات أو السراويل أو داخل الجوارب أو تحت الملابس الداخلية.

أُخلِيَت غرفة الجلوس كذلك إلا من أريكة بالية ومنضدة قهوة مُتسخة. قلبت ديلجادو وسائد الأريكة وتحسستها ولم تجد شيئًا.

أتاها الحظ في المطبخ، إذ قلب رجال الشرطة أو عملاء جالوب المكان رأسًا على عقب، فازدحمت الأرضيات بالأوعية وأدوات الطبخ، وتُركَت الخزائن مفتوحة خاوية. نظرت ديلجادو حولها ولم تتبين شيئًا، لكن قبل انصرافها استرعى انتباهها طرف لوح خشبي قبالة الحائط جوار البرَّاد، مخفي خلف كومة من الأوعية.

أتراهم أغفلوه؟

أزاحت ديلجادو الأوعية واحدًا تلو الآخر حتى استطاعت أن تُحرر اللوح المُرصع بدبابيس الضغط التي تثبت اثنتي عشرة قطعة ورقية إليه. أغلب تلك الوريقات مدون عليها وصفات طهي، إلا أن وريقة أكبر حجمًا لفتت نظرها.

جذبتها ديلجادو، وكانت قائمة بخمسة عناوين ما بين بروكلِن وكوينز ومانهاتِن. قلبتها بين يديها لكنها لم تجد شيئًا سوى هذا.

وضعت القائمة جانبًا وبدأت في خلع باقي الوريقات عن اللوح آملة في أن تجد معلومات أخرى.

- ماذا يحدث هنا؟!

التفتت ديلجادو لتجد رجلًا ضخمًا يقف عند مدخل المطبخ، كان أصلع تُحيط بصلعته البراقة نصف حلقة من الشعر البني الأجعد، وكان في منتصف العُمر، يرتدي نظارة طبية مُربعة وسروالًا رياضيًّا وفانلة داخلية بيضاء.

رفعت ديلجادو شارة الشرطة، فمال الرجل كي يرى أفضل، مُبعدًا نظارته عن وجهه قليلًا، ثم أومأ وانتصب واقفًا.

- معذرة أيتها الشرطية، لم أكن أعرف أنكم ستعودون. أعني، لقد كان هناك رجل يقف بالخارج وقد رحل، لذا ظننت أنكم قد انصرفتم جميعًا بعدما أنهيتم عملكم.

تنحنح الرجل، وسمعت صوتًا من خلف ظهره، ثم تنحنح مرة أخرى وأبرز مضرب بيزبول كان يخبئه خلفه، وضحك في حرج.

- لم أكن أعرف أنك شرطية، هل تلومينني على ذلك؟ هه؟ هل تلومينني؟ يتوجب على المرء أخذ حذره في مدينة كهذه، أليس كذلك؟ الحذر يا سيدتي.

ثم أطرق إلى الأرض خجلًا. ضيقت ديلجادو عينيها وقد تعرفت على الرجل بعد أن رأته في زيارتها السابقة وقالت:

- أنا المُحققة ديلجادو، أنت مشرف المبنى، أليس كذلك؟

مد كفه نحوها وقال:

- أجل، أنا المشرف. ريتشاردسون، توني ريتشاردسون.

نظرت ديلجادو إلى كف الرجل، وكانت مبللة بالعرق. لاحظ نظرتها، فأنزل يده ومسح كفه في بنطاله وهو يضحك متوترًا.

- معذرة، لا بد أنه مظهر فوضوي. هذا الحر، والتكييف المركزي مُعطل في البناية بأكملها، ولم تتسنى لي فرصة غسل ملابسي بعد، لذا لم أجد شيئًا أرتديه سوى هذا.

وأطرق إلى الأرض مرة أخرى، فضحكت ديلجادو.

- أنا أيضًا كنت أخرق قواعد الزي الرسمي في العمل خلال الأسبوعين الماضيين، لكن لا يجرؤ أحد على انتقاء ملابسي بدلًا عني في مثل هذا الطقس.

ابتسم توني وقد ارتاح أخيرًا، واستنتجت ديلجادو أن لقاءه مع شرطة نيويورك كان أقل حميمية من لقائهما. قال لها:

- أخبرك الحق؟ الأمر مثير.

قطبت ديلجادو جبينها مُتسائلة:

- مثير؟

- أجل، أتعرفين.. أن تتحول شقة تحت إشرافي إلى مسرح جريمة.. قتل، أليس كذلك؟ فِعل من أفعال ابن سام. أقول لك أن لا شيء يحدث في الجوار عادةً، لذا فأمر كهذا أعتبره مثيرًا.

زادت تقطيبة جبين ديلجادو. نظر إليها ريتشاردسون بعينين تتسعان ببطء، ثم تنحنح مرة أخرى مُردفًا:

- أعني أنني فقط أشعر بالحماسة لمساعدتكم في.. في الحفاظ على أمن المدينة، وأداء مهامي المدنية.. وهكذا.

غمغمت ديلجادو والتفتت إلى اللوح الخشبي وبدأت في استكمال ما بدأته. قال المشرف مؤرجحًا المضرب:

- آسف إن كنت ضايقتك. لكن تفهمين أنني المشرف هنا، هذا كل شيء.

راح يجول بنظره في الشقة كأنما يريد الانتهاء من كل هذا وأضاف:

- كل هذا مسئوليتي. عليَّ أن أعتني بها وأن أراقب من يدخل أو يخرج.. مع كل هؤلاء الشرطيين الذين يدعسون المكان. عليَّ أن أعنى به. لذا، هل تمانعين لو راقبت من يدخل أو يخرج؟ أتفهمينني؟

- أفهمك، فقط اسدِ لي معروفًا وتوقف عن أرجحة المضرب.

- أوه، آسف يا سيدتي.

وضع ريتشاردسون المضرب برفق على طاولة المطبخ وأمسك بالجريدة مُضيفًا:

- أتعرفين ما يجب عليَّ فعله؟

قالها مُحركًا الجريدة كالمروحة بيده، مُشغلًا المذياع الصغير.

"كانت معكم ثيلما هوستون وأغنية "لا تهجرني هكذا"، الأغنية التي حققت نجاحًا ساحقًا في إبريل الماضي وأنعشت الراقصين في صالات الديسكو هذا الصيف..."

مال ريتشاردسون على المذياع مُغيرًا المحطة، قبل أن تغلق ديلجادو المذياع تمامًا.

- بعد إذنك!

رفع المشرف يديه عاليًا وقال:

- آسف، كنت أرى إن كان في وسعي التقاط قناة رياضية.

ونظر إلى الجريدة ثم أردف:

- كنت أظنك الآخرين.. يجولون حول المكان مرة أخرى.

- تقصد رجال الشرطة؟

ضرب المشرف الجريدة بكفه الأخرى وصاح:

- اللعنة يا لويز! عليك أن تخرج خارج المدينة تمامًا. ثلاثة إلى واحد؟ إلى متى سيخسر فريق ميتز أمام فيلليز؟ أعني، بالله عليك! هذا يقتلني!

ثم نقل عينيه إلى ديلجادو وقال:

- اعذريني يا سيدتي، لا أقصد إساءة.

رفعت المُحققة حاجبًا وقالت:

- أتعني أن من كان هنا من رجال الشرطة أم أشخاص آخرون؟

- أوه، كلا.. ليسوا رجال الشرطة. أقصد الآخرين المشبوهين. لن تُحبي منظرهم.

توقفت ديلجادو عما تفعل، لا بد وأنه يتحدث عن رجال جالوب، رغم أن استخدام كلمة «مشبوهين» غير موفق لوصفهم. التفتت إلى المشرف وسألته:

- رجال يرتدون بذلات؟

دفع ريتشاردسون نظارته إلى أعلى قصبة أنفه بإبهامه وسأل:

- بذلات؟

- الرجال الذين تحدثت عنهم. المشبوهون.

- آه، أجل. كلا، أعني أنهم لم يكونوا يرتدون بذلات. هؤلاء الرجال كانوا.. لا أعرف.. مجرد رجال.

- أخبرني المزيد عنهم.

- آه، حسنًا.. لنرى..

دفع نظارته إلى أعلى مرة أخرى ووضع الجريدة على المنضدة وأردف:

- كانوا ثلاثة، لم أرهم يدخلون، لكنني سمعت ضوضاءهم. كنت بالأسفل.. شقة المشرف تحت هذه الشقة مباشرة يا سيدتي. المهم.. أوه، عند الظهيرة، أم تراه كان في المساء؟ لم

يكن الوقت مُتأخرًا على أية حال حين سمع ضوضاء مثل «ثَد، ثَد، ثَد» وكأنهم يحاولون دفع الباب. كانوا ينادون على من يُدعى جايكوب لكنه لم يُجب.

هزت ديلجادو رأسها وسألته:

- لحظة، متى كان هذا؟

- أوه، منذ يومين؟ كلا، ثلاثة أيام. الأسبوع الماضي قبل أن.. أنت تعرفين. على أية حال كانوا ينادونه و"ثَد، ثَد، ثَد" على الباب. فصعدت ألقي نظرة وأطلب منهم الرحيل. الجيران كما تعلمين لا يحبون الإزعاج، ومن يتلقى التقريع إن حدث هذا؟ أنا!

خلع المشرف نظارته وفرك قصبة أنفه ثم ارتداها مرة أخرى مُستكملًا حديثه:

- على أية حال، صعدت كي أطلب منهم أن يكفوا عن ركل الباب وليركلوا درجات السلم نازلين بدلًا عنه.. أنت تعرفين.

توقف عن الحديث منتظرًا رد فعل ديلجادو أو إشارة أنها تتابعه. كل ما فعلته هو أنها رفعت حاجبها، ففهم المشرف هذا على أنه أمر له أن يُكمل.

- على أية حال، توقفوا عن الطرق على الباب ونظروا إليّ، وكنت مستعدًا للعودة لجلب مضربي في حالة.. أنت تعرفين. لكن ما أذهلني أن الرجل الذي كان يطرق ابتسم لي واعتذر. كانوا ألطف مجموعة من الحثالة رأيتها في حياتي.

- حثالة؟

- أوه، حسنًا، ربما لم يكونوا حثالة، لكنهم مجرد شباب.. لا أعني شبابًا بالضبط ربما أكبر عمرًا منك وأصغر مني. كانوا يرتدون هذه النوعية من السترات.. لو ارتديتِ واحدة منها لسُلِقتِ من الحر بداخلها.

- أي نوع من السترات؟

- تعرفين.. سترات خضراء، أقرب للون الخاكي؟ أجل، هو اللون الخاكي مثل لون زي الجيش. لم يكونوا يرتدون ملابس موحدة، إلا إذا كنت تعتبرين السراويل الجينز ملابس موحدة. أنا لا أعرف في هذه الأمور.

ضيقت ديلجادو عينيها وحاولت جمع أجزاء قصة المشرف. سألته:

- وماذا حدث بعدها؟

- آه، حسنًا.. تعرفين.. قالوا إنهم يبحثون عن جايكوب، فقلت لهم أنه ليس بالداخل. وكان هذا حين لاحظتها.

- لاحظتها؟

- أجل، الرائحة. أعني.. ساكنة الشقة المجاورة له، رقم أربعة عشر، قالت في اليوم السابق أنها تشم شيئًا، لكنها دائمًا ما تشكو. لكنني شممت الرائحة وقتها، أتعرفين؟ في البداية ظننتها رائحة الرجال الثلاثة، لكن حين غادروا لم تزُل الرائحة. لذا طرقت على الباب.. أعني، لا أعرف لم طرقت والرجل ليس بالداخل، إلا إذا تسلق المبنى من الخارج.

نسيت الأمر، ثم بعد يومين ساكنة الشقة المجاورة أتتني وكررت شكواها من الرائحة، وأقسمت ألا تتركني إلا إذا صعدت وتبينت الأمر. أخذت مفتاحي «الماستر» وصعدت لأرى.. وأنت تعرفين الباقي.

أومأت ديلجادو، فقد قرأت شهادة ريتشاردسون والتي بدأت منذ شكوى الجارة من الرائحة فقط. كل ما قاله عما حدث قبلها كان جديدًا عليها.

- أنت أغفلت ذكر الكثير في شهادتك يا توني.

رفع المشرف كفيه دفاعًا وقال:

- مهلك، اسمعي، ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ رجال الشرطة لم يكونوا مهتمين لسماع التفاصيل، ولم يسألني أحدهم عن أي شيء، فقط سألوني كيف وجدت الجثة. انظري.

التقط مضرب البيزبول، فتوترت، لكنه مده إليها وكأنه يريها إياه وأردف:

- أحيانًا على المرء أن يعتني بنفسه. اسمعي، رحل رجال الشرطة وتركوا واحدًا منهم عند الباب، وكان هذا كل شيء. سألتهم ماذا يحدث، وهل أجابوني؟ بالطبع لا. ماذا كان عليَّ أن أفعل؟ أنا المشرف ولدي مهام ومسئوليات، والآن صارت هذه الشقة مسئوليتي.

أومأت ديلجادو، فالمشرف كان محقًّا. رجال الشرطة يروحون ويجيئون بسرعة، مسئولية المكان أحيلت إلى الشرطة الجنائية، وهم لم يقولوا لريتشاردسون شيئًا لأنه لم يكن ثمة

شيء يُقال. الأمر لم يكن من اختصاصهم. ومع استبعادها وهوبر من القضية، وعدم إرسال جالوب لرجاله بعد لتولي المسئولية، فالمشرف في ظلام تام بلا أي معلومات.

قالت ديلجادو:

- اسمع، أنت ساعدتني كثيرًا اليوم.. حقًّا.

ابتسم المشرف ودفع نظارته إلى أعلى مرة أخرى وقال:

- على الرحب. أتمنى لو أن هناك المزيد من أمثالك.. أتعرفين ما أعني؟

كانت ديلجادو للأسف تعرف بالضبط ما كان يعنيه. بدأت في جمع الوريقات من على اللوح الخشبي في كفها، ومن بين المجموعة انتقت واحدة ونظرت إليها. وقف ريتشاردسون جوارها وعدَّل من وضع نظارته قبل أن يصيح:

- تذاكر حفل فرانك سيناترا!

قطبت ديلجادو جبينها وتحركت جانبًا مانحة نفسها المزيد من المساحة الشخصية. أشار المشرف إلى الوريقة في يدها وقال:

- مسرح فوريست هيل، السادس عشر من يوليو.

ثم زم شفتيه وأطلق صفيرًا مُنغمًا لأغنية ما، ثم أردف:

- لو أن الرجل حيًّا لكان ذهب إلى الحفل. ماذا قد يفعل المرء للحصول على تذاكر كهذه؟ أقولها لك من الآن، سيكون حفلًا مذهلًا.

نظر إلى ديلجادو وعدَّل وضع النظارة. حدقت إلى عيني المشرف المُكبرتين من خلف نظارته السميكة المربعة. أشار المشرف إلى التذكرة مرة أخرى وقال:

- أعني الرجل قد مات، ولا يرتاد الموتى الحفلات، أليس كذلك؟ أعني السيد هويلر.. أسمعتي عن ميت حضر حفلًا من قبل؟

رغمًا عنها ابتسمت وقالت:

- لا، لم أسمع.

وحاولت كتم ضحكتها. أومأ ريتشاردسون وقال:

- هذا صحيح.

عضَّت ديلجادو على شفتها السفلى كي تمنع نفسها من الضحك وقالت:

- أعتقد أنني سأترك التذكرة هنا على المنضدة. لو اختفت فلن أحمِّل أحدًا مسئولية اختفائها.

ضيق المشرف عينيه محاولًا فهم ما قالته ديلجادو، وحين فهم ابتسم، فوضعت التذكرة على المنضدة تحت نظر ريتشاردسون المعلق بها.

قلبت في بقية الأوراق التي أخذتها من على اللوح. أخرجت أكبرها؛ قائمة العناوين، ووضعتها على رأس كومة الوريقات. قال المشرف:

- انتظري، هذا تقاطع شارعي ريد وآندرو.

أمسك المشرف بالقائمة وعدّل من وضع نظارته مشيرًا إلى عنوان وقال:

- هذا، تقاطع شارعي ريد وآندرو، رقم 65 من شارع ريد. نادي ملاكمة ديسكون.

أخذت ديلجادو القائمة منه متسائلة:

- نادي ملاكمة؟

- أجل، ليس فقط نادي ملاكمة.. أعني، هو بالفعل نادٍ للملاكمة لكن لديهم مكان هناك يمكنك تأجيره، أنت تعلمين، من أجل الاجتماعات وما إلى ذلك. رفاق بيل ويلسون.

نظرت ديلجادو إلى المشرف مُفكرة ثم قالت:

- بيل ويسلون مؤسس جماعة "مدمنو الكحول المجهولون"؟

رفع المشرف يديه هاتفًا:

- لست منهم، ابن عمي كان يرتاد هذا المكان، وكنت أوصله إلى هناك منذ ستة أشهر.

- توصله إلى نادي ديسكون؟

- أجل يا سيدتي. كانت اجتماعات مفيدة له.

مدت ديلجادو يدها بالقائمة نحوه مرة أخرى وقالت:

- هل تُميِّز أيًّا من تلك العناوين؟

قرَّب المشرف القائمة من أنفه، دافعًا نظارته إلى أعلى بيده الأخرى، وراح يُبعد ويُقرب الورقة كي يرى أفضل، ثم قال:

- كلا، لا أعرف أيًّا منها. ألا تظنين أنهم قد يكونون مقرات أخرى لاجتماعات مدمنو الكحول المجهولون؟ أتعرفين، ليس عليكِ الالتزام بحضور اجتماع واحد فقط لأن المفترض أن الحضور مخفيو الهوية، لكن ما أن تبدئي في المواظبة في مكان واحد حتى يعرفك الجميع. لذا يُفضل البعض التنقل بين مقار الاجتماعات المختلفة.

- وكم مرة يحضر المرء تلك الاجتماعات في المعتاد؟

- كنت أوصل ابن عمي أسبوعيًّا. نادي ديسكون على بعد محطتي قطار أنفاق من هنا. وكان يحب الحضور إلى اجتماع آخر في الجزيرة الكُبرى؛ مانهاتِن. أنت تعرفين.

- هل قابل جايكوب هويلر هناك من قبل؟

مرر المشرف كفه على صلعته وقال:

- مُطلقًا، ولا مرة. ولم يعرف أن هويلر يذهب إلى هذا المكان. اللعنة، أنا لم أتحدث مع الرجل إلا لمامًا. هو يسكن هنا منذ عدة أشهر، وإن كان يذهب إلى نادي ديسكون فأنا لم أره هناك.

- وهل يقيمون اجتماعات هناك مرة واحدة فقط في الأسبوع؟

- مدمنو الكحول المجهولون؟ بالتأكيد. أعتقد هذا. نحن نذهب أيام الثلاثاء، وأعتقد أنهم يعقدون اجتماعات أيام الجمعة كذلك، وربما كان جايكوب يحضرها. أو أنه يذهب إلى النادي للتمرين على الملاكمة.

نظر المشرف إلى ديلجادو بعينين مُتسعتين وكأنما كشف عن أمر عظيم، فابتسمت له ديلجادو.

- لن نعرف أبدًا. أشكرك على مساعدتك، واستمتع بالحفل.

حياها المشرف تحية عسكرية وهو يقول:

- شكرًا لك، وأنا مستعد للمساعدة في أي وقت.

خرجت ديلجادو من الشقة، وكان الحارس لم يعد بعد، وتساءلت إن كان سيعود. قال ريتشاردسون قادمًا من خلفها:

- سأغلق الشقة.

توجهت ديلجادو إلى الرواق فناداها:

- أتعرفين متى سينتهي كل هذا؟ عليَّ تنظيف الشقة وعرضها للإيجار، أتعرفين ما أتحدث عنه؟

- سأرى إن كان في وسعي إيصالك بشخص يفيدك. لا أعتقد أن الأمر سيطول.

ورحلت ديلجادو قبل أن يقول شيئًا آخر.

الفصل التاسع

المُرشد

٦ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

كانت ديلجادو على مكتبها ترشف قهوتها حين وصل هوبر القسم رقم 65 في الصباح التالي. ما أن دخل هوبر مُلقيًا التحية حتى قامت ديلجادو مشيرة إليه أن يتبعها إلى الممر المُفضي إلى حجرة الاستراحة، إلا أن النقيب لافورنيا قاطع خطتهما لتبادل المعلومات، حين استدعى هوبر إلى مكتبه. تنهد الأخير وقال:

- نتقابل بعدها.

أومأت ديلجادو وعادت إلى مكتبها، بينما اتجه هوبر إلى مكتب النقيب الذي كان واقفًا مُستندًا إلى الباب يراقب قدوم المُحقق. أشار لهوبر أن يجلس ثم أغلق الباب.

قال هوبر:

- الجو حار اليوم.

تنفس لافورنيا بصعوبة وهو يدور حول مكتبه ليجلس وقال:

- يقولون أن ارتفاع درجة الحرارة مستمر، وسيصل لمائة درجة بحلول نهاية الأسبوع.

- هل من أخبار عن تصليح مُكيف الهواء؟

- فرصة إرسال أحد مُحققي القسم إلى القمر أكبر من فرصة تصليح المُكيف.

قرَّب النقيب كرسيه من المكتب حتى عانق بطنه حافته، وعرف هوبر أن الوقت كان حان لقطع الدردشة والحديث عن العمل.

- لدي قضية جديدة لك.

تنهد هوبر وقال:

- حتى القتلة لا يأخذون إجازة في هذا الحر.

هز لافورنيا رأسه وداعب حافة شاربه السفلية بإصبعه ناظرًا إلى المحقق وقال:

- ليست قضية قتل. لدينا رجل في الحجز يقول أنه يرغب في تبادل المعلومات مقابل الحماية.

- ممَ نحميه؟

- هذا ما أريد منك معرفته أيها المُحقق.

هز هوبر رأسه وقال:

- لست واثقًا يا سيدي.. أنا أعمل في الجنايات فقط ولا...

- أنا أعرف في أي قسم تعمل، أيها المحقق. وحين أقول أنني أوليك تلك القضية، فأنا أعني ما أقول. مفهوم؟ ربما لم تلاحظ، لكننا نعاني من نقص في العاملين والأموال، لذا فسوف أطلب منك في بعض الأوقات أن تعمل في غير تخصصك، وستشكرني على منحي لك فرصة لتوسيع آفاقك.

تنهد هوبر ومرر كفه خلال شعره، ثم ترك يده تهوي إلى فخذه وقال:

- أجل يا سيدي. معذرة.

ثم مسح وجهه وأضاف:

- سأرى ما يمكنني التوصل إليه معه.

ابتسم لافورنيا ابتسامة عريضة، لكنها لم تُعجب هوبر.

- لهذا السبب تروق لي يا هوبر.

قطب هوبر جبينه متسائلًا:

- سيدي؟

- كونك تفعل ما تؤمر به، ولا تناقش.

شعر هوبر بعضلات فكيه تتصلب.

أجل يا سيدي النقيب، لكن...

- هل نسقت الأمر مع ديلجادو يا سيدي؟

- لا تقلق بشأن تكليفها أيها المحقق. والآن اذهب إلى عملك، هم ينتظرونك بالأسفل.

قام هوبر مُحييًا النقيب، لكن الأخير لم يلحظ إذ دس وجهه في الأوراق أمامه.

***

سألته ديلجادو حين عاد إلى مكتبه:

- ماذا حدث؟

- ألم تسمعي؟ لقد اتضح أنني لم أعد أعمل في الجنايات.

كادت ديلجادو أن تختنق بقهوتها. هتفت:

- ماذا؟

رفع هوبر كفه وقال:

- اهدأي. الأمر مؤقت. سأساعد في مباحث المخدرات. لديهم شخص يريد مبادلة معلومات مقابل الحماية.

حركت ديلجادو لسانها بين أسنانها وقالت:

- أتظن أن النقيب يريد تفرقتنا؟

ربما كانت مُحقة، قال هوبر ناظرًا تجاه مكتب النقيب:

- ربما. أتظنين أنه يعرف أننا ما زلنا نبحث خلف القضية؟

نظرت ديلجادو إلى حيث ينظر وأجابت:

- لا أظنه يعرف، لا سبيل لذلك. اسمع، نحتاج إلى أن نتحدث.

أومأ هوبر وقام واقفًا وقال:

- أجل، تعالي. أحتاج إلى كوب من القهوة قبل أن أنزل.

***

صارت الاستراحة خالية بعد رحيل الشاويش مَكجويجَن. انتظرا حتى عاد الشاويش إلى مكتبه، ثم أغلق هوبر الباب خلفهما واتجه إلى آلة تحضير القهوة. مدت ديلجادو يدها بكوبها فملأه لها هوبر من الوعاء. سألته:

- ماذا وجدتَ في شارع ديكمان؟

قال لها وهو يملأ كوبه:

- شيء مثير للغاية.

رشف رشفة، وأجفل من شدة حرارة القهوة ومرارتها، ثم حكى لشريكته مغامرة الليلة الماضية؛ الشقة الخاوية، الصناديق المملوكة للحكومة، فشله في اللحاق بالدخيل، والاختفاء الغامض للمستندات.

أنصتت إليه ديلجادو، وامتصت ما قيل من معلومات وعيناها تتنقلان بين هوبر وباب حجرة الاستراحة.

- كنت أعرف أن شيئًا غريبًا يحدث.

أومأ هوبر وهو يرشف القهوة ثم قال:

- لديّ شيء أغرب هنا.

وأخرج صفحة من الدفتر الذي وجده في شقة شارع ديكمان من جيب قميصه، ثم أردف:

- حاولي أن تفهمي منها شيئًا بينما أنا بالأسفل.

أخذت ديلجادو الورقة دستها في صدر قميصها البولو. سألها هوبر:

- هل وجدتِ شيئًا في مسرح الجريمة؟

حكت له عن الرجال الثلاثة الذين أتوا بحثًا عن هويلر، ووصفت له قائمة العناوين التي وجدتها. ظل هوبر مُقطبًا حاجبيه وهو يستمع، ثم سألها:

- كانوا يرتدون سُترات عسكرية؟

- هذا ما قاله المُشرف، أعني أن في وسع أي شخص أن يحصل على سترات مماثلة من المتاجر التي تبيع فوائض الجيش. لست واثقة من أن هذا الوصف مفيد. لماذا تسأل؟

- لدي سُترة مثلها، احتفظت بها منذ كنت أخدم في الجيش.

رفعت ديلجادو حاجبها وقالت:

- أتقصد أنهم ربما يكونون من المحاربين القُدامى؟

- قال لك المُشرف أن نادي ديسكون كان يُستخدم في إقامة اجتماعات مدمنو الكحول المجهولون؟

- أجل.

- إذًا فربما كان يستأجره آخرون.. مجموعة دعم المحاربين القدامى على سبيل المثال. العديد ممن عادوا من الحرب يحتاجون إلى دعم نفسي كما تعرفين.

- لا شك لدي في أن ما تقول قد يكون صحيحًا. سوف أبحث خلف نادي ديسكون هذا وأحصل على قائمة بالمجموعات التي تستأجر المكان. عليك أن تنزل إلى عملك.

نظر هوبر إلى ساعته. فُتح باب حجرة الاستراحة وظهر هاريس، توقف حين رآهما وابتسم.

- عصفورا الحب في اجتماع سري، أليس كذلك؟

تنهد هوبر وغادر، تاركًا هاريس تحت وطأة نظرات شريكته القاتلة.

***

كان الشاب قد أودِع حجرة التحقيقات حين وصل هوبر إلى الطابق السفلي. دخل ملقيًا تحية على الضابط الواقف في ركن الحجرة عاقد الذراعين.

ابتعد الضابط عن الحائط وقال لهوبر:

- حظ سعيد معه.

ثم مس طرف قبعته بإصبعه مُحييًا، ورحل مُعلقًا إبهاميه في جانبي حزام سلاحه.

أغلق هوبر الباب وشعور مقيت ينمو في أحشائه. هذا اللقاء سيكون مضيعة للوقت. وضع أمامه قهوته والملف الذي أعطوه له على الطاولة، ثم نظر إلى الشخص الماثل أمامه.

كان شابًا من أصل إفريقي، ربما لا يزال مراهقًا كذلك. يرتدي صدرية من الجلد الخفيف فوق قميص مُزرر، أكمامه مرفوعة إلى قرب الكوعين. كان الشاب جالسًا إلى المنضدة مُتوسدًا ذراعيه المنعقدين، نائمًا ووجهه إلى الحائط المُقابل للباب، شعره الأجعد مُصفف على هيئة كروية.

تصرف المُرشد كان عاديًا -ما زال هوبر مُترددًا في اعتباره مُرشدًا حتى إن كانت في حوزته معلومات يُرشد عنها- ككل من يُودَع في الحجز، خاصة مع قلة النوم. لكن هوبر شعر بأن نوم المُرشد لم يكن طبيعيًا، إما أنه مُخدَّر أو ثمل. جلس هوبر أمامه فشم رائحة شيء سُكَّري تفوح من الشاب، فأيقن أنه قد دخَّن مُخدرًا ما.

رشف هوبر من القهوة ونظر إلى ساعته، ثم تنهد وطرق على الطاولة بمفاصل أصابعه. قفز المُرشد في كرسيه فزعًا، وراح يلعق شفتيه ويرمش وهو ينظر إلى المُحقق.

قال هوبر في تحفظ:

- معذرة لإزعاجك. كان عليك أن تطلب من موظف الاستقبال مكالمة لإيقاظك قبل أن تنزل في الفندق.

عكف الشاب على لعق شفتيه، وقد تجعد جبينه حيرةً وهو ينظر إلى هوبر. سأله:

- ماذا؟

أمسك هوبر قلمه وفتح الملف وراح يحرك قلمه على الاستمارة أمامه وقال:

- لا عليك. أنت السيد واشنطُن ليروي.

- لا، لا، لا.

قالها الشاب وهو يحرك يديه فوق الاستمارة. نظر إليه هوبر فوجده يحدق إليه بعينين حمراوين. من دون كشاف لن يستطيع هوبر تبيُّن حالة حدقتي عينيه، لكنه راهن على أنهما واسعتان. قال الشاب:

- اسمي ليروي واشنطُن، أنت قلت اسمي بالعكس يا رجل. ليروي واشنطُن.

شطب هوبر الاسمين وعكسهما في الاستمارة وهو يقول:

- هذا خطأي. ليروي واشنطُن.

- من أنت؟

لم يرفع هوبر عينيه عن الاستمارة، وبيد واحدة أخرج بطاقة من جيبه ووضعها أمام الشاب الذي أخذها وقربها من وجهه هامسًا:

- المُحقق جيمس هوبر.. جنايات؟!

تجاهل هوبر السؤال وهو ينظر إليه عبر الطاولة ويقول:

- تقول أن لديك معلومات.

في هذه اللحظة، أضاء وجه ليروي وقال:

- أجل لديّ معلومات.. أجل، أجل.. هذا صحيح.

- حسنًا، لنسمعها.

أومأ ليروي ولعق شفتيه، ثم مد كفيه على الطاولة. نظر إليهما هوبر فوجد أظفاره مُشققة مُتسخة. كان ليروي يرتدي عددًا من الأساور حول معصميه؛ أساور مُضفرة ملونة، شريط جلدي ذي إبزيم أكبر من إبزيم حزام هوبر. قال الشاب وهو يطرق الطاولة بإظفر مشقوق:

- حسنًا يا رجل، اسمع.. ثمة حدث ضخم على وشك الحدوث يا رجل. أعني.. ضخم حقًّا!

أسند ظهره إلى كرسيه وباعد بين ذراعيه كأنما يصف حجم الحدث وأردف:

- ضخم يا رجل. كان مُخطط له منذ زمن.. منذ شهور يا رجل، ربما منذ أعوام.

هز ليروي رأسه ومال تجاه الطاولة مُستندًا إلى كوعيه مُحدقًا إلى هوبر، ثم نقر صِدغه بإصبعه مُردفًا:

- أنت لا تعرف القديس يا رجل. أنت لا تعرفه. كل شيء لديه هنا.. كل شيء.

زمَّ هوبر شفتيه ناظرًا نحو ليروي وقال:

- حسنًا، تقول أن حدثًا ضخمًا على وشك الوقوع؟

أومأ ليروي وهوى بظهره إلى ظهر كرسيه. ظل هوبر يرمقه للحظات، ثم قال:

- سأحتاج منك إلى توضيحٍ أكبر. إن كنت تريدنا أن نحميك، فأنت في خطر، لذا نريد معلوماتٍ ملموسة.

عقد ليروي حاجبيه مُتسائلًا:

- ملموسة؟

- أجل، أسماء، أماكن، توقيتات. نريد معلومات مُحددة. إن كنت تريد الحماية فيمكننا توفيرها لك، لكن إن كنت لا تنوي منحنا معلوماتٍ نتصرف على أساسها، أو تساعدنا على منع جريمة، فلن نمنح حمايتنا لأي عابر سبيل.

هز ليروي رأسه ونقر على الطاولة مجددًا.

- أجل لكنني قلتُ لك يا صاح.. قلتُ لك. أعطيتك اسمًا: القديس. هو من خطط لكل ذلك.

تنهد هوبر وقال في نفاد صبر:

- خطط لكل "ماذا" يا ليروي؟

لم يبدُ أن ليروي قد سمع، فقد أغمض عينيه ورفع رأسه تجاه السقف. الشاب كان فاقدًا لعقله بسبب مُخدرٍ ما. تنهد هوبر مرة أخرى وكاد يقف، لكنه تجمد مكانه إذ بدأ ليروي في الحديث قائلًا:

- هو قادم. الظلام قادم، الليل، الأفعوان الأسود. هو قادم، هنا والآن. عرش النار قد تجهَّز وسيعتليه ويحكم بلهيبه وسلطانه، وستجتاح عباءة الظلال المدينة.

أجل، الشاب ثمل مُخدَّر كما يقول الكتاب. شرطة نيويورك لديها ما يكفي ولا ينقصها هدهدة المخمورين الذين ينبئون بنهاية العالم. فتح هوبر الملف بين يديه، وتأكد من أنه وقَّع في المكان الصحيح، وكاد أن يطلب من الضابط أن يُعيد ليروي إلى الشارع حين انتفض الشاب وفتح عينيه وراح يبحث في جيوبه.

- انتظر، أتريد شيئًا ملموسًا؟ لدي شيء.. لدي شيء.

وأخرج شيئًا من جيب صدريته الداخلي. تصاعد إيقاع نبضات قلب هوبر، وجلس على كرسيه وعيناه مُثبتتان على الشيء الذي وضعه ليروي واشنطُن على الطاولة.

كانت بطاقة بيضاء أكبر من بطاقات اللعب، مرسومًا عليها رمز بالحبر الأسود السميك؛ نجمة خماسية مفرغة. لم يرَ هوبر هذا الرمز من قبل. من الواضح أن البطاقة من ضمن البطاقات التي يعرفها جيدًا.

ظل يحدق إليها لوقت طال وكأنه ألف عام. كان ليروي يقول شيئًا لكن هوبر لم يسمعه وسط صوت هدير الدماء في أذنيه. بدأ ليروي يلهث وهو يعب الهواء فأفاق هوبر من شروده وسأله:

- من أين أتيت بهذه البطاقة؟

لم يكن ليروي يُنصت، فقد أغلق عينيه مرة أخرى وبدأ يتكلم من بين شهقاته.

- يوم الظلام سيأتي.. وسيمسي النهار ليلًا، وسيتحول الليل إلى أفعوان أسود، وسيُعِد العرش لوصوله.. هكذا قال القديس.. هكذا قال القديس.

استطاع ليروي السيطرة على تنفسه، ثم بدأ يضحك، وذقنه تتقافز فوق صدره وعيناه ما زالتا مُغمضتين.

- مهلًا.

تجاهله ليروي، فضرب هوبر المنضدة أمامه هاتفًا:

- مهلًا!

انتفض ليروي وراح يرمش كأنه استيقظ لتوه من نوم عميق، ونظر إلى هوبر. صاح الأخير:

- *من أين أتيت بهذه البطاقة؟*

تردد صوت هوبر بين حوائط الحجرة الصغيرة. لم يبُد أن ليروي قد لاحظ التغير في مزاج هوبر. جلس مكانه وظل ينظر حوله ثم سأل:

- هل أجد معك سيجارة يا رجل؟ حنجرتي تشتعل. أحتاج إلى شيء.. شيء.

وراح يمسح فمه بظهر يده. لم يستطع هوبر أن يتمالك نفسه، فمد يده جاذبًا ليروي من مرفقه، فصرخ الأخير رُعبًا.

- قلت أن لديك معلومات، وأنا راغب في سماعها. هل لديك معلومات حول هذه البطاقة؟ أتعرف من أين جاءت؟ من صنعها؟ إن كنت تعرف شيئًا عن جرائم القتل فعليك إخباري الآن!

جذب ليروي يده، فتركه هوبر.

- كل هذا جزء من المخطط. هكذا قال.

- من قال؟ وأي مُخطط؟

- القديس.

- من هو القديس؟ ليروي، من هو القديس؟

- القديس جون. هو آت لإنقاذنا جميعًا، ولتجهيز العرش لاستقبال قدومه.

مسح هوبر وجهه وهتف:

- ماذا؟ قدومه؟ قدوم من؟!

- كلا يا رجل، لا أستطيع أن أتفوه باسمه. لا أستطيع.

قام هوبر واقفًا، ومال على الطاولة، ونبضه يصدح في أذنيه.

- عمَ تتحدث يا ليروي؟ قدوم من؟

نظر إليه ليروي وهز رأسه والدموع تتكون داخل مُقلتيه. تحركت شفتاه بحثًا عن كلمات. قال بصوت خفيض كالهمس:

- إبليس يا رجل.. إبليس قادم ونيويورك ستكون عرشه.

الفصل العاشر

البطاقة

٦ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

جلس هوبر على المرحاض المُغلق مُسندًا كوعيه على ركبتيه ماسحًا وجهه. ظل جالسًا في مكانه منذ ما يقرب من عشرين دقيقة. لم يكن مُختبئًا، بل كان يريد الانفراد بأفكاره. وكان الحمام في آخر المبنى هو أقل الأماكن ازدحامًا.

ظل يحدق إلى باب الحمام الأبيض، والبطاقة البيضاء في جيب قميصه أثقل من الرصاص.

لقد هزه ليروي، ولهذا ظل يلوم نفسه. ظهور البطاقة مفاجأة، لكنه كان شرطيًّا بحق الله. كيف ترك أعصابه تفلت منه وقد كان دومًا مُدركًا لهذا العيب مُتحكمًا فيه؟

لكن البطاقة كانت خبرًا جيدًا في حد ذاتها.

لأن البطاقة دليل.

ليروي واشنطُن يعرف شيئًا، وربما كان متورطًا لكنه لم يكن القاتل. الطريقة التي أتى بها طالبًا الحماية مقابل المعلومات تنفي ذلك. لقد أفضى بمعلومات تحت تأثير المُخدرات، لكنه يعرف شيئًا ومعرفته تضعه في خطر كما يبدو.

ربما تضعه في مرمى القاتل.

والأمور الأخرى التي قالها؟ الشيطان يأتي إلى نيويورك، والنار والظلام؟ تلك أشياء تسمعها من الثملين والمُشردين حول ميدان التايمز. *النهاية تقترب*. هذه هي نيويورك، حيث يوقن أحدهم باقتراب النهاية من حين لآخر.

سمع صوت باب يُغلق إذ دخل أحدهم المقصورة المجاورة له. ترك هوبر مقصورته ونظر نظرة طويلة إلى انعكاسه في المرآة فوق الحوض. كان يبدو في حالة مزرية، ويشعر بالضياع. لم يكن ينام بشكل كاف، ويشرب الكثير من القهوة، وتصرفه من وراء رئيسه يضغط عليه بشكل كبير.

أمر نفسه أن يتماسك، وغادر الحمام قاصدًا الطابق العلوي.

***

حين وصل هوبر إلى حجرة المُحققين الجنائيين، رأى ديلجادو تقف عند مدخل إحدى حجرات الملفات، ومرآها أشعره بأن الحِمل يُرفع عن كتفيه تمامًا بشكل مفاجئ.

مرآها ذكره أنه ليس وحده.

توجه إلى مكتبه، فوجَّهته إلى حجرة الاستراحة سائرة أمامه. قالت:

- خُذ وقتك بالطبع، لكن اسمع، لدي شيء.

كانت الاستراحة خالية، فأغلقت ديلجادو الباب ما أن دخلا، ورفعت صوت التلفاز، ثم اتجهت إلى الطاولة الكبيرة في منتصف الحجرة، ووضعت عليها الورقة التي أعطاها لها هوبر منذ قليل.

- لا يسعنا سوى شكر الفقيد جايكوب هويلر على ثِقَل يده في الكتابة.

وأشارت إلى الورقة المُغطاة بتظليلٍ بالقلم الرصاص، وأردفت:

- الأمر كان سهلًا، كنا نفعلها ونحن صغار في المدرسة.

الكلمات المحفورة كانت واضحة أمامه الآن، وفي نفس وضوح كلمة «الأفاعي" المحاطة بأضلاع مُربع. باقي العبارات كانت قائمة، قرأها هوبر بصوتٍ عال:

- الشقوق الوحشية. الملوك القتلة، برونكس 45س. فيلق القرية الشرقية. أرواح فولتون المُنتقمة. أمة الرحمة.

ثم نظر إلى ديلجادو وقال:

- كلها أسماء عصابات.

- أجل، لكن ليست كأي عصابات، لقد تأكدت من ذلك. هذه القائمة تغطي المناطق الإدارية الخمس للمدينة. كل العصابات المذكورة معروفة لدى شرطة نيويورك والمباحث الفيدرالية، ولا شيء مشترك بينهم.. فيما عدا الأفاعي.

حك هوبر ذقنه متسائلًا:

- وهو؟

- أنهم جميعًا قد زالوا. اختفوا. لم يعد أيها موجودًا الآن، بحسب ما نعرف. مُسحوا من على وجه الأرض، أو تفرق أعضاؤها، أو رحلوا خارج المدينة.. لا يعرف أحد.

- فيما عدا الأفاعي.

- فيما عدا الأفاعي. لم نسمع بهم من قبل، ولم يسمع أحد بهم، ولهذا نفترض أنهم عصابة ما.

- طالما ذُكر اسمهم وسط عصابات. أيمكن أن تكون جماعة جديدة؟ العصابات تتكون وتتفرق طيلة الوقت.

- هوبر، أنت تعرف ما يعنيه هذا، أليس كذلك؟

نظر هوبر إلى شريكته مُنتظرًا أن تُكمل حديثها.

- ثالث ضحايانا، جايكوب هويلر، كان عميلًا فيدراليًّا وله سرٌ مخفي، وقد كتب قائمة بالعصابات ومعها اسم تلك العصابة الجديدة. قُتل أثناء تأدية وظيفته، ثم ظهر العميل

الخاص جالوب ساحبًا القضية من بين أيدينا. ربما لا يريدون إخبارنا بما يحدث، لكن الأمر لا يتطلب شهادة في علم الصواريخ كي نفهم ما يجري.

- جايكوب هويلر كان فردًا في قوات مهام فيدرالية.

- بالضبط. القوات تابعة للمباحث الفيدرالية أو مكتب مكافحة الإرهاب أو الاثنين. هذا يفسر الكثير. ربما أقحم العميل الخاص جالوب مُؤخرته في الموضوع لكنه بهذا يحمي ما هو أكثر من وظيفته.

أومأ هوبر وقال:

- إن كان هو قائد قوات المهام، فلديه عملاء في كل مكان في المدينة، مُتخفين ومُندمجين داخل هذه العصابات. ربما قوات المهام تعمل منذ شهور، أو حتى أعوام. ربما هم السبب في اختفاء هذه العصابات، فقد كانوا يفككونها من الداخل.

- هذا صحيح. واحد من عملائهم المتخفين قُتل، وتدخلت شرطة نيويورك فأفسدت سرية عملهم، لذا جاء جالوب وتولى الأمر، فهو في حاجة لحماية عملائه مهما كانت المخاطر. لم يكن لديه خيار سوى أخذ كل ملفات القضية.

هز هوبر رأسه، الأمور بدأت تتضح. أخرج البطاقة ذات الرمز من جيبه وعرضها على ديلجادو. اتسعت عينا شريكته عند مرآها.

- من أين أتت هذه بحق الجحيم؟

طوح هوبر بالبطاقة على الطاولة وقال:

- الشاب الذي كنت أستجوبه، هذا الذي يطلب الحماية. قال لي أطنانًا من الهراء عن نهاية العالم..

- ماذا فعل؟!

- كان قد تعاطى مخدرًا ما وقال ما قال، لكنه أعطاني هذه البطاقة وقال أنها دليل على امتلاكه معلومات تهمنا.

- وماذا كانت المعلومات؟

- لم يُصرح بها. سأحاول معه مرة أخرى حين يفيق. لا بد وأنها معلومات ذات صلة بقاتل البطاقات. ثمة عصابة مرتبطة بتلك الجرائم. هذا الشاب -ليروي واشنطُن- لم يقل أنه ضمن العصابة، لكنه متورط في شيء، ربما مع الأفاعي.

فركت ديلجادو صدغيها مفكرةً وهي تقول:

- القتل الطقسي ليس من سمات العصابات.

- أوافقك، لكن لا سبيل لأن تكون هذه مصادفة. جايكوب هويلر إثبات على ذلك، وكذا ليروي واشنطن.

- أين هو الآن؟

- أمرت بإعادته إلى الحجز. يجب أن يفيق قبل أن يُدلي بما لديه من معلومات. لكنك تعرفين معنى هذا، أليس كذلك؟

- الأمر منتهٍ.

أومأ هوبر، فقد كانت محقة. القضية منتهية. لقد اقتحما شيئًا أكبر بكثير مما يمكنهما التعامل معه؛ عملية فيدرالية قد يُعرِّض إفسادها حيوات العديد من العملاء للخطر.

قال هوبر:

- لكن جهودنا لن تضيع سُدى. سوف نخبر النقيب ما نعرفه، لينقله هو إلى جالوب والمباحث الفيدرالية. بالقليل من الحظ ربما يتغاضون عن تدخلنا.

لم تقل ديلجادو شيئًا، لكنها أومأت موافقة. جلس المحققان إلى الطاولة، يستمعان إلى تغطية إخبارية لكلمة العمدة إد كوخ عن الجرائم الجارية. قطبت ديلجادو ناظرة إلى شريكها، فسألها:

- ماذا؟

- تبدو في حالةٍ مزرية.

ضحك هوبر وقال:

- أخبريني بشيء لا أعرفه.

- عُد إلى بيتك. انصرف مبكرًا ورافق دايان إلى السينما مثلًا. سأتولى أنا تغطيتك لدى النقيب ولنذهب إليه غدًا معًا ونخبره بما لدينا. يبدو أن مرشدك لن يصير في حالة أفضل حتى الغد على أية حال. كل شيء يمكن تأجيله.

نظر هوبر إلى ديلجادو للحظات، ثم تنهد وقال:

- حسنًا. أشكرك.

- على الرحب أيها المُحقق. على الرحب.

٢٦ ديسمبر ١٩٨٤
كوخ هوبر
هوكينز، إنديانا

اجتمع المغيب وانهمار الثلوج بالخارج، بينما انشغل هوبر بحديث طويل.

احتاج هو وإيل إلى استراحة، لكنها احتجَّت حين توقف عن السرد، فحمَّسها بذكر وجبتها المُفضلة، بل بوقت وجبتها المُفضلة..

حان وقت فطائر وافل إيجُّو.

"أفعوان.. أسود".

نظر هوبر من فوق كتفه ليجد إيل قد عادت إلى حجرة المعيشة وجلست مُتربعة على الأرض في مواجهته.

- ماذا يعني هذا؟

وضع هوبر فطائر وافل إيجُّو في طبق، وصب كوبًا من القهوة ثم عاد إلى الطاولة. وقفت إيل واتجهت إليه. سألها:

- من قال هذه العبارة؟

وضع طبقًا كبيرًا من الوافِل في منتصف المنضدة الصغيرة الحمراء، ثم عاد مرة أخرى إلى المطبخ ليجلب أطباقًا أصغر. حين عاد كانت إيل قد بدأت في تناول الطعام، فدَس طبقًا صغيرًا تحت يديها. قالت بفم مليء بالطعام:

- التساؤلات مفيدة.

- مهلا يا سيدتي الصغيرة، آداب المائدة.

وضع واحدة من الوافل في طبقه وأردف:

- أجل، التساؤلات مفيدة، وكذلك الصبر.

قطبت إيل جبينها وقالت:

- ليوري قال هذه العبارة، وكذلك ليزا.

أمسك هوبر بشوكته وتوقف محدقًا إليها.

- أتريدين أن تُكملي الآن؟

نظرت إليه إيل ولم تتحدث، فقط ضيقت عينيها قليلًا. وضع هوبر شوكته وقال:

- حسنًا.. كلاهما قال تلك العبارة وقد لاحظت هذا حين نطق بها ليروي خلال التحقيق. لكن حين عرفنا أمر قوات المهام، لم يعد ما قالوه مهمًا. أخبرت ديلجادو بشأن ليزا في حفل عيد الميلاد وما قاله ليروي، فقالت أن ما قيل ربما كان مجرد عبارة من أغنية ما أو عرض تليفزيوني. الأمر يشبه أن تسمعي عبارة غريبة لأول مرة ثم تجدين الناس تتناقلها بعد ذلك.

استمرت إيل في التحديق إليه، فولَّى انتباهه إلى الطعام في طبقه وأردف:

- أجل لاحظت، ولم نر الصورة كاملة إلا لاحقًا.

توقفت إيل عن المضغ، ثم ابتلعت وتركت فمها يُفتح ذهولًا. سألها هوبر:

- ماذا بك؟

- تقول *إلا لاحقًا؟!*

- حسنًا..

- هل الأفعوان ثعبان؟

أومأ هوبر إيجابًا. وأضاف:

- وكذا الحية.

- أفعوان.. حية.. ثعبان..

اتسعت عينا إيل وهي تحرك يديها أمامهما. رفع هوبر حاجبيه فتنهدت إيل في غضب وقالت:

- كلهم في نفس الموضوع.

- من؟

- ليروي، ليزا، الأفاعي.. الرجل الثالث.

- الرجل الثالث؟ أتقصدين جايكوب هويلر؟

أومأت إيل في شغف. أخذ هوبر قضمة سريعة مع رشفة قهوة، ثم مد يده يسحب منشفة ورقية من العبوة المفتوحة جوار المنضدة ومسح يديه.

إيل متحمسة، لكن هل كانت تفهم القصة؟ هل تفهم ما حدث بالضبط في تلك الأيام البعيدة؟ كانت أسئلة صعبة ولم يكن هوبر واثقًا من امتلاكه لإجابات. إيل ذكية، وستكبر لتصير امرأة بارعة ولا شك.

لكن تربيتها تحت رعاية دكتور برينر -إن كنا سنطلق على الحبس رعاية- قد أصابتها ببعض التجاعيد النفسية. من بعض النواحي كانت إيل أكبر من عمرها، ومن نواحٍ أخرى كانت

أصغر من قريناتها. قال هوبر مرة أخرى مؤكدًا الاسم:

- أجل، جايكوب هويلر.

لم يعرف أي فائدة سيجني من ذلك، لكن هناك خطرًا من تسطيح القصة أو التقليل من شأنها. لم تكن تلك قصة خيالية أو حكاية قبل النوم.

كانت الحقيقة، على الأقل كما عرفها.

- فقط اصبري وستعرفين كل شيء.

قطبت إيل وضيَّقت عينيها، لكنها لم تتوان عن البدء في قطعة الوافل رقم ثلاثة. أكل الاثنان في صمت لدقائق، حتى قالت إيل:

- كان هذا غريبًا.

- ماذا؟

- النقيب كان يعرف.. البطاقة.

ابتسم هوبر وأشار إلى إيل بشوكته وقال:

- ممتاز يا طفلتي. أنت تُركزين في التفاصيل. أجل، النقيب كان يعرف بشأن البطاقة، فقد كان ليروي يلوح بها منذ أتى إلى القسم، وذكرها الضابط للنقيب لذا اختارني للتحقيق معه. لم يخبرني بالسبب ولا حتى بشكلٍ خاص لأنه كان يعرف أن عليه إبقاء نفسه بعيدًا عن كل هذا. لم يرق له سحب القضية من قسم الجنايات مثلي تمامًا، لكن ما كان له الاعتراض وهو في منصبه هذا. لكن تذكري أنه لم يكن يعرف شيئًا عن قوات المهام حتى أخبرناه -أنا وديلجادو- عما عثرنا عليه. لكنه حكى لي لاحقًا ما حدث.

أومأت إيل وقد بدا عليها الرضا وأكملت أكلها. بعد قليل سألت:

- هل وظيفتك خطرة؟

- أحيانًا.

- هل تقبض على الناس.. قبل القتل.

- إلقاء القبض على الناس قبل ارتكاب جرائمهم صعب. وظيفتي تتمحور حول معرفة من القاتل بعد وقوع الجريمة. قاتل البطاقات كان حالة خاصة، كان قاتلًا متسلسلًا ولديه فرصة في الاستمرار في القتل فترة قبل إلقاء القبض عليه. في هذه الحالات نحاول القبض عليه قبل ارتكاب المزيد من الجرائم. لكنها حالات نادرة، لا تمر على أغلب المحققين قضايا كهذه.

- أنت تبحث عن الأشرار؟

- بالتأكيد.

- الأشرار يؤذونك.

ونظرت إليه كأنها تتوقع منه المزيد، لكن هوبر لم يكن واثقًا من أن لديه المزيد. سؤالها كان بسيطًا، لكن إجابته.. مُعقدة. تنهد وقال:

- أجل. وظيفتي كشرطي تجبرني على التعامل مع الأشرار ومواجهة المواقف الخطرة. لكن هذا جزء من الوظيفة فقط، فأنا أساعد الناس كذلك، كما ساعدتك.

توقف عن الحديث.. أهي أول مرة تُفكر فيها إيل في حياته وفي وظيفته؟ والأهم: كيف سيؤثر فيها ماضيها؛ تعاملها مع الديموجورجون6، وسالخ العقول7؟ والآن كيف ستؤثر عليها حياته ومستقبله اللذان سيتشاركانه سويًّا؟

المستقبل الذي سنتشاركه معًا.

مسح هوبر دمعة سالت من عينه ونظر إلى ابنته المُتبناة، وحياته التي تحكَّم فيها الألم والخوف. حملت إيل الكوب الفارغ جوار طبقها ومدت يدها به نحو هوبر، ابتسم ودون كلمة أخرى قام مُتوجهًا إلى المطبخ، وبعد دقائق عاد بالكوب مُفعمًا بمشروب "كول آيد".

رشفت إيل رشفة ثم وضعت الكوب جانبًا وقالت:

- وظيفة خطرة.

رفع هوبر حاجبيه وتأمل إيل وهي تجمع خيوط سؤالها التالي. من المذهل مراقبتها وهي تفكر في ما هو معروف لفتاة في مثل عمرها كأمر يحتاج إلى الفهم والاستفسار. لم تكن تلك هي المرة الأولى. لعن هوبر برينَر في سره، لكنها.. تتحسن. كان هوبر يرى تحسنها وهو يبذل جهده ليعلمها وكان يعلم أنها ستتطور ما أن تعود للاندماج في العالم.

لكن هذا أمر يمكن إرجاء القلق بشأنه إلى وقت لاحق. أما الآن، أجفلت إيل كأنما تتألم وهي تبحث عن الكلمات المناسبة لما تريد قوله. هزت رأسها ثم قالت:

- أردت أن تكون شرطيًّا؟

ثم حاولت أن تجد مُدخلًا آخر لسؤالها. ابتسم هوبر مراقبًا محاولاتها كأنها تلعب لعبة كلمات صعبة، ثم قال مُساعدًا:

- إن كانت وظيفة الشرطي خطرة، وأنا كنت أريد أن أصبح شرطيًّا، فلم أردت وظيفة خطرة من الأساس؟

أومأت إيل واسترخت، وزالت حيرتها وغضبها فورًا. رشفت من مشروبها وانتظرت الإجابة في هدوء. الخطر لم يكن يزعجها ولو قليلًا، وكان هوبر يعرف ذلك. وكان يعرف أن استجابتها للخطر مختلفة نتيجة نشأتها وكونها.. قادرة على حماية نفسها.

ربما الآن، ومع هذه القصة، بدأت تفهم أن بعض الناس يضعون أنفسهم في مواجهة الخطر طواعيةً.

هي *تتعلم*.. هي *تتعلم*..

- الوظيفة قد تكون خطرة، لكنني لم أختر أن أكون شرطيًّا لأنها وظيفة خطرة، اخترت تلك الوظيفة كي أساعد الناس وأحميهم. بالطبع ثمة أشرار في كل مكان، لكن تذكَّري أن هناك أخيارًا كذلك. والأخيار قادرون على فعل الخير لو اختاروا ذلك، حتى لو أوقعتهم أفعالهم الخيرة في بعض الخطر. لهذا أردت أن أكون شرطيًّا. لديّ الخبرة والمهارة التي أستطيع بها أن أواجه الخطر قدر استطاعتي.

نظرت إيل إلى عينيه للحظاتٍ طالت، ثم أومأت وأكملت شرابها.

- وتذكري أيضًا أن نهاية قصتنا جيدة، فأنا هنا، أليس كذلك؟ هل تريدين أن أكمل الحكي؟

ابتسمت إيل وأومأت، وهذه المرة دفعت طبقها نحوه، فقال هوبر مبتسمًا:

- سأعود حالًا.

-وحش ظهر في الموسم الأول من المسلسل المأخوذ عن سلسلة الكتب بين يديك الآن. وقد صرعته أحد عشر «إيليفين» قبل بدء أحداث هذه الرواية. -وحش يشبه العنكبوت ظهر في الجزء الثالث من نفس المسلسل.

الفصل الحادي عشر

السيد مُتمرد

٦ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

"مهلًا! متى هبطت سفينة الفضاء سطح المبنى؟ أقسم أن حوائط المسرح كانت تهتز!».

رفع هوبر يديه مُشكّلًا زاوية حادة لأعلى، مُحاكيًا حركة سفينة الفضاء المذكورة، مُوجهًا ذراعيه نحو زوجته إذ جلست قبالته إلى الطاولة.

- بمواوووووومممممفففففففف...

ضحكت دايان حتى سالت الدموع من عينيها كنهر ينحدر على خديها، بينما استمر زوجها في تقليد أحداث الفيلم الذي شاهداه في السينما منذ نصف ساعة. جلس منتصبًا على مقعده وأحنى كتفيه، وغطى وجهه بكفيه المُقوسين مُتنفسًا بداخلهما مُستغلًا صدى الصوت لخلق تأثير تنفس ثقيل درامي.

لوحت دايان بكفيها نحوه وهي تجاهد كي تتنفس وصاحت:

- جيم!

نظرت حولها إلى المطعم الصغير لكن أحدًا لم يعرهما انتباهًا. شكَّل هوبر هيئة مُسدس بيديه وصاح:

- بيو، بيو، بيو!

أخيرًا استطاعت دايان أن تتحكم في تنفسها وقالت:

- معذرة، لكن كم يبلغ زوجي من العمر؟! خمسًا وثلاثين وفي طريقه إلى الثالثة عشر؟

توقف هوبر عن التمثيل وضحك. بينهما وعاء كبير أقرب لمزهرية يحوي شراب مخفوق كريمة البيض. مال هوبر نحوه ووضع قشة الشُّرب في جانب فمه، وفعلت دايان مثله، ثم قالت وهي تداعب أنفه:

- أنا سعيدة أنك استمتعت بالفيلم. أتظن أن لوك وليا سوف...

كاد هوبر أن يختنق في شرابه، سألها:

- سوف ماذا تحديدًا؟

- أنت تعرف.

وضحكت، ابتسم هوبر وقال:

- هذا ما استخلصتِه من أفضل فيلم شاهدته في حياتك، وتدَّعين أنني أنا المراهق؟

- أفضل فيلم شاهدته في حياتي؟!

- مهلا، اعترفي. الفيلم عظيم، أليس كذلك؟

مسحت دايان أثر الدموع من على وجنتيها وقالت:

- حسنًا، أنا أعترف أنه كان عظيمًا. أعتقد أنه سيعجب سارة. ربما نصطحبها معنا المرة القادمة.

مال هوبر على الطاولة مُستندًا إلى كوعيه وقال:

- ألا تظنين أن "آني" ستعجبها أكثر؟

- هذه المسرحية الموسيقية التي بدأ عرضها.. أين؟

- على مسرح آلفين على ما أعتقد، في شارع اثنين وخمسين تقريبًا.

- ربما. رأيت أسعار التذاكر في الصحيفة.

أجفل هوبر مُتسائلًا:

- أهي غالية إلى هذا الحد؟

- لنقُل أن السينما اختيار أفضل.

- نحن في نيويورك وأنا أقدِّر الخيارات الفُضلى. اتفقنا. أترين؟

- ماذا أرى؟

- أنت تعترفين أن الفيلم عظيم لدرجة أنك تريدين مشاهدته مرة أخرى، وها أنت تستغلين ابنتك الحبيبة كعذرٍ واهٍ!

صاحت دايان ضاحكة:

- أعترض!

شرب هوبر المزيد من مخفوق كريمة البيض وقال:

- إن لم تلاحظي، فأنا شرطي لا مُحاميًا. هذه الحيلة لا تنطلي عليَّ.

- حسنًا أيها المحقق، ما زلتَ بارعًا في تفادي الإجابة عن الأسئلة الصعبة.

قلَّب هوبر المشروب بقشة الشُّرب وسألها:

- وماذا كان السؤال؟

- لوك وليا.. نعم أم لا؟

- أوه.. لا.

- لا؟!

- الفتيات تحب الفتيان المُتمردين، أليس كذلك؟

- أهذه حقيقة راسخة أيها السيد مُتمرد؟

- بالتأكيد.. سيقع اختيارها على هان، بلا شك.

جذبت دايان الشراب بعيدًا عنه، وأمالت الوعاء وهي تُقلِّبه. بعد لحظات من التركيز رفعت عينيها لترى هوبر يحدق إليها. سألته:

- ماذا؟

ابتسم هوبر بزاوية فمه وقال:

- أحبك يا دايان هوبر.

مالت دايان نحوه وقالت:

- أحبك أيها السيد المتمرد. تبدو سعيدًا.

تجمدت ابتسامة هوبر، ورأت دايان الحيرة واضحة على ملامحه، فأمسكت بيده وقالت:

- استرخ. تبدو سعيدًا، وهذا كل ما في الأمر. أراك مُرتاحًا الآن أكثر مما كنت خلال الأسابيع الماضية. لا يمكن أن يكون هذا بسبب الفيلم ومخفوق كريمة البيض فقط.

فكر هوبر قليلًا وأدرك أنه بالفعل سعيد مُرتاح. دايان مُحقة، وهي دومًا كذلك. أمالت رأسها مُردفة:

- ما الأمر إذًا؟ هل جد جديد في العمل؟

فرد هوبر كفيه على الطاولة العالية وقال بصوت خفيض:

- الحقيقة أن شيئًا حدث بالفعل، أنت تعرفين القضية.. جرائم القتل المُتعددة؟

- أجل، هل عرفتم الفاعل؟

- كلا، بالعكس. القضية لم تعد قضيتنا من الأساس، لقد سُحِبت منا.

- ماذا؟ وهذا يُسعدك؟

تراجعت دايان في كرسيها مقطبة جبينها. قال هوبر:

- أوه، لا تُسيئي فهمي. هذه قضية أردنا العمل فيها، لكن المباحث الفيدرالية سحبتها منا. ثمة صلة بين عصابات وهم يديرون فرقة تنفيذ مهام وعليهم تولي الأمر بأنفسهم دون تدخل الشرطة.

- وماذا تشعر حيال ذلك؟

نفخ هوبر وقال:

- بالتأكيد كنا نريد تولي تلك القضية والقبض على المجرم، لكن الأمر أكبر مني. أنا مرتاح لترك تلك الأمور إلى المباحث الفيدرالية، و...

توقف هوبر قليلًا مُفكرًا، سألته دايان:

- و...؟

- أجل، أنا سعيد الآن، فقد كانت قضية صعبة. جزء مني أراد حلها، الجزء الآخر ارتاح لابتعادي عن التورط فيها. هناك المزيد من القضايا ليحلها المُحققان هوبر وديلجادو.

ثم ابتسم. سألته دايان:

- والآن؟

قام هوبر من مقعده وقال:

- كل ما أريده الآن هو بعض البطاطس المقلية، سأعود سريعًا.

ذهب هوبر إلى طاولة الطلبات تاركًا زوجته الضاحكة مع ما تبقى من مخفوق كريمة البيض.

***

كان المساء دافئًا.

فتح هوبر باب المطعم لتخرج دايان، وقد ندم أنه ارتدى سترته. خلعها ووضعها على كتفه، فطارت بطاقة كبيرة ناصعة البياض وحطَّت تحت عمود الإنارة على الرصيف.انحنت دايان تلتقطها وسألته:

- ما هذه؟

- أوه.. المفترض ألا تكون معي. يجب أن أعيدها إلى القسم في الصباح.

لم تفهم دايان فورًا، وظلت ممسكة بها، ثم قالت:

- هذه واحدة من بطاقات زينر.

رمش هوبر مادًّا يده نحوها وسألها:

- بطاقة من؟

أعطته دايان البطاقة مُجيبة:

- بطاقة زينر.

نظر هوبر إلى البطاقة وقلبها بين يديه وكأنه يراها لأول مرة.

- أنت تعرفين ماذا تكون؟

- أجل.. ليس بالضبط. كل ما أعرفه أنها تُستخدم في اختبارات القدرات الروحانية والنفسية. هذه بطاقة ضمن عدد من البطاقات تُدعى بطاقات زينر.

لعق هوبر شفتيه وخطا خطوة نحو زوجته، نظرت إليه الأخيرة ورأت الاهتمام يغزو ملامحه. سألته:

- جيم، ما بك؟

- في كل مسرح جريمة من الجرائم الثلاث وجدنا بطاقة مثل هذه لكن بنقوش مختلفة. كلها يدوية الصنع، مكتوبة بحبر خاص. من الواضح أنها تعني شيئًا بالنسبة للقاتل، ولو أنه يحاول إيصال رسالة معينة إلينا من خلالها، فنحن لا نفهمها.

- أتعني أنكم لا تعرفون ماذا تعني هذه البطاقات؟

- أجل. هذه البطاقات أهلكتنا تفكيرًا لأسابيع. كيف عرفتي كنهها؟

- أتذكُر ليزا سارجيسون؟ العرافة التي كانت في حفل عيد الميلاد؟

- وكيف أنساها؟!

- هي تستخدمهم لأجل شيء ما.. جزء من عرضها الترفيهي. لم تستخدمهم يوم الحفل لكنها حدثتنا عن عملها وأدواتها وكانوا ضمن ما تحدثت عنه. أعتقد أنها قالت أنها بطاقات زينر، وربما أكون قد أخطأت السمع.

قطب هوبر حاجبيه وقال:

- أهي نوع من أنواع بطاقات التاروت المُستخدمة في قراءة الطالع؟

- لا أعرف. أنا بالفعل لا أعرف الكثير عنهم، لكنها ذكرت تجارب نفسية وروحانية. ظننت أن هذا جزء من عرضها الترفيهي، فأغلب تلك العروض مزيج من العلم والسحر لا مجرد خفة يد.

هز هوبر رأسه غير مُصدق.

- جيم؟

تنهد وأعاد البطاقة إلى جيب قميصه، ثم أمسك بيد دايان وسارا في اتجاه قطار الأنفاق.

- كل هذا الوقت كنا نحاول معرفة ماهية تلك البطاقات، حتى عرفنا من ساحرة حفلات أطفال ما هي.

توقف هوبر جاذبًا دايان كي تحذو حذوه. نظرت إليه متسائلة رافعة حاجبها. سألها:

- أيمكنك أن تُسدي لي صنيعًا؟

- بالتأكيد، ما هو؟

- أتعتقدين أن في وسع ليزا إخبارنا بالمزيد عن بطاقات زينر؟ عن معناها؟

- أعتقد هذا. لكن ألم تقل أن القضية لم تعد قضيتكم؟

- أجل، لكني حصلت على هذه البطاقة من مُرشد جاء إلى القسم، ويبدو أن لديه مشاكل مع عصابات، لذا سنسلمه إلى العملاء الفيدراليين غدًا. لو أننا استطعنا الإبلاغ عن المزيد من المعلومات سيكون هذا ذا فائدة لهم. ألديكِ رقم هاتفها؟ قلتِ أن ليزا صديقة لأحد أولياء أمور الأطفال المدعوين.

- أجل، لديّ رقمها. سأتصل بها في الصباح لو أردت.

- ألا يمكنك أن تهاتفيها الليلة؟

- الوقت قد تأخر يا جيم.

- ما كنت لأطلب طلبًا كهذا إلا لو كان ضروريًّا.

تنهدت دايان وقالت:

- حسنًا، بكل تأكيد.

***

كانت الشقة هادئة حين عادا. أبلغتهما جليسة الأطفال ريتشل أن سارة قد نامت، وكل شيء على ما يرام، فنقدها هوبر مالها. لمعت عينا الجليسة المراهقة وهي تعد المبلغ ثم قالت:

- شكرًا لك يا سيد هوبر.

حيتهما تحية المساء ثم انصرفت. اتجه هوبر إلى المطبخ ووقف جوار الهاتف في انتظار زوجته.

- القليل من الصبر أيها المحقق.

ابتسم قائلًا:

- معذرة!

وضعت دايان حقيبة يدها على الطاولة وفتحتها مُخرجة دفتر أرقام هاتف صغيرًا ذا غلافٍ جلدي، ثم اتجهت نحو الهاتف المُعلق على الحائط جوار البراد. وضعت السماعة بين عنقها وكتفها وبدأت في طلب الرقم. التفتت نحو هوبر ووقف الاثنان في صمت ينتظران.

بعد فترة كأنها دهر، هزت دايان رأسها والتفتت لتعيد السماعة إلى مكانها، فسمع هوبر صوت فتح الخط. أعادت دايان السماعة إلى أذنها سريعًا وقالت:

- مرحبًا.. ليزا؟ أنا دايان.. أوه، أجل.. كلا لم يحدث مكروه. آسفة لاتصالي بك في وقتٍ متأخر.. حسنًا.

ضحكت دايان، فاسترخى هوبر ومال مُستندًا إلى منضدة المطبخ، عاقدًا ذراعيه، مُنتظرًا.

شرحت دايان لليزا أن زوجها يريد السؤال عن شيء، وبعد التوضيح أن الأمر لا علاقة له بما حدث في الحفل، ناولت السماعة لهوبر قائلًا:

- تفضل أيها الرئيس.

قبَّلته على خده واتجهت إلى الحجرة الأخرى. قال هوبر وهو يفك عُقَد سلك الهاتف كي يستطيع الحركة بحرية.

- السيدة سارجيسون؟ أهلا، أنا جيمس. اسمعي.. آه، شكرًا لقبولك الحديث معي. أنا بالفعل أريد الاعتذار على ما حدث يوم الحفل.. هلا سمحت لي ببعض الأسئلة؟

٢٦ ديسمبر ١٩٨٤
كوخ هوبر
هوكينز، إنديانا

- هل ستجربينه أم لا؟

- أين البيض؟

هز هوبر رأسه وقال:

- المشروب لا يحتوي على البيض.

- ولا مخفوق الكريمة؟

- أجل..

عادت عينا إيل إلى الكوب الطويل الموضوع بينهما، لم يكن هوبر يملك الوعاء الذي يُصَب فيه عادة مخفوق كريمة البيض في المطاعم، لكن الشراب الذي أعده لم يكن سيئًا؛ لونه بني فاتح، وتعلوه طبقة من الرغوة.

أغمضت إيل عينًا واحدة وراحت تنظر للكوب بالأخرى، وهي تُشكك في هوبر ومشروبه القديم الغريب. قالت له:

- المشروب يحوي اللبن وشراب الشوكولاتة؟

- الكثير من شراب الشوكولاتة.

- و.. سيلتزر؟

جعدت أنفها وهي تنطق الكلمة الغريبة عليها. أومأ هوبر وقال:

- أجل، ماء سيلتزر الفوار.. ماء مليء بالفقاقيع.

فرد كفيه على المنضدة ومال مُسندًا ذقنه عليهما كي يكون في نفس مستوى إيل تقريبًا.

- هل ستجربينها؟ أنت من طلبتِ مني أن أعِدَّها.

فتحت إيل عينها المغلقة وأمالت رأسها يُمنة ويسرة ثم سألت:

- ولم يسمونه إذًا مخفوق كريمة البيض؟

- هذه قصة طويلة.

- يبدو مقززًا.

قام هوبر وقال:

- أتمزحين؟ إنه لذيذ! انظري.

وأمسك بواحدة من قشتي الشرب الموضوعتين على المنضدة، ودسها عبر الرغوة الكثيفة ورشف رشفة طويلة ثم قال:

- مممممم..

ثم رفع يده بالكوب مُتفحصًا المشروب، كأنه يتأمل خمرًا مُعتقًا وأردف:

- دعيني أخبرك بشيء يا طفلتي. المشروب ممتاز، من كلاسيكيات بروكلِن حقًّا. سيعجبك.

أعاد الكوب إلى المنضدة، فمالت إيل تنظر إلى الشراب الرغوي.

- هيا، جربيه.

لم تقل إيل شيئًا، فأعطاها هوبر قشة الشرب الأخرى. قامت من كرسيها مُبتعدة وقالت:

- كلا!

- كما تشائين.

أخذ هوبر الكوب وتبعها مُردفًا:

- المزيد لي إذًا.

الفصل الثاني عشر

طيور وأقفاص.. قطط وحقائب

٧ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

عبر هوبر حجرة المُحققين، لا يحمل في عقله سوى فكرة واحدة..

القهوة..

كانت ليلته الماضية طويلة. لم يقض وقتًا طويلًا على الهاتف مع ليزا، فقد كانت مكالمتهما مختصرة. كانت ليزا عائدة للتو إلى منزلها وتحتاج إلى النوم كي تستيقظ باكرًا. سألها هوبر بضعة أسئلة انتهت إلى اتفاق بينهما أن يقابلها اليوم التالي.

قضى الساعات التالية مُستلقيًا في سريره يعاني الأرق، بينما دايان نائمة جواره في سلام، غير عالمة بما يعتمل في عقل زوجها من أحداث تُعاد مرات ومرات دون توقف.

أخيرًا، توصَّل إلى خطة يرتاح إليها، خطة بسيطة خالية من التعقيد. سوف يتحدث إلى ليروي واشنطن مرة أخرى آملًا أن يكون أكثر يقظةً بعد أن حصل على قسط من النوم. وبالحصول على المعلومات التي استخلصها من ليزا حول طبيعة بطاقات زينر، سيستطيع أن يبلغ لافورنيا كل التفاصيل. سيغضب النقيب كي يضيف سمت الشرطي القديم المحنَّك إلى محادثتهما، لكن هوبر يشك أن رئيسه كان على علم بامتلاك ليروي البطاقة، فمستحيل أن يكون أمره لهوبر بتولي أمر استجواب الشاب مصادفة.

علَّق هوبر سترته على ظهر المقعد، وفك أزرار كُمي قميصه وطوى أطراف الكمين إلى أعلى وهو يسير نحو حجرة الاستراحة. كان شاكرًا أن الجو لم يكن حارًا في المكتب، وشاكرًا لوجود وعاء كامل من القهوة المُحضرة وعُلبة من كعك الدوناتس تبقت منها قطعتان.

بارك الله وردية الليل وكل من يعمل بها..

صب هوبر لنفسه قدحًا، وكانت القهوة محترقة مُزيتة، لكنه كان في حاجة إلى الكافيين. أخذ قضمة من الدوناتس كي يزيل فقط طعم القهوة من فمه ثم عاد إلى مكتبه مُحييًا المحقق هاريس والشاويش مَكجويجَن، فلمعت عيناهما حين لمحا ما يأكله.

جلس هوبر إلى مكتبه سعيدًا أنه قد وصل قبل زميليه بثوانٍ، سعيدًا كذلك بتفادي المعركة الحربية التي ستقام بين هاريس ومَكجويجَن حول قطعة الدوناتس المُتبقية.

نظر إلى الساعة، ثم مسح السكر عن شفتيه ومسح كفه في بنطاله، ثم رفع سماعة الهاتف. رفع الشاويش المسئول عن الهاتف بالأسفل السماعة فورًا حتى كاد هوبر يختنق بالقهوة في فمه، قبل أن يتمكن من ابتلاعها سريعًا والرد عليه.

- آه، معذرة. صباح الخير أيها الشاويش. أنا المُحقق جيمس هوبر من الطابق السادس. أجل، اسمع.. الرجل الذي كنت أحقق معه أمس، ليروي واشنطن.. هل يمكنك أن ترسله إلى حجرة التحقيقات؟

ما رد به الشاويش أيقظ هوبر أكثر من القهوة. لم يستطع تمالك نفسه فقام قابضًا على سماعة الهاتف كالمِلزمة.

- ماذا تعني بأنهم أطلقوا سراحه؟!

أنصت إليه هوبر، ثم أغمض عينيه غاضبًا ويده الأخرى تُدلك جبينه. عندما أنهى الشاويش كلامه راح هوبر يهز رأسه مُغمض العينين.

- حسنًا، أشكر مساعدتك.

صفق سماعة الهاتف. عاد المُحقق هاريس من الممر المُفضي إلى حجرة الاستراحة، حاملًا القهوة وكعكة الدوناتس، ومن خلفه الشاويش متجهمًا حاملًا واحدًا فقط من الشيئين.

أشار هاريس بالكعكة نحو هوبر هاتفًا:

- مهلًا.. أنت بدأت في صفق السماعات قبل أن يبدأ اليوم حتى. يبدو أن صباحك عصيب. هكذا يسير العمل دومًا.

كاد هوبر أن يهوي إلى كرسيه وهو يقول:

- أجل. لا تخبرني عن الأيام العصيبة.

قضم هاريس من الكعكة وتبع قضمته برشفة من القهوة، وحين تكلم كان فمه ممتلئًا مما جعل هوبر يجفل للمنظر.

- ماذا حدث؟

- الشاب الذي أتى أمس، المراهق الشقي الذي يملك بعض المعلومات.

- أجل. كان يريد الحماية تقريبًا. هل أسفر التحقيق معه عن شيء؟

هز هوبر رأسه في غيظ وأجاب:

- هذا ما كنت آمل في الحصول عليه اليوم، لكن أحمق ما أطلق سراحه هذا الصباح.

هتف هاريس:

- ماذا تقول؟!

حدق هوبر إلى مكتبه، كأن الإجابة تكمن فيه وقال:

- أمرتهم أمس أن يتحفظوا عليه في الحجز، لكن ضابطًا رأى الحالة التي كان عليها فألقى به في زنزانة المخمورين، وفي الخامسة صباحًا أفرجوا عمن فيها.

- هذه طريقة غريبة لحماية شاب لجأ لنا.

- حقًّا تقول.

- أتريدني أن أنزل إليهم وأخصي من فعلها؟ أعرف الشاويش المسئول عن الاستقبال، وهو مدين لي بمعروفٍ أو اثنين.

قام هوبر دافعًا كرسيه إلى الخلف وهو يقول:

- كلا، لا داعي للشجار. أحتاج إلى الحديث مع النقيب عما حدث.

***

لم يكن لافورنيا ذا عونٍ، لكنه احتوى غضب هوبر العاصف جيدًا مع الأخذ في الاعتبار أنه كان قد وصل إلى مكتبه للتو. إطلاق سراح ليروي واشنطن مفاجأة وخيبة أمل بالنسبة له كما كانت بالنسبة لهوبر، وقبل أن يغادر الأخير المكتب كان النقيب يصرخ في أحد العاملين بالأسفل عبر الهاتف.

حين عاد هوبر إلى مكتبه كان هاتفه يرن، ولم يكن ثمة أثر لديلجادو بعد. هرع إليه ورفع السماعة متوقعًا أن يسمع صوتها.

- هوبر، قسم الجنايات.

هدر الهاتف في أذنه كمحيط بعيد، ثم هدأت الضوضاء، وسمع صوت تنفس سطحي سريع. ثم عاد صوت الخرير مرة أخرى واختفى. أدرك هوبر أن أيًّا من كان على الخط فإنه يحرك ما يشبه ذقنًا خشنة على بوق السماعة.

جلس هوبر مُنصتًا إلى صوت التنفس للحظات، وكاد أن يغلق الخط فقد كان مُعتادًا على المكالمات السخيفة من هذا النوع، حين سمع صوتًا يتحدث همسًا:

- المحقق هوبر؟ هذا أنا يا رجل، أنا.

رمش هوبر وهو ينظر حوله إلى المحققين، ولم يكن أحد ينظر إليه. التفت هوبر في كرسيه ليواجه الحائط وقال:

- ليروي؟

زفر المتحدث بصوتٍ عالٍ، وبدا الارتياح على صوته حين تحدث وقال:

- أجل يا رجل! اللعنة، أنا شاكر لأنك أجبت الاتصال.

أغلق هوبر عينيه وسأله:

- أين أنت بحق الجحيم؟ قيل لي أنهم أطلقوا سراحك.

- أطلقوا سراحي؟ لقد جذبوا مؤخرتي يا رجل وألقوا بها في الشارع.

تنهد هوبر وحكَّ جبينه قائلًا:

- حسنًا، اسمع...

- أيها المُحقق، عليك أن تساعدني يا رجل. أرجوك.. أنا أحتاج المساعدة حقًّا.

عاد صوت الاحتكاك مجددًا. تخيل هوبر ليروي مختبئًا في مقصورة هاتف عمومية، والسماعة مضغوطة إلى فمه وهو يتحدث، ثم يحرك رأسه يمنة ويسرة ليراقب ما يحدث من حوله. على الأقل كان صوته أفضل وبدا واعيًا مُتحكمًا فيما يقول.

سأله هوبر:

- أين أنت؟

- أرجوك يا رجل، أرجوك.

ظل ليروي يكرر رجاءه ولم يبدُ مُنصتًا لما يقوله هوبر. سمع الأخير شيئًا مختلفًا في صوته.

خوف..

- اسمع، القديس جون يخطط لشيء يا رجل، شيء عظيم سيضرب المدينة كالمدِّ. أنا جاد.. القديس جون حقيقة، أتفهمني؟ وهو خطر ولديه كل تلك الأفكار عن الشيطان ونهاية العالم يا رجل. ربما لا تصدق كل هذا، وربما لا أصدقها أنا أيضًا، لكنه يصدق ويؤمن بكل هذا يا رجل. يجب أن أرحل الآن، وأريد بالفعل أن أساعد في ذلك.. لكنني لا أستطيع أن أفعل هذا وحدي. الأمر يشبه.. يشبه أن تكون غير قادر على الاقتراب منه أو الإمساك به.. يشبه.. يشبه...

ضيَّق هوبر عينه محاولًا التركيز فيما يقوله ليروي.

- يشبه ماذا يا ليروي؟

تنهد ليروي عبر الهاتف وقال:

- لا أعرف.. الأمر غريب. لديه نوع من القوى، أعني.. قوى حقيقية. كأن يستطيع قراءة عقلك اللعين. كأنه يعرف ما تنتوي فعله قبل أن تعرفه أنت نفسك. قلت لك أنه خطر، عليك أن تصدقني. عليك أن تساعدني يا رجل، أحتاج إلى الخلاص منه سريعًا.

- حسنًا، سأساعدك. أخبرني أين أنت وسآتي إليك.

- وأختي أيضًا.

- أختك؟

- أجل أختي، هي متورطة كذلك.. القديس جون تملَّك منها يا رجل. عليك أن تساعدني كي أنقذها قبل أن يغرقنا الخراء يا رجل، قبل أن يغرق المدينة كلها.

- حسنًا.. اسمع يا ليروي...

- هل سمعت ما قلت أيها المُحقق؟ هل تنصت إليَّ؟ هذا رجل شرير للغاية.

- ليروي!

نظر هوبر أمامه، كان مَكجويجن ومارني يقفان جواره يتحاوران وينظران إليه، لكنه تجاهلهما. قرب السماعة من فمه وسمع صوت تنفس رجل مذعور.

- أخبرني أين أنت وسآتي إليك حالًا. وقتها سنتحدث وتخبرني عن القديس جون وأختك، اتفقنا؟ احك لي عن كل شيء وسوف نضع خطة مناسبة.

الصوت الوحيد الذي استطاع هوبر سماعه هو صوت تنفس متقطِّع مذعور، واحتكاك ذقن ليروي غير الحليقة بالبوق وهو ينظر حوله مُتحققًا.

- ليروي، أتسمعني؟

- أجل أسمعك. تعال وخذني لو سمحت، في أسرع وقت يا رجل، في أسرع وقت.

أعطاه ليروي العنوان أخيرًا، وانغلق الخط. دار هوبر في كرسيه مُغلقًا السماعة، وكتب مكان اللقاء في دفتره، ثم كتب ملحوظة لديلجادو ووضعها تحت كوبها، بعدها ارتدى سترته وانطلق نحو الباب.

الفصل الثالث عشر

السقوط

٧ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك.

المكان الذي كان فيه ليروي بالقرب من حديقة صَنسيت، جوار أرصفة الشحن ومخازن بها أعلى معدلات جريمة في المنطقة.

حين غادر هوبر القسم، تأكد من أن مسدسه معه، مُتفقدًا حامل المسدس على كتفه أربع أو خمس مرات طيلة الطريق إلى المرآب، حيث انتقى سيارة كاتالينا لا تثير الشبهات في المكان الذي يقصده.

اقترب من المكان المحدد، وأوقف سيارته جوار مخزن يعج بالعمال، آملًا أن يفعل أحدهم شيئًا لو رأوا شخصًا يحاول سرقة سيارته. أكمل هوبر باقي طريقه سيرًا على الأقدام ملتزمًا بالطرُق الرئيسية.

العنوان الذي أعطاه إياه ليروي كان عند تقاطع طرق، مجاور لساحة سكك حديدية ضخمة غائصة تحت مستوى الأرض كأخدود. المكان كان مكشوفًا، وأراح هذا هوبر، فلو أن هناك هجومًا فيمكنه على الأقل أن يعرف به قبل وقوعه.

تمتلئ ساحة السكة الحديد بعربات الشحن البطيئة التي ترتطم بالقضبان باستمرار بينما العمال يعملون حولها مُرتدين الأوفرولات الزرقاء والبنية المُلطخة بالشحم، والسترات القذرة والخوذات الصلبة.

تفقَّد هوبر الجوار من مكانه عند مستوى الشارع، ورأى مسطحًا كبيرًا مُغطى برسوم الجرافيتِّي؛ أسطح القطارات وجوانبها، القاطرات، الحاويات، السيارات الواقفة أو المتحركة عند الساحة.

على يمينه ويساره تختفي القضبان المتقاطعة داخل أنفاق معتمة لا يضيئها سوى نور أصفر شاحب.

ساحة القطارات كانت المكان الأمثل للاختباء، فبالإضافة إلى كثرة العمال، توجد الكثير من المُعدات الضخمة والآلات التي توفر مكانًا للاختباء. بينما هوبر يراقب المكان، رأى حركة من النفق على يساره، وخرجت منه قاطرة وثلاثة رجال ملوثون بالطين نزلوا منها عائدين إلى النفق، اثنان منهم يجرَّان جوالًا خلفهما. مُشردون على الأرجح وهذا مكان خطر للعيش، ولم يشك هوبر في أن هناك المزيد من المشردين يختبئون في ظلام النفق.

ولم يكن ثمة أثر لليروي واشنطن.

نظر هوبر عبر الشارع، فوجد متجرًا يبيع السجائر ومجلات البالغين، جواره عربة طعام تبيع للعمال. كلا المكانين كان في صغر حجم مقصورة هاتف ولم يكن بداخلهما مكان لتواجد الزبائن، مجرد رف للبيع خلفه البضائع مع سلاح أو اثنين في مكان يسهل للبائع الوصول إليه. عند المنعطف مقصورة هاتف، أما باقي المكان فكان عبارة عن مبانٍ عالية بلا معالم مُغطاة برسومات الجرافيتّي التي كانت ملونة قبل أن تُغطى بطبقات من الغبار والسناج والأتربة.

انتظر هوبر قليلًا فربما يظهر ليروي. نظر حوله ثم قرر أن يأخذ جولة حول المكان.
استغرقت رحلة هوبر خمس عشرة دقيقة، سار خلالها ببطء وانتباه، متوقف من حين إلى آخر ليتفقد القضبان والقاطرات من مُختلف الزوايا. المباني الأسمنتية من حوله تُشوى بحرارة الشمس ولم ينتصف النهار بعد.

عاد هوبر إلى حيث المتجر وعربة الطعام. كان هناك بعض الأشخاص حولهما الآن، ولم يكن أيَّهم ليروي.

أخرج هوبر آخر سجائره من جيبه. تنهد ونظر حوله مرة أخرى، ثم توجه نحو المتجر واشترى علبة سجائر، وبينما ينتظر أن يناوله البائع باقي المال، راح يتفحص رف المجلات. جوار المجلة التي تحمل على غلافها صورة عارضة ترتدي لباس السباحة مُعانقة بالونًا على هيئة رأس أرنب، فوجئ هوبر بنسخة عن مجلة التايمز، عنوانها بالخط العريض: "وها قد جاء الصيف".

قال هوبر مشيرًا إلى المجلة وهو يمد يده ليأخذ الدولارات المُدهنة التي يعطيها له البائع:

- هل كان على أحدهم أن يُبلغنا بما نعرف؟

لم يكن الرجل في مزاجٍ للحديث، فأجاب سؤاله بتقطيبة. شكره هوبر وعاد إلى الرصيف، واضعًا العلبة الجديدة في جيبه، مُخرجًا آخر سيجارة من العلبة القديمة. سار نحو مقصورة الهاتف. هبَّت نسمة هواء نافخةً حر الصيف في وجهه. وقف خلف المقصورة محتميًا منها كي يستطيع إشعال سيجارته، ثم وقف يمتص الدخان منها في نهم.

انتظر بما يكفي، فقد كان في المكان الذي أراده ليروي أن يكون فيه، لكنه لم يظهر. ربما خاف وهرب، ربما ألقى رجال عصابة الأفاعي القبض عليه.. العصابة التي يحاول الفرار منها.

ربما كان كل هذا خُدعة. عصابة شوارع من عبدة الشيطان؟ رجل يسمي نفسه القديس جون يحاول أن يستدعي الشيطان ذاته إلى نيويورك؟ بخلاف بطاقة زينر، فحكاية ليروي كلها هراء.

أنهى هوبر سيجارته، وبدأ في التحرك. حتى بدون المعلومات التي أدلى بها ليروي، فلديه الكثير ليخبر به النقيب، خاصة بعد عودة ديلجادو من لقاء ليزا سارجيسون وقراءتها لملاحظته التي تركها لها.

كان طريق العودة إلى القسم طويلًا، فقرر أن يتصل بديلجادو ليرى إن كانت قد عادت أو لديها أخبار عاجلة. خطر في باله كذلك أن ليروي ربما يكون قد اتصل مرة أخرى ليخبرهم بمكان أو موعد جديد.

سمع هوبر هدير مُحرك آتيًا من نهاية الشارع، نظر هوبر فوجد الشمس تنعكس على الجوانب المعدنية لحافلة نقل بضائع هيئة البريد الأمريكية. ولم يلُمهم هوبر على تعجلهم لإنهاء مهامهم في المنطقة البائسة.

دار هوبر إلى الجهة الأخرى من مقصورة الهاتف كي يجري مكالمته حين اكتشف أن بعض الأوغاد قد انتزعوه من مكانه، مُخلِّفين رسم جرافيتي مزدانًا بأعقاب السجائر المُطفأة، وجريدة قديمة.

زاد صوت محرك الحافلة، ثم علا صوت صراخ عجلات وتصاعدت رائحة وقود الديزل من ماسورة العادم ورائحة المطاط المُحترق. نظر هوبر ليجد الحافلة قد صعدت مائلةً على الرصيف جوار المتجر. خرج منها خمسة أشخاص، فهم هوبر من اندفاعهم نحوه ما سيحدث، فسقطت منه علبة سجائره وانطلق يعدو مبتعدًا.

لم يكن هوبر رجلًا ضئيل الحجم، لكن الخمسة الذين يعدون خلفه ضخام الأجساد كلاعبي كرة القدم الأمريكية. كانوا يرتدون مجموعة غريبة من الثياب الرياضية؛ سراويل جري رمادية، وسراويل زرقاء وحمراء وقمصانًا صفراء مفرودة على عضلات ضخمة. لكن ما أخافه هي أقنعة التزلج التي كانوا يرتدونها، أقنعة سوداء بلا فتحات للفم أو الأنف، فقط خمسة أزواج من الأعين الغاضبة تحدق إليه.

دار هوبر على عقبيه، شاعرًا أن الهواء صار سميكًا، والرصيف زلقًا. شعر بأيدٍ تمسك كتفه، فتملص منها تاركًا سترته لمن يقبض عليها. لكن زاوية هروبه كانت خاطئة، وتعثر هوبر، فاستند بأصابعه إلى الرصيف واستغل تعثره في الانطلاق كعداءٍ عند بداية المضمار.

كان قد فقد الكثير من الوقت بالفعل، وقد أمسك شخص ذراعه الأيسر وجُذب خلفًا، فكاد تغيير الاتجاه المفاجئ أن يخلع كتفه. جزَّ هوبر على أسنانه والتفت إلى الخلف مستخدمًا اليد التي تقبض عليه كمرساة، وكور قبضته الأخرى مُطوحًا إياها نحو مُهاجمه، فأصابته في صدره، لكن لَكم رجل كهذا كان كلَكم شجرة. شعر هوبر بألم حاد يمزق مفاصل أصابعه وينتشر حتى رسغه الذي انثنى في اتجاه خطر. حاول أن يجذب نفسه ويستعيد توازنه، لكنه بهذا كشف معدته ليضربه أحد المهاجمين بقبضة فولاذية بحجم خنزير عيد الميلاد فجَّرت الهواء من رئتيه. شعر ببلعومه يمتلئ بعصارة معدته، فبصق بصقة حمضية حارة، بينما الألم يمتد إلى أنحاء بطنه ويشع إلى كامل جسده كأنه ضُرب بكابل كهرباء.

تهاوى هوبر وقد فقد قوته، ركلوه مرة واثنتين وثلاثًا، ثم جذبوه من ساقيه. تلقى ضربة أخرى على مؤخرة عنقه أسدلت ستارًا من نجوم سوداء أمام عينيه. آخر ما رآه هوبر: الرجال يجذبونه إلى الحافلة الفضية، وبائع السجائر واقفًا عاقدًا ذراعيه، مستمتعًا بما يرى، غير عازم على تحريك ساكنٍ.

الفصل الرابع عشر

ماضي ليزا سارجيسون الخفي

٧ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك.

وقفت ديلجادو في منتصف حجرة المعيشة، مُجيلة نظرها في أرجاء المكان وديكوراته، بعد أن طلبت منها ليزا سارجيسون أن تتعامل وكأنها في بيتها.

شكرتها ديلجادو وتوجهت نحو مكتبة ضخمة تُبطِّن أغلب ما تتيحه الشقة الصغيرة من حوائط.

- آسفة لإزعاجك، لكني آمل ألا آخذ من وقتك الكثير.

حركت ديلجادو رأسها لتقرأ عناوين الكتب المُتماثلة ذات الغلاف الجلدي التي تشغل الرف أمامها. *دورية الأكاديمية الأمريكية لعلم النفس والقانون*. مُجلدات الدورية التي تغطي الأعوام من 1973 إلى 1976 تملأ رفًا كاملًا.

صدح صوت ضحكات من مكان آخر من الشقة، ثم قالت ليزا:

- أنا التي وجب عليها الاعتذار. لقد وصلت للتو، فقد تأخرت في عملي.

نظرت ديلجادو إلى الرف التالي، لم يكن عليه كُتب مُتشابهة كسابقه، بل مجموعات من كتب مختلفة؛ الطبعة الخامسة - مبادئ علم النفس. التقييم العملي لتحليل الحالات: الجزء الثاني، داخل عقل الإنسان.

مرَّرت ديلجادو إصبعها على أكثر من دستة كتب مشابهة، وبالنظر إلى باقي حوائط الشقة، فباقي الكتب لا تخرج عن كونها مجلدات، ودوريات، وكتب أكاديمية. لكن ديلجادو رأت رفًّا واحدًا يحوي روايات آثر س. كلارك، وأورسولا ك. ليجوين بالقرب من الأريكة التي تحتل ما أمام نافذة عملاقة على الجانب الآخر من الحجرة. أمام تلك الكتب ثمة قيود حديدية

وحبل من الريش الملون مكوم على هيئة كرة. أداتان مما تستخدمه ليزا في عروضها السحرية.

سارت المحققة نحو النافذة، مُستمتعة بالشمس الداخلة منها.

- كما قلت، آمل ألا آخذ من وقتك الكثير...

عادت ليزا وقد غيرت ملابس عروض السحر؛ قبعة وبنطالًا ضيقًا، وارتدت فستانًا منقوشًا بأزهار حمراء وصفراء، وانتعلت حذاءين جلديين بُنيين.

- أنا مسرورة لتقديم المساعدة.

ارتدت ليزا خاتمًا خاصًّا يتلون بتغيير مزاج مُرتديه، ثم رأت ديلجادو تنظر إليها من أعلى إلى أسفل فضحكت هاتفة:

- تغير حاد، أعرف. لكنني لن أظهر أمام الناس مرتدية جوارب شبكية.

جلست على الكرسي الوثير المجاور للنافذة، فاردة فستانها من تحتها.

- تفضلي.

ابتسمت ديلجادو ولبَّت الدعوة. جلست وعيناها مُعلقتان بأرفف الكتب وهي تقول:

- يجب أن أعترف أنني لم أتوقع هذا.

ضحكت ليزا وقالت:

- لا أعرف ماذا أخبرك شريكك عني، لكن قراءة الطالع وممارسة الحيل السحرية ليست وظيفة كافية هذه الأيام.

أمالت ديلجادو رأسها وقالت:

- إذًا، ما هو عملك بالضبط حين لا تمارسين الحيل السحرية؟ لديك كتب هنا أكثر مما في فرع مكتبة نيويورك العامة القريب من داري.

- صدقي أو لا تصدقي أيتها المحققة، فأنا مُختصَّة وحاصلة على شهادة مُعتمدة في علم النفس الإكلينيكي.

دارت في كرسيها كي تستطيع أن تصل إلى الرف خلفها، وجذبت كتابًا ذا غلاف جلدي وناولته للمحققة.

تناولته ديلجادو غير واثقة مما بين يديها. كان الغلاف الجلدي صلبًا أسود، والكتابة عليه منقوشة باللون الفضي.

"تحديات اجتماعية لإعادة هيكلة علم النفس: نماذج لإعادة الإدماج المجتمعي - التحليل البعدي التاريخي والمنهجية العملية".

أكملت ديلجادو قراءتها للغلاف.

"رسالة دكتوراة، ليزا سارجيسون، قسم علم النفس، جامعة ميسكاتونيك، ماساتشوسيتس».

نظرت إلى ليزا وقالت:

- تحملين شهادة دكتوراة في علم النفس؟

- دكتوراة في الفلسفة، وعلم النفس الإكلينيكي والإجرامي 1974.

أومأت ديلجادو وشرعت تُقلب بين الصفحات المُتخمة بالعبارات والرسوم البيانية. قالت وهي تغلق الكتاب وتُعيده لصاحبته:

- أتعرفين، حصلت على ميدالية ذهبية في السباحة حين كنت في الصف التاسع. المسافة طويلة بين علم النفس الإجرامي والعروض السحرية.

قالتها وهي تنظر نحو القبعة الموضوعة حيث تركتها ليزا على الطاولة.

- وضعي أقرب للحالة الشائعة حين يظن المرء أنه يعرف ماذا يريد، ويقضي وقتًا كبيرًا في الوصول إليه، فقط...

رفعت ديلجادو حاجبًا مُتسائلةً:

- فقط؟

- فقط حين يصل المرء إلى غايته، لا يجدها على قدر ما ظنه فيها.

- لم تُعجبك الحياة الأكاديمية؟

- لم تكن حياة مناسبة لي كما أخشى. قضيت وقتًا طويلًا ساعية لها، وفي الوقت الذي أنهيت فيها كتابي هذا.

ورفعت الكتاب بين يديها وأردفت:

- لم أطق صبرًا حتى أهرب.

- وما الذي أتى بك إلى نيويورك؟

- عملي. ثمة مكان يدعى معهد روكوود، مركز تأهيلي للسجناء الفيدراليين قبل إطلاق سراحهم. بالطبع لا نتحدث عن عُتاة المجرمين، بل أولئك الذين قضوا فترة عقوبتهم

القصيرة. هل يمكنك تصديق أن شخصًا في السجن الفيدرالي فكر في أنه لا يصح إلقاء هؤلاء المساجين في الشارع بعد إطلاق سراحهم، وأنهم بحاجة إلى تأهيل يُدمجهم في المجتمع مرة أخرى؟ تفكير عظيم، فلو لم نؤهلهم أو نقدم لهم أي نوع من العون ماذا سيفعلون؟ سيعودون إلى تلك الممارسات التي أفضت بهم إلى السجن في البداية. المعهد يساعدهم ويعلمهم كيف يعيشون حياة عادية، ويندمجون وسط الناس فينخفض مُعدَّل النكوص والعودة إلى الجريمة هكذا!

وفرقعت ليزا بأصابعها. أومأت ديلجادو وقالت:

- كلام عاقل.

- أليس كذلك؟ وكان هذا مكانًا ملائمًا لي.. أعني، رسالة الدكتوراة التي كتبتها كانت في هذا المجال تحديدًا. فعلت الحكومة الفيدرالية ما عليها فعله حين أقامت هذا المعهد، واعتمدوا على رسالتي كجزء من أبحاثهم، ومنحوني وظيفة.

- رائع!

ثم توقفت مقطبة جبينها مُضيفة:

- وما زلت تعملين في هذا المكان حتى الآن؟

- كلا، أُغلِقَ المعهد منذ عام. ربما.. كان هذا خطأي مع أني كنت أرى النهاية تقترب.

- ماذا حدث ولماذا أغلقوه؟

ضحكت ليزا وقالت:

- أهلا بك في مدينة نيويورك! ما السبب في اعتقادك؟ المال بالطبع. على العموم لم تكن الأمور تسير على ما يرام. حين عُرضَت عليّ الوظيفة قالوا لي أنني سأشترك في برنامج

قائم بالفعل، وحين بدأت العمل لم أجد شيئًا. صدقًا، لم أجد أي شيء! كانوا يتوقعون أن أعيد أنا تشغيل المكان.

- تمزحين!

- لا تُسيئي فهمي، لقد كنت قادرة على تحمل مسئولية وظيفتي مع فريق ممتاز في المعهد، لكن مع الوقت اتضح أن أكثر شيء أحتاجه كي أقوم بعملي لم يكن موجودًا؛ التمويل! لا أعرف ماذا كانوا يتوقعون، لكنني في النهاية لم أقدر على فعل ما يريدون مني، فاستقلت.

- استقلتِ؟

- خرجت من الباب مباشرة. كنت قد فهمت وقتها ما يجري بالفعل في المدينة. روكوود كان مكانًا عظيمًا لكن لم تكن ثمة طريقة ليقوم بما عليه القيام به دون تمويل. كنت أضيع وقتي، وقتي الذي كان في مقدوري إمضاؤه في مساعدة الناس حقًّا.

ابتسمت ديلجادو وسألتها:

- مساعدة الناس بالعروض السحرية؟

ضحكت ليزا وقالت:

- بالعروض السحرية، والاستشارات التأهيلية لو سمحتِ!

مالت نحو الطاولة وأمسكت بالقبعة الطويلة وراحت تقذفها على ذراعيها في حركات استعراضية قبل أن تعيدها مقلوبة إلى مكانها.

- حين كنت في الجامعة، كنت أعمل كمساعدة ساحر مسرح، وكنت أدفع من عملي هذا فواتيري. كان عملًا مُسليًا لا يُقارن بالعمل كنادلة في مطعم مثلًا. الناس يحبون الحيل السحرية الجيدة.

رفعت ليزا مجلة من على الأرض جوار الأريكة، وفتحتها على صفحةٍ داخلية، ثم ناولتها للمحققة.

- انظري إلى العمود في المنتصف، النصف السفلي من الصفحة.

نظرت ديلجادو إلى حيث أشارت ليزا؛ الإعلانات. وقرأت بصوت عالٍ:

- السحر. سحرة.. لجميع المناسبات.. أسعار مناسبة. ليزا.

ثم تلا الإعلان رقم هاتف. قلَّبت ديلجادو الصفحات لتكتشف أنها تحمل نسخة من مجلة نيويورك، غلافها عليه صورة رجل في منتصف العمر يرتدي بذلة، ويصب النبيذ في كؤوس ثلاثة رجال آخرين، أوسطهم يحمل جائزة على شكل نموذج سيارة ذهبية.

أعادت ديلجادو المجلة إلى ليزا، فقالت الأخيرة:

- على أي حال، حين ساءت الأحوال في روكوود، عُدت إلى العمل في العروض المسرحية كي أستطيع أن أعتني بعملي الحقيقي.

- وهو...؟

لفَّت ليزا المجلة حول نفسها ودسَّتها داخل القبعة وقالت:

- كما قلتُ لك، الاستشارات التأهيلية. أقرب عمل لما أردت تنفيذه من خلال روكوود. حين تركت العمل في المعهد، فكرت في أن أنشئ معهدًا خاصًّا بي، ثم وجدت منظمة خيرية تؤدي نفس الدور، لذا عرضت عليها خدماتي. المال الذي يدفعونه قليل، فاضطررت للعودة إلى ارتداء القبعة وقراءة الطالع والاعتماد على من يستأجرني!

- لكن ألم تكن المشكلة مع روكوود نقص التمويل؟

- أجل، لكن روكوود كان ترسًا في ماكينة فيدرالية عملاقة. بالطبع كان لديه مزايا، لكن أي بحث فيه كان يتطلب ميزانية معقولة. يبدو أن هذه هي الطريقة التي تُدار بها الحكومة المركزية. العمل الخيري يختلف.. عاملون أقل، موارد أقل، لكن في وسعنا خدمة المدينة بأكملها. بالطبع مجالنا ضيق، وكذلك أهدافنا، لكنني أشعر أننا نقدم شيئًا بالفعل.. نساعد أولئك المحتاجين. حتى الآن نتائجنا جيدة، وأرى أننا نصنع فارقًا. ربما كان ما نقدمه قليلًا لكنه فعال ومُوجَّه.

وجدت ديلجادو نفسها تومئ موافقةً. نظرت ليزا إلى الساعة على الحائط وقالت:

- معذرة، لقد ضاع منا وقت طويل.

فتحت ديلجادو حقيبتها وأخرجت منها ملفًّا سميكًا، فتحته مُسندة إياه إلى فخذيها، عارضةً مجموعة من الصور الكبيرة اللامعة بالأبيض والأسود تُظهر البطاقات الغريبة في مسارح الجريمة الثلاثة التي كانت وشريكها يحققان فيها حتى وقت قريب. مرفق بكل بطاقة مسطرة توضع أبعادها.

- كنا نأمل في أن تخبرينا شيئًا عن تلك البطاقات. أعتقد أنها تسمى بطاقات زينر؟

وضعت ديلجادو الصور على المنضدة؛ صور الدائرة المُفرعة والصليب وثلاثة خطوط مموجة متوازية. نظرت ليزا إلى الصور من فوق القبعة المجاورة لهم وقالت:

- هذا صحيح. هذه صور ثلاث بطاقات من أصل خمس.

أومأت ديلجادو وأخرجت مفكرتها وقالت:

- لدينا بطاقة رابعة؛ نجمة خماسية.

اقتربت ليزا من الصور أكثر وسألت:

- هل هي مرسومة يدويًّا؟

- نعتقد ذلك. شخص واحد رسمها جميعًا. لم يُخلِّف أية بصمات. نؤمن أنه تركها لسبب مُعين، وكنا نأمل في معرفة المزيد عنها منك.

رفعت ليزا حاجبها وقالت:

- تقولين أن أحدهم قد ترك تلك البطاقات في مسرح جريمة؟ أي نوع من الجرائم كانت؟

- أخشى أنني لا أستطيع إخبارك. لكن إن استطعت إخبارنا بشيء عن هذه البطاقات، ستكونين قد قدمتِ مساعدة عظيمة.

تراجعت ليزا في كرسيها وقالت:

- بالتأكيد. بطاقات زينَر تُستخدم في.. أو بالأحرى كانت تُستخدم في اختبارات القدرات على الاستبصار.

- الاستبصار؟

أومأت ليزا، فأردفت ديلجادو:

- مثل ماذا؟ التخاطر؟ قراءة العقول؟

- في العادة يُطلق عليها داخل الدوائر العلمية: قدرات الإدراك الفائق للحواس.

وضعت ديلجادو قلمها جانبًا وقالت:

- دوائر علمية؟ هل أنت جادَّة؟

- بكل تأكيد. أعني أننا نتحدث عن أمور كانت تحدث منذ ما يقرب من الأربعين عامًا. ابتكر تلك البطاقات عالم النفس كارل زينَر في الثلاثينيات. الفكرة أنهم كانوا يأخذون خمسًا وعشرين بطاقة، خمس بطاقات من كل رمز، ويخلطونها، ويعرضون كلًّا منها مقلوبة أمام الحالة محل البحث، وعليها أن تخبرهم أي رمز على البطاقة.

دوَّنت ديلجادو ما قيل ثم سألت:

- وهذا كل شيء؟

- المفترض أن الاختبار بسيط، لكن المشكلة أنه كان بسيطًا زيادة عن اللازم. نشر زينَر أبحاثًا تزعم أن القدرات الفائقة للحواس تؤثر على النتائج، لكن أحدًا لم يستطع أن يكرر التجارب. ثم أن هناك عوامل تسبب الالتباس، فخلط الأوراق بشكل سيئ قد يسهل عملية التنبؤ بمحتواها. قد ترى الحالة الرموز منعكسة في عيني من يختبرها. ما أن راعوا تلك العوامل، زالت النتائج المزعومة.

نظرت ديلجادو إلى البطاقات وسألت:

- لكن البطاقات ما زالت موجودة؟ أعني، هل ما زال يستخدمها أحد؟

- أوه، أجل. في علوم ما وراء علم النفس.

- ما وراء.. علم النفس؟

- ما وراء علم النفس. ما وراء النظرة العادية لعلم النفس.

- مثل التخاطر؟

- مثل التخاطر. المهم أن كانت تلك الأمور حقيقية أم لا، فبعض علماء النفس يعتقدون أن من المفيد دراسة ردود أفعال الناس وتعاملها مع أمور كهذه. لذا، فبعض فبطاقات زينَر ما زالت مُستخدمة.

- هل كنت تستخدمينها في الجامعة؟

هزت ليزا رأسها وقالت:

- كلا،علم نفس الجريمة يتمحور حول دراسة السلوك الغريب لا الغرائبي. لكن بعض الباحثين في القسم يديرون ناديًا لما وراء علم النفس مع بعض الخريجين، من أجل التلسية لا أكثر. كنت أساعدهم من وقت لآخر وأجرينا بعض الاختبارات باستخدام بطاقات زينر، لكننا لم نأخذ شيئًا على محمل الجد.

أنهت ديلجادو تدوين ملاحظاتها ثم أشارت بطرف قلمها إلى الصور وقالت:

- هذه البطاقات لا تعني شيئًا خارج اختبارات زينَر؟ الرموز لا تعني شيئًا في حد ذاتها؟

- كلا. هذا هو استخدام البطاقات الوحيد. صُممت العلامات لتكون بسيطة سهل التعرف عليها.

- وتقولين أن هناك خمسة رموز؟

- صحيح، الثلاثة في الصور، والنجمة التي ذكرتها، والخامسة مربع. انتظري لحظة.

قامت ليزا من كرسيها متوجهة نحو المكتبة المُقابلة لديلجادو، ومن رفٍ سُفلي أخرجت صندوقًا يحمل شعار جامعة ميسكاتونيك ووضعته على الطاولة وفتحته باحثة بين الأوراق عن مجموعة بطاقات مربوطة بشريط مطاطي.

أزالت ليزا الرباط وهي تقول:

- كنت أعرف أنها ما زالت في حوزتي. دائرة، نجمة، صليب، خطوط متوازية.. وها هي ذي.

ثم أخرجت البطاقة التي تحمل رمز المربع وأعطتها لديلجادو. كانت أكبر حجمًا من بطاقات اللعب العادية، مصنوعة من ورق مقوى لامع مُستدير الحواف. قلبت المحققة البطاقة لتجد على ظهرها اسم صانعها ومكانه؛ سينسينَّاتي، أوهايو.

- هل تصنع تلك البطاقات بشكل تجاري؟

أغلقت ليزا الصندوق وأعادته إلى المكتبة وهي تقول:

- بالتأكيد. كما أخبرتك فبطاقات زينر ما زالت مستخدمة ومتوافرة في متاجر نيويورك، لكن تلك التي معك مصنوعة يدويًّا.

- أجل، والمتاجر التي تبيعها وتبيع الحبر المرسومة به لا تزيد على متجرين في المدينة.

نظرت ليزا إلى ساعتها وقالت:

- معذرة، لكن عليَّ أن...

أومأت ديلجادو وأعادت دفترها وقلمها إلى حقيبتها، ورفعت بطاقة ليزا سائلة:

- هل يمكن أن أحتفظ بها؟

- بالتأكيد. لقد ظلت في هذا الصندوق لثلاث سنوات، ولا أظنني سأجري تجارب زينَر الخاصة بي.

- شكرًا لك، ولما قدمته من معلومات.

- هل تظنين أنها ستساعدكم؟

- لا أعرف. ما يهمني أنني قد عرفت أكثر مما كنت أعرفه حين جئتك، وأعتبر هذا مكسبًا. أين ستذهبين؟ يمكنني توصيلك فقد أخَّرتك بما فيه الكفاية.

- لن أرفض عرضًا كهذا!

قادتها ليزا إلى الباب، ثم أغلقته من خلفهما. أخبرت ديلجادو بالعنوان وهي تسير عبر الرواق، لكن ديلجادو لم تتبعها وظلت تفكر في العنوان الذي أعطتها إياه ليزا. التفتت الأخيرة عند نهاية الرواق وهتفت:

- هل أنت بخير؟

- أجل، لا مشكلة.

ابتسمت ليزا وأكملت سيرها تتبعها ديلجادو، تتسارع الأفكار في عقلها وهي تعيد العنوان في ذهنها مرات ومرات.

18 شارع دوبيوس. كنيسة ميثودية قديمة، تُستخدم قاعتها لإقامة الاجتماعات والمناسبات الصغيرة، وجلسات التأهيل الخاصة بليزا.

وكانت الكنيسة هي ثاني عنوان كتبه العميل خاص جايكوب هويلر في قائمته.

٢٦ ديسمبر ١٩٨٤
كوخ هوبر
هوكينز، إنديانا

- حصلت ديلجادو على بطاقة؟

توقف هوبر في منتصف حكايته وقال:

- أجل، لكنها لم تكن واحدة من بطاقات مسرح الجريمة، لكن ليزا أعطتها بطاقة تحمل الرمز الذي لم نقابله بعد.

قبضت على شعرها المموج بكلتا يديها وقالت:

- هي التالية!

رفع هوبر كفيه أمامه مُهدئًا إيل هاتفًا:

- مهلًا.. كلا! لم يكن معها نفس نوعية البطاقات التي يستخدمها القاتل. لا تقفزي إلى استنتاجات كهذه. لم أنهِ قصتي بعد.

تباطأ تنفس إيل وتركت شعرها وهوت بيديها على الطاولة.

- ديلجادو بخير؟

ضحك هوبر وقال:

- ماذا؟ هل قلقت لأن ديلجادو حصلت على بطاقة، ولم تقلقي لأني خُطفت في وضح النهار؟

- أنت هنا وبخير، هل ديلجادو بخير؟

- كانت بخير، ثقي بي.

- وهل هي بخير *الآن*؟

حك ذقنه وابتسامة تتلاعب على شفتيه وقال:

- بالتأكيد. هي بخير وتعيش في العاصمة واشنطن.

- واشنطن؟

- أجل، كانت شرطية ماهرة، ومحققة أكثر مهارة. بعد انتهاء القضية بعام طلبها جالوب للعمل في وكالته. لم أسمع منها منذ وقت، لكنها تواظب على إرسال بطاقة تهنئة بعيد الميلاد في كل عام.

هزت إيل رأسها مُضيقة عينيها. شكلت شفتاها بداية سؤال لكنها لم تنطق وكأنها لا تعرف عمَّ تسأل كبداية. ضحك هوبر وقال:

- أتعرفين؟ أنت تُذكرينني بها بشكل غريب.

تنهدت إيل ثم ابتسمت ابتسامة صغيرة. أردف هوبر:

- على ذكر العميل الخاص جالوب، من الأفضل أن أخبرك بما حدث لاحقًا.

الفصل الخامس عشر

العرض

٧ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

كانت رحلة هوبر قصيرة، لكنها لم تكن جيدة.

بمجرد أن دسُّوه في السيارة قيدوا يديه وغطوا رأسه بجوال خشن ظل يخدش وجهه. لم يكن قادرًا على الإبقاء على اتزانه بينما يداه مقيدتان من خلفه، وبدا أن الرجال مسرورون بتأرجحه المستمر وتخبطه في أرجاء السيارة. مع كل انعطاف كان هوبر يتدحرج مصطدمًا بالجوانب الداخلية، ومع كل توقفٍ كان يُقذف أمامًا تجاه الباب الأمامي.

كانت طريقة قديمة فعالة لكسر مقاومته، وقد رأى هوبر شرطة نيويورك يتبعونها. ظل في عذابه لما يقارب الساعة، أو أكثر. والآن هوبر يجلس على أرضية أسمنتية باردة، يحيط بصره الجوال الخشن. يئس من جدوى الصراخ، فقد كان وحيدًا في الحجرة وكل ما سيفعله الصراخ هو تمزيق حنجرته.

جلس مُفكرًا في وضعه، يحرك قدميه بين الفينة والأخرى كي لا ينام. كان صبورًا وظل ينتظر عودتهم.

سرعان ما جاء أحدهم. سمع صوت حركة معدن ثقيل حين فُتِح الباب، ودوى صوت خطوات. أنصت هوبر. كان في مكان غريب، ربما مخزن أو مستودع حول محطة قطارات الشحن.

بدأ أحدهم في قول شيء، لكن المحادثة قُطِعت قبل أن تبدأ. ثم سمع هوبر صوت قبضة تصطدم في جسد، ثم دفقة هواء من فم أي مَن تلقى الضربة، ثم سمع صوت شخص يتهاوى بعدها اصطدم به دافعًا إياه جانبًا. لقد ألقوا شخصًا آخر إلى جواره.

استدار هوبر حين انغلق الباب المعدني، وشعر بالسجين جواره يركل في محاولة للجلوس. صاح هوبر:

- مهلًا!

توقف السجين عن الحركة لثوانٍ، ثم سمعه يقوم واقفًا. حاول هوبر تحرير يديه ودس جسده خلالهما بحيث تكون يداه أمامه لا خلفه.

ثم رُفع الجوال عن رأسه.

رمش هوبر، وراح يسعل إذ تطاير الغبار حول رأسه إثر رفع الجوال السريع.

- لقد قبضوا عليك أنت الآخر يا رجل!

وقف ليروي واشنطن أمامه باسمًا غير مُقيد، تنزف شفته السفلى من جرح جديد. حدق إليه هوبر متسائلًا:

- ليروي؟ ماذا يحدث بحق الجحيم؟!

اعتدل هوبر ورفع قيوده ليراها ليروي مُردفًا:

- حل وثاقي ولنخرج من هنا.

ركع ليروي محاولًا فك قيد هوبر وقال:

- لا فكرة لدي عما يحدث يا رجل. لا أعرف أين نكون، أو من يكونون. كل ما أعرفه أنني كنت أنتظرك كما اتفقنا، وقد لمحتك من بعيد. دُرت بنظري كي أتأكد أن المكان خالٍ، لأجدهم قد أمسكوا بك. لم يكن في يدي شيء أفعله. ثم...

تحرَّرت يدا هوبر أخيرًا، وقف ليوري ممسكًا حبلًا أصفر اللون بين يديه، ثم وقف هوبر بدوره فاركًا رُسغيه، ناظرًا إلى رفيقه.

- ثم ماذا؟

خَبَت ابتسامة ليروي. راح يقلب الحبل بين يديه وهو يقول:

- أعتقد أنهم كانوا يراقبونني بينما أنتظرك. التفت خلفي و.. هوب! وها أنا هنا.

أومأ هوبر، من الممكن أن يكون ليروي كاذبًا، وأن كل هذا فخ للإيقاع به. لكن شيئًا بداخله كان يخبره أن فتى العصابات يقول الحقيقة. تذكر كيف بدا صوته عبر الهاتف، والخوف البدائي الوحشي الذي تملَّكه.

ذرع هوبر الحجرة وهو يفرك رُسغيه، باحثًا عن أي شيء يدل على مكانهما. لم يتطلب الأمر مجهودًا كبيرًا، فقد كانت الحجرة مُربعة صغيرة، ذات باب أخضر ثقيل مُدعم بآلية غلق مُعقدة مكونة من قضبان رأسية وأفقية، بدت أكثر تعقيدًا مما يستوجب الأمر. من السقف تتدلى مصابيح الفلورسنت.

لكن الغريب هو أمر تلك الأجولة القماشية الممتلئة التي تشبه أكياس الملاكمة، المستندة إلى الحوائط، والمربوطة من أعلى بنفس الحبل الأصفر الذين أوثقوه به، ومثبتة إلى حلقات معدنية كبيرة. ثم رأى هوبر أكوامًا من الأجولة المطوية عند الباب، وكلها متشابهة تحمل رسم نسر باللون الأزرق يماثل ذلك الذي كان مطبوعًا على جانب الشاحنة التي أقلَّت هوبر إلى هنا.

بدأت آلية غلق الباب في العمل، فتراجع هوبر وليروي حين دخل رجلان ضخمان. لم يكن زيهما رياضيًّا أو يضعان على وجهيهما قناع التزلج، لكن هوبر شعر أنه تعرَّف عليهما من الشجار عند متجر السجائر.

شعر هوبر بليروي يتوتر إذ وقفا وظهراهما إلى أجولة البريد، نظر إليه فوجده يرتجف حرفيًا كورقة.

تحرك الرجلان الضخمان كلٌّ إلى ناحية من ناحيتي الباب، وأكفهما متشابكة أمامها. بعد لحظات دخل ثالث، وكان يرتدي بذلة زرقاء، وبدا قزمًا مقارنة بتابعيه العملاقين.

شعر هوبر بكل عضلات جسده تتصلب حين ابتسم العميل جالوب ابتسامته المعهودة وقال لهما:

- المحقق هوبر، سيد واشنطن. سعيد أنكما انضممتما إلينا.

- يا ابن الـ...

لم يقدر هوبر على التحكم في لسانه، كور قبضتيه واندفع نحو الرجل يتطاير اللعاب من فمه في غضب. لوهلة ظن أنه قد تغلَّب عليه، وفي لحظة وجد أحد العملاقين يحمله من تحت إبطيه ويسحبه إلى الخلف بعيدًا عن رئيسه. راح هوبر يركل بكل ما أوتي من قوة، وشعر كأنما يتصارع مع شجرة بلوط. ألقى العملاق هوبر نحو أجولة البريد ووقف جواره مُستعدًا لمنعه من الهجوم مرة أخرى.

تنفس هوبر بصعوبة وهو يمسح فمه بظهر كفه، وقد فهم قوة خصمه. هتف:

- أتعرف؟ حين زعمت أنك تعمل لدى هيئة فيدرالية، لم أتوقع أن تكون هيئة البريد. لا أتعجب أنك لم تذكر تفصيلة كتلك.

اتسعت ابتسامة جالوب لوهلة، قبل أن يقول:

- ما زالت تفاصيل الهيئة التي أعمل بها سرية، لكنك لن تصدق التسهيلات التي يمكن أن تقدمها هيئة البريد الأمريكية لأصحاب السلطات.

قام هوبر واقفًا، ثم نظر جانبًا إلى ليروي وقال:

- إذًا فهو لم يكن ساعي البريد.

نظر إليه ليروي، وعيناه متسعتان رعبًا. قطب هوبر جبينه، لكن رد فعل الشاب أكد إحساسه بأنه مجرد سجين مثله، وقصته حقيقية. إلقاء القبض عليه بعد لحظات من اختطاف هوبر يعني أن هاتف الأخير في القسم كان مُراقبًا، وكذا هاتف ديلجادوعلى الأغلب. لا عجب أن العملاء قد أمضوا وقتًا أطول من اللازم في جمع ملفات القضية من المكتب.

أعاد هوبر نظره إلى جالوب وقال كأنما يبصق في وجه الرجل:

- اسمع، أيها *العميل الخاص*، أنا محقق من شرطة مدينة نيويورك، القسم رقم خمس وستون، وأنت في مشكلة كُبرى؛ فقد اختطفت لتوك رجل شرطة، و...

ونظر نحو ليروي مُردفًا:

- وشاهدًا تحت الحماية. لا أعرف نوع السلطة التي تظن أنك تمتلكها، لكني سأمنحك فرصة. إما أن تتركنا نرحل، أو تفسر الأمر لمفوض الشرطة ورئيس المُحققين. أكلامي واضح؟

ساد الصمت مخزن هيئة البريد. سلَّط حارسا جالوب أعينهما على وجه هوبر، لكنهما لم يتحركا أو يصدرا أي صوت. استطاع هوبر سماع لهاث ليروي من خلفه حيث تكوم جوار أجولة البريد، وأمامه وقف جالوب مُتشاغلًا في تنسيق إسورتي قميصه، ثم فتَح سُترته ناظرًا إلى السقف وقال:

- إلهي، الجو حار جدًا هنا. لا أعتقد أن البريد يحتاج إلى مُكيف هواء.

غامر هوبر بالتقدم خطوة نحو جالوب، فوضع العملاق الذي أمسكه من قبل يده عليه، دافعًا قبضته الأخرى إلى صدره. دفع هوبر نفسه بدوره إلى القبضة في تحدٍ، وكانت قوة الرجل

لا تُضاهى. قال هوبر في إصرار:

- أكلامي واضح؟

ابتسم جالوب ابتسامته المثيرة للحنق مرة أخرى ونظر نحو هوبر. مرت ثوانٍ شعر فيها هوبر بقلبه يصعد إلى حلقه، والعرق يبلل ظهره. رفع جالوب رأسه بشكل عنيف كأنما صُعق بتيار كهربي، وقال:

- معذرة، لكن هل انتهيت أم ما زال لديك المزيد من هراء رجل شرطة نيويورك؟

اعتمل الغضب في صدر هوبر مرة أخرى، ولم يستطع أن يقاوم دفع جسده نحو القبضة المُثبتة إلى صدره. هذه المرة تحرك ذراع العملاق قليلًا. أردف جالوب:

- أنت مُحقٌ بالطبع.

سأله هوبر في حنق:

- مُحقٌ بصدد أي شيء بالضبط؟

- أنت لا تعرف أي سلطة أمتلكها.

نظر إلى هوبر ثم إلى ليروي مُردفًا:

- والآن أيها السادة، وقد أوضحنا الأمور، لنبدأ العمل. يبدو أن هناك سوء فهم أيها المحقق، لأنني أذكر أنني قابلتك وقابلت نقيبك منذ.. متى؟ يوم الاثنين؟

ثم نظر إلى مرافقيه وأكمل:

- أؤكد لك أنه كان أسبوعًا طويلًا حقًّا، لكنني أذكر كذلك أنني أعطيتك تعليمات بشأن قاتل البطاقات ويبدو أنك لا تعمل وفقًا لها، وأنت تعرف أن القضية صارت تحت يد السلطات

الفيدرالية، وتحت سيطرتي.

لم يهتز هوبر أمام نظرات جالوب الصارمة، فتقدم جالوب منه خطوة وعقد ذراعيه مُستكملًا حديثه:

- والآن، أعتقد أن الشرطيين أمثالك يعتبرون أنفسهم نسلًا مُقدسًا. ربما تكونون كذلك، فالسير عبر تلك الطرقات الخطرة يتطلب شجاعة نادرة تثير إعجابي. شجاعة وعزمًا. هذه صفات جيدة. ثم ظهر قاتل متسلسل في منطقتكم -وصحِّح لي إن كنت مُخطئًا أيها المُحقق- كانت تلك الجرائم الأفظع على الإطلاق، أليس كذلك؟ لم تكن تجارة مخدرات أفضت إلى قتل، ولا شجارًا بين عصابات، ولا سرقة مُسلحة أسفرت عن ضحايا. هذا رجل مُختل طليق. حاولتم التحقيق في القضية وإبقاءها بعيدًا عن معرفة العامة لأن المدينة مشغولة بمن يسمي نفسه ابن سام.

أطلق جالوب صفارة خفيضة وأردف:

- قاتلَان مُتسلسلَان! أنا من فيرمونت حيث الأشجار أكثر من البشر، وهذا ما أحبه فيها.

- حب ما تشاء.

- الحقيقة أعتقد أنها ستروق لك، فهي تشبه هويكنز، إنديانا.

وضع جالوب إصبعًا على شفتيه وقال:

- أوه، انتظر.. ربما لن تروق لك، لأنها تشبه هوكينز، إنديانا، أليس كذلك؟ كان شيئًا مفقودًا في حياتك بعد فايتنام. كم خدمت؟ جولتين، أليس كذلك؟ وقد تطوعت، وما زال داخلك شيء يدفعك للتطوع من أجل هدف أسمى. غريب أنني لا أراك.. وطنيًا؟ أراك أمريكيًا بالطبع كفطيرة تفاح، لكنك لست من طراز راية النجوم والأشرطة؟ لا أرى ذلك.

سأل هوبر بهدوء:

- هل انتهيت من واجبك المدرسي؟

أومأ جالوب إيماءة تأكيد، وقال:

- أعتقد أنني أنهيت كلامي، مع أنني أحب الحديث عن الأيام الخوالي. لنعُد إلى موضوعنا.

تنهد هوبر وتراجع خطوة للخلف، مبتعدا عن تابع جالوب، فأنزل العملاق يده عائدًا إلى وقفته العادية.

بالطبع كان هوبر مُخطئًا حين استمر في التحقيق في قضية قاتل البطاقات، كان مخطئًا هو وديلجادو حين سرقا ملف هويلر وفتشا شقته الثانية. ربما كان إقحام ليروي مصادفة، وربما لم يكن. قرر هوبر وشريكته متأخرًا للأسف تسليم كل شيء للفيدراليين، لكن الأوان قد فات.

قال هوبر:

- حسنًا.. أعترف أننا ظننا أن في وسعنا استكمال التحقيق في القضية، فكما قلت أنت أنها وقعت في نطاق عملنا، وقُتِل فيها أحد الأشخاص تحت حمايتنا. لقد تدخلنا ولم يكن علينا ذلك، لكننا كنا ننتوي تسليم كل ما عرفناه إليكم، فقد اكتشفنا بعض المعلومات التي قد تفيد التحقيق.

كتم هوبر أنفاسه. راح جالوب يحدق إليه باسمًا ابتسامته المعهودة. غامر هوبر بخطوة إلى الأمام، وهذه المرة لم يمنعه العملاق، لكنه حرك رأسه تجاه المحقق. قال هوبر:

- يمكننا مساعدة بعضنا بعضًا. قبل مقتل العميل هويلر، كنت وشريكتي نحقق في جرائم القتل السابقة له منذ أسابيع. والآن وقد عرفت أن هويلر أحد رجالك، وذو صلة بفرقة تنفيذ المهام، وقد غير هذا كل شيء. الآن أفهمك، لكن في مقدورنا المساعدة. ربما تظن أن شرطة نيويورك غير كُفأة، لكنني بارع في عملي وكذلك شريكتي. دعنا نساعدكم.

لعق هوبر شفتيه ناظرًا إلى عيني جالوب. لو استطاع إقناع العميل، فربما..

قال جالوب:

- أجل.

رمش هوبر وسأل:

- ماذا تعني؟

- لمَ تظنني قد جلبتك إلى هنا؟ أجل، ستساعدنا أيها المحقق هوبر. وكذلك السيد واشنطن. ستساعداننا. وليس لديكما أي خيار في هذا.

نظر هوبر إلى ليروي الذي كان يستمع إلى المحادثة بعينين متسعتين، ثم نظر إلى جالوب متسائلًا:

- عمَّ تتحدث؟

اختفت ابتسامة جالوب، وأقلق هذا هوبر، لكنه صار مرتاحًا إلى تعبير وجه جالوب الواضح القاسي.

- دعني أوضح الأمر. سوف تساعدني، وإن رفضت لن ترى دايان وسارة أو أيًّا ممن يهمك أمرهم مرة أخرى.

الفصل السادس عشر

الأمسية المفقودة

٧ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك.

أعادت المحققة ديلجادو سماعة الهاتف إلى مكانها، ثم نظرت إلى هاتفها. حتى الآن لم يحالفها الحظ في معرفة مكان هوبر، وأدركت أن البحث عنه يشتت تركيزها عن عملها، فمهما أرادت مشاركة أفكارها مع شريكها، فهي في النهاية محققة وقادرة على إتمام ما أوكِل إليها من مهام وحدها..

وحدها، ودون إثارة شكوك النقيب لافورنيا.

من حسن حظها فقد كان منشغلًا مع رؤسائه، فيمكنها أن تتابع عملها بحرية، بينما تنثر قضاياها الأخرى على سطح مكتبها مُتظاهرة بالعمل فيها.

خيط جديد مثل ليزا سارجيسون، التي تعمل لدى مؤسسة تأهيلية تُدار من واحد من العناوين المدونة في قائمة هويلر. بالبحث في الأمر، لم تجد ديلجادو ما يريب. فقد ذهبت إلى الكنيسة الميثودية القديمة مع ليزا، وقرأت الأسماء في دفتر الزوار. كانت مجموعة ليزا واحدة من ضمن مجموعات أخرى، فلم تكن القاعة مخصصة لمجموعة واحدة، وكذلك كانت كل قاعات الكنيسة. بعدها شاهدت ديلجادو جلسة ليزا لدقائق من خلال باب القاعة. كانت جالسة ومن حولها عدد من الرجال على مقاعد معدنية. بدا لها المشهد كحلقة دراسية.

في طريق عودتها إلى القسم، فكرت ديلجادو في كل ما خطر ببالها من نظريات واستنتاجات محاولةً حل اللغز، ثم قررت ألا تفكر في أي شيء كما اعتادت، وتترك لعقلها الباطن الاستنتاج بحرية دون سيطرة من وعيها.

عادة خطرة بالنسبة لمُحققة. لكنها كانت تعرف أنها الطريقة الوحيدة التي قد تُطلق عنان تفكيرها، كما اعتادت في تحقيقاتها السابقة.

في القسم، أدركت أن ليزا ما زالت تحتل تفكيرها. ثمة شيء يتعلق بها، وكانت متأكدة من ذلك.

لكن ما فائدة «شيء ما»؟ ماذا عن المصادفات؟

قضت باقي الأمسية في التحديق إلى قائمة عناوين هويلر، والتساؤل عن مكان هوبر، حتى جاء النقيب لافورنيا ، عاصفًا، يدفع الأبواب في دخوله فترتج مصطدمة في الحوائط خلفها، حتى دخل مكتبه وأغلق الباب وراءه بعنف.

من خلال النافذة، رأت ديلجادو النقيب يخلع سترته ويفك ربطة عنقه وهو واقف في منتصف الحجرة، قبل أن ينظر إلى حجرة المحققين وهو يفتش جيوبه بحثًا عن سيجارة.

تجمدت ديلجادو شاعرة بالحمق، رغم أن لافورنيا لن يستطيع رؤيتها على مكتبها. شعرت كأنما رآها متلبسة تعمل في قضية لا يجب عليها الاقتراب منها. قطب النقيب حاجبيه وأغلق ستائر النافذة المطلة على حجرة المحققين.

إلهي!

دسَّت ديلجادو قائمة هويلر تحت ملف، ونقلت تركيزها إلى قضية أخرى، لكن طيلة الوقت ظل اسم واحد يتردد في ذهنها.

ليزا سارجيسون.

الفصل السابع عشر

المهمة

٧ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

بدأ هوبر في دورته الخامسة حول طاولة الاجتماعات في الحجرة المخفية في عمق مبنى شرطة نيويورك. حول الطاولة جلس العميل الخاص جالوب وليروي واشنطن، وأمامهما وعاء قهوة نصف مليء إلى جوار آخر فارغ قد أنهى ثلاثتهم ما به.

راقب جالوب حركة هوبر المتوترة وهو يقول:

- هل انتهيت مما تفعل أيها المحقق؟

توقف هوبر ومرر كفه خلال شعره، ثم التفت مواجهًا العميل وقال:

- هل انتهيت؟ أتسألني هل انتهيت؟!

- أجل. لأن عليك أن تُسرع في إدراك خطورة الأمر الذي دسست نفسك فيه كي نبدأ العمل.

هز هوبر رأسه قائلًا:

- هذا جنون.

- كلا، ليس جنونًا، وأنت موقن من هذا. يمكنني أن أعيد عليك ما قلت، ربما تود أن تكتب بعض الملاحظات هذه المرة، لأنك تبدو لي قادرًا على فهم ما يمكنني فعله بك وبأصدقائك وعائلتك إن لم تتعاون معنا.

أكمل هوبر دورته وهو يقول:

- هذا جنون.

- لأنني سأدمر حياتك وحيواتهم إن لم تتعاون معنا. ولن يكون هذا ذنبي، بل ذنبك، لأن الاختيار لك.

توقف هوبر في منتصف الحجرة مُغلقًا عينيه، ومن خلف جفنيه رأى ظلالًا حمراء تتراقص. أكمل جالوب كلامه وبدا صوته على بعد ملايين الأميال من أذني هوبر:

- ستعمل مُتخفيًا تحت إمرتي، أو أنك ستختفي تمامًا، وستخسر دايان وظيفتها، وستلاحقها مصلحة الضرائب، وستخسر شقتها. وهذا بالضبط ما سيحدث مع ديلجادو. صدقني، ستكون هذه هي البداية فقط.

فتح هوبر عينيه وهتف:

- لا يمكنك فعل ذلك. لا يمكنك فعل كل هذا، وليس في وسع أحدٍ فعله.

نظر جالوب إلى ليروي وسأله:

- وما الخطأ فيما قلته يا ليروي؟ ألا يتحدث صديقك المحقق الإنجليزية؟ هل ضربه عملائي بقوة على رأسه ففقد الفهم؟

ثم نظر إلى هوبر مُردفًا:

- سأحاول معك مرة أخرى. ستتعفن في الحفرة التي سألقيك فيها، وسيتمنى كل من تعرف لو يكونون معك. أتفهمني أيها المُحقق؟

وضع هوبر يديه على الطاولة ومال نحو العميل هاتفًا:

- لا يمكنك فعل أي من هذا.

- لدي السلطة لفعل ما هو أكثر. الخيار لك.

تلاقت عينا هوبر والعميل لثوانٍ، قبل أن يتنهد هوبر ويذرع الحجرة مرة أخرى. تبعت عينا ليروي المحقق إذ سار إلى نهاية الحجرة، ثم عاد مرة أخرى إلى حيث بدأ. قال الشاب:

- اسمع يا هوبر، لو أن في هذا فرصة لنجاة أختي ولإيقاف القديس جون، فربما تكون هذه هي الخطة الوحيدة التي تملكها. هلا جلست وأنصتَّ إليه؟

تنهد هوبر وأغلق عينيه، محاولًا تهدئة نفسه. حين فتح عينيه قرر العودة إلى مقعده. تهاوى جالسًا ناظرًا نحو جالوب.

- ماذا لو وافقت؟

عقد جالوب أصابعه أمامه على الطاولة وسأل:

- هل ستتعاون؟

- كلا، أنا سألتك سؤالًا. وماذا عن القديس جون؟ كيف سنوقفه ونحن لا نعرف حتى كنه خطته، بعيدًا عن موضوع استدعاء الشيطان هذا.

- نعتقد أن عبادة الشيطان التي ذكرها السيد واشنطن مجرد غطاء لشيء أكبر وأكثر خطورة. شيء آمل أن تكتشف ما هو. هذا هو سبب طلبي لتعاونك.

مال هوبر خلفًا في كرسيه وهز رأسه في إنكار. حل جالوب تشابك أصابعه، وعاد ينظر إلى إسورتي كُميه، مُعدلًا وضعها لتوازيا تمامًا نهايتي كُمي سترته.

- فرقتنا لتنفيذ المهام يراقبون الأفاعي منذ وقت، أيها المحقق. هي عصابة جديدة، ونيويورك تعج بالعصابات بالطبع، لكن معلوماتنا تقول أن الأفاعي ليست عصابة عادية. نعتقد أن زعيمهم، الرجل الذي يسمي نفسه القديس جون، لا يجند فقط أشخاصًا جددًا، بل مُعدات أيضًا. المجندون قد حصل عليهم من عصابات أخرى مُفككة. وتجميع العصابات المفككة تحت مظلته تعني جمع الموارد والمُعدات كذلك، ونعرف أن بحوزته الكثير من

المال والسلاح. لكن يبدو أنه يجند أشخاصًا من مصدر آخر، فهو يُشكل دائرة داخلية مُصغرة، يضم إليها أشخاصًا ذوي خبرات خاصة لا نعرف ما هي تحديدًا، ولا نعرف لأي غرض سيستخدمهم. لكننا نعرف أنه يخطط لشيء عظيم سيهدد تلك المدينة ومواطنيها.

نظر هوبر نحو ليروي ثم جالوب وقال:

- فيما عدا أننا لا نعرف متى ستكون ضربته، أتؤمن حقًّا أن أمر الشيطان هذا مجرد تمويه؟

زمَّ جالوب شفتيه ثم قال:

- تعرف مثلما أعرف كيف هي عصابات نيويورك.. ملونة لو صح لي قول هذا. كل منها تحاول اكتساب هالة وهوية خاصة بها. يبدو أن القديس جون يستوحي هويته من خلفية دينية قوية، ولهذا السبب استطاع استقطاب أفراد من العصابات الأخرى. قائد ذو سحر خاص يتحدث عن مشاركة عصابته في أحداث نهاية العالم، واستحضار الشيطان وعبادته وإعانته على إنهاء العالم. تدعم نبوءاته أوامر بجرائم قتل طقسي. الأمر خيالي للغاية، لكن في مدينة كتلك تستهوي الناس تلك الأمور وتجذبهم بسهولة سواء آمنوا بها أم لم يفعلوا.

مسح هوبر وجهه، ثم ترك كفه تهوي إلى الطاولة.

- يبدو أن لديك معلومات كثيرة بالفعل.

- السيد واشنطن كان ذا عون كبير. إلى جانب وجود عملاء متخفين داخل العصابة يمدوننا بالمزيد. أنت توقعت هذا. العميل هويلر كان واحدًا منهم.

- عميل كشفوه وقتلوه.

أومأ جالوب، ولم يقُل شيئًا. هز هوبر رأسه مرة أخرى وأردف:

- إذًا لمَ تحتاجني؟ لم لا تُلقيني في السجن بتهمة عرقلة تحقيقاتك؟ لديك عملاء متخفون بالفعل، ولديك معلومات، فلمَ لا تلقوا القبض على القديس جون وعصابته؟

- لا يمكن أن نغامر بإجراءات مُتسرعة. لو بدأنا هذا فعلينا التأكد من قدرتنا على إنهائه. نحتاج إلى معرفة ما يخطط إليه القديس جون. نحتاج إلى معلومات، خطط، توقيتات، تواريخ، أشخاص. كل شيء. لو تدخلنا الآن فربما نؤذي الأفاعي لكننا قد نفجر خطة القديس جون أو مخططه التآمري. في هذا مخاطرة كبرى، علينا أن نجد أرضًا صلبة نرتكز عليها في أقرب وقت. لذا نحتاجك.

- ولمَ أنا بالذات؟

- لأنك لست محققًا جنائيًا عاديًا، أنت محارب قديم، لديك الخبرة والقدرة اللازمتين. يمكنك النجاة بنفسك تحت أحلك الظروف. تاريخك يتحدث عنك. و...

ابتسم جالوب، ولم تعجب هوبر ابتسامته على الإطلاق.

- و...؟

- و.. أنت *راغب* في المساعدة.

نظر إليه هوبر. جالوب كان محقًا، كان راغبًا في المساعدة، راغبًا في إيقاف جرائم قاتل البطاقات، راغبًا في إلقاء القبض عليه ومحاكمته. والأكثر من هذا، كان يريد حماية نطاق مسئولياته، وحماية مدينته.

وحماية عائلته.

كان العميل جالوب قادرًا على قراءته ككتاب، وهوبر يكرهه لذلك. يعرف كذلك أنه لن يستطيع المقاومة. لا يعرف إن كانت تهديدات جالوب حقيقية، لكن في حوذة الرجل سلطة

قوية تكاد تصل إلى حد الغموض. لم يُرد هوبر المغامرة بشيء كهذا، ولم يكن يرتاح في التعامل مع أشخاص مثل العميل جالوب.

لكن حتى بدون التهديدات.. عليه المشاركة.

نظر إلى ليروي الجالس جواره يقرع الطاولة بأصابعه، ويهز ركبته تحتها. قال الشاب:

- أريد النجاة لأختي يا رجل. القديس جون رجل خبيث. أريدها أن تخرج من تحت قبضته.. أريد أن أخرج من تحت قبضته.

حدق هوبر إلى ليروي لوهلة، ثم استدار نحو جالوب الذي ابتسم ولأول مرة بدت ابتسامته صادقة.

- نحن نعمل لهدف واحد أيها المحقق هوبر.

لم يقل هوبر شيئًا، فأردف العميل:

- وهذه هي الخيارات المُتاحة؛ إما أن ترفض وهذا حقك، فتختفي وتذهب حياة عائلتك إلى الجحيم، وربما يمكننا الاستمرار في خطتنا بدونك.

ثم مال نحو هوبر وأضاف:

- أو لا. ربما يربح القديس جون والأفاعي المعركة، ربما يعتلي الشيطان عرشه فوق مبنى الإمباير ستيت، أو ما هو أفظع.

نظر هوبر إلى جالوب، ثم إلى ليروي الذي اتسعت طاقتا أنفه وهو يتنفس بعمق. أكمل جالوب:

- سؤالي الحقيقي، هل ستساعدني في إنقاذ المدينة أم لا؟

شعر هوبر بدقات قلبه تتسارع.. ثم أومأ برأسه مرة واحدة.

- ممتاز! أولى خطوات المهمة أيها المحقق هي إخفاؤك!

الفصل الثامن عشر

اختفاء المُحقق جيمس هوبر

٨ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

جلس هوبر في سيارة الشرطة عند المنعطف، خافضًا زجاج النوافذ مستمتعًا بنسمة الهواء الباردة. لم يكن ثمة داعٍ للاختباء أو الانحناء خلف المقود وهو يراقب المباني المتراصة. كانت شقته في منتصف المباني، ومن سيارته رأى بوضوح المدخل وكل من يدخل أو يخرج منه. ولم يكن هناك أحد حتى هذه اللحظة.

كان المبنى مقسمًا إلى ثلاث شقق؛ السيدة شايفر في شقة الطابق السفلي، وكانت في عملها. وآل فان سابين في الشقة الثالثة العلوية وكانوا في سفر منذ يومين، والشقة الثانية، شقة آل هوبر، وكانت خالية.

نظر إلى ساعته، كانت بعد التاسعة بقليل، فلا بد أن دايان وسارة في المدرسة.

سار اجتماعه -إن كان من الممكن نعته بالاجتماع- مع جالوب وليروي على نحو جيد. عرض العميل الخطوط العريضة للخطة، وأجاب عن كل أسئلة هوبر، وأوكل إلى أحدهم مهمة الاتصال بدايان وإخبارها أن هوبر في مهمة ولن يعود إلى البيت. الغياب الطويل عن المنزل لم يكن من عادات هوبر، لكنه وضع مألوف لدى محققي الجنايات، إلا أن هوبر لم يستطع المغفرة لجالوب على استخدام تلك الحجة مع عائلته.

تنفَّس هوبر بعمق، فمجرد التفكير في ابنته وزوجته يُهدِّج أنفاسه.

كان موقنًا أن ما يفعله هو الصواب، وبغض النظر عن التهديدات والسرية وثقل أيدي الرجال ذوي البذلات السوداء، فجالوب يحاول أن يقوم بمهام وظيفته مُستخدمًا كل ما أوتي من سلطة. والآن حانت له الفرصة كي يوقع عصابة الأفاعي ويوقف الخطر المُحيط بالمدينة بسبب زعيمها القديس جون، وكذلك القبض على قاتل البطاقات بضربة واحدة.

فرصة لاستعادة العدل ومعاقبة من قتل جوناثان شينتزر وسام باريت وجايكوب هويلر.

فجأة شعر هوبر أن كل ذلك ليس كافيًا بالنسبة له كي يتفهم تهديد العميل جالوب بإيذاء ابنته وزوجته، فقد منحه الأخير خيارين كلاهما يعني الألم والخوف وعدم الأمان، فقط واحد منهما يعده بأن الخوف والألم وضع مؤقت سيزول بانتهاء المهمة.

كان المحقق هوبر على وشك الاختفاء لوقت لا يعلم مداه. سيتخلى عن حياته العادية ويخطو نحو الخطر. العودة إلى ابنته وزوجته مجرد احتمال واحد ضمن العديد من الاحتمالات المفزعة.

ضرب المقود بكفه، مُطالبًا نفسه بالشجاعة. هو قادر على إنجاز المهمة وحماية ذاته، لهذا اختاره جالوب بالذات.

لم تكن تلك المرة الأولى التي تساءل فيها هوبر عما عرفه جالوب من سجله الحربي، فبعض ما دُوِّن فيه لا تعرفه دايان حتى، لكن ثقة جالوب في قدراته تدفعه للتساؤل.

هل يعرف جالوب ما فعله في فايتنام؟

حاول هوبر إجلاء عقله، فهو بحاجة إلى التركيز، لكن تفكيره ظل ينجرف نحو عائلته. جزء من عقله بدأ في إضفاء المنطق والتعقل إلى تصرفاته؛ ستغضب دايان وتقلق بلا شك، لكن حين تنتهي المهمة ستتفهم قراره. سارة ستشعر بقلق أمها وتحزن، لكنها -حمدا لله- أصغر من أن تفهم، وثمة فرصة لا بأس بها أن تنسى ما حدث حين تكبر.

ما سيفعله سيكون فخرًا لعائلته، وستحكي ابنته عن أبيها المحقق الجنائي جيمس هوبر الذي اختفى ليومين ثم عاد موقعًا بأخطر العصابات، مُنقذًا المدينة من كارثة، مُلقيًا القبض على قاتل متسلسل في طريقه.

أليست هذه قصة تُحكى؟

لو كُتب للخطة النجاح فستكون كالتالي:

ليروي واشنطن لا يزال فردًا في عصابة الأفاعي، ورغم أنه -كما قال- لم يكن من الدائرة المقربة للقديس جون، لكنه على وشك أن يكون من المقربين.

ثمة فرد من العصابة موكل باختيار وتجنيد من سينضمون للدوائر القريبة من زعيمهم الغامض بدقة وانتباه، وشخص كالمحقق هوبر يلائم المواصفات التي يبحث عنها القديس جون بحسب ما قال ليروي، فقد كان هوبر ذا خلفية عسكرية وتاريخ عنيف مُسجَّل، وهي نظرة غريبة للغاية إلى تاريخه الحربي، لكنها كانت الحقيقة المُجردة. كما أن عمل هوبر بالشرطة أمر مُغر بالنسبة للقديس جون كما يظن ليروي، لأن هوبر كان على وشك حمل لقب «شرطي سابق»، فهو لم يكن سيختفي فحسب، بل سيهرب.

هناك، في مخزن هيئة البريد الأمريكية، سلم هوبر سلاحه الرسمي -سميث وويسون 10- السلاح العتيق المُحبب، فأخذه منه واحد من أتباع جالوب، وكان مُرتديًا قفازين أبيضين. سيكون هذا المُسدس نجم مشهد اختفائه، فسيوضع في مسرح جريمة مُعد لاتهام هوبر، بعدها سيختفي المُحقق وسيظهر اسمه في قائمة المجرمين المطلوبين للعدالة في مكتب المحققين.

أثناء هروبه من العدالة، سيصحب ليروي هوبر إلى عصابة الأفاعي، وسيعرض الشرطي السابق الفاسد العنيف خدماته على القديس جون. بمجرد تجنيده، فالخطة ستكون سهلة؛ عليه معرفة ما يخطط إليه الزعيم وكيفية إيقاف ما ينتوي فعله.

سيكون ليروي وهوبر بمفردهما تمامًا داخل العصابة، وإن احتاجا إلى الانسحاب فعليهما التواصل مع فرقة المهام الخاصة بجالوب، لكن هذا سيفسد العملية تمامًا وسيجبر مكتب التحقيقات الفيدرالية على التدخل بشكل مباشر، لذا فعلى هوبر وليروي جمع أكبر قدر من المعلومات قبل أن يضطرا للرحيل.

افترق ليروي وهوبر بعد أن أطلق جالوب سراحيهما. تواصل ليروي مع الأفاعي لينسق معهم جلب مُجندٍ جديد، بينما ذهب هوبر لقضاء بعض أمور شخصية، عارضها جالوب ناصحًا بابتعاد نظيف عن عائلته وعمله وأصدقائه، لكنه لم يجادل كثيرًا مع هوبر بعد أن طلب منه الأخير المزيد من الثقة.

كان الاتفاق أن يتقابل هوبر وليروي ليلًا لتبدأ المهمة، لكن قبلها كان هوبر في حاجة إلى إنهاء بعض الأمور.

خرج من سيارة الشرطة مُتجهًا نحو البناية التي يسكن فيها، صعد الدرجات سريعًا داخلًا المبنى بلا تردد، شاعرًا أن الجميع يراقبونه رغم خلو المكان من المارة.

في شقته، اتجه إلى حجرة نومه. كان في حاجة إلى الاستحمام والنوم قليلًا، بعدها سيغير ملابسه إلى ملابس أقل لفتًا للانتباه من قميصه ذي المربعات، إن كان سيتقمص دور الشرطي الفاسد. كان كذلك في حاجة إلى إلقاء نظرة وداع على الشقة.

تمدد هوبر فوق الأغطية، وضبط المُنبه، ثم غاص في النوم.

٤ يونيو ١٩٧٢

بروكلِن، نيويورك

- أخضر تفاحي؟!

تراجع هوبر خلفًا ممسكًا بأسطوانة الطلاء مُحاذرًا أن تقطر الدهان على الأرض، ناظرًا نحو حائط حجرة النوم الذي أمضى ساعة في طلائه. كان قد أبلى بلاءً حسنًا وكان مُتأكدًا من ذلك، فطلاء الحائط كان أكبر تحدٍ واجهه في حياته، لكنه أراد أن ينجزه بدقة، فقد اتفق هو ودايان على تجديد شقتهما الجديدة بنفسيهما بدلًا عن استئجار فنيين مختصين. الانتقال من هوكينز كان سهل التخطيط، عسير التنفيذ، ثقيل على حسابهما البنكي. كان هوبر قد استلم عمله للتو، والأسرة في انتظار أول راتب له.

ظل يفكر -وهو يرمق الحائط إذ يجف أمام عينيه- أنه ربما كان من الأفضل إنفاق بعض المال وجلب مختصين.

- كيف تسير الأمور؟

نظر هوبر من فوق كتفه إذ دخلت دايان الحجرة حاملة طفلتهما التي أكملت العامين على كتفها. خطت دايان بحذر من حول أغطية الأرضية المُجعدة ووقفت جوار زوجها في منتصف الحجرة. قبَّل الأخير سارة على وجنتها، وقبَّل شفتي زوجته قبل أن يشير إلى الحائط هاتفًا:

- كان مكتوبًا على علبة الدهان أن اللون أخضر تفاحي.

أومأت دايان فنظر هوبر جانبًا إليها مُردفًا:

- هل تقطيبتك تعني تقدير مواهبي الفنية في الطلاء، أم أنك تتساءلين عن نوعية التفاح الذي يبدو لونه هكذا؟

ضحكت دايان والتصقت به ولفَّت ذراعها حول خصره، فرفع أسطوانة الدهان هاتفًا:

- انتظري.

وضع الأسطوانة على الأرض وعاد إلى زوجته وابنته، فرفعت دايان كفها وقالت:

- أوه، جيم!

- ماذا؟

أشارت دايان نحوه، فنظر إلى قميصه الأصفر ووجده مُلطخًا بالطلاء.

- أوه، اللعنة!

وضعت دايان كفها على فمها ضاحكةً، بينما تململت سارة المحمولة على ذراعها، فتمايلت أمها من ناحية إلى أخرى كي تُريحها.

نظر هوبر إليها مُضيقًا عينيه مُستائلًا:

- أتضحكين؟

أنزلت دايان كفها كاشفة عن ابتسامة واسعة وقالت:

- لقد كان هذا قميصك المُفضل.

تنهد وقال:

- بالفعل كنت أحبه.

راح يرمق كتفي زوجته إذ تهتزان في محاولة لكتم ضحكاتها، فأردف:

- سعيد أن أحدنا يرى الأمر مضحكًا.

ولم يستطع أن يتمالك نفسه، فبعد لحظة انفجر ضاحكًا بدوره، فأيقظت ضحكاتهما سارة. احتضنا ابنتهما، فتلفتت حولها مُتثائبة، ونظرت العائلة نحو ما أنجزه هوبر على الحائط. قالت دايان:

- حسنًا. كنت تبغي تغييرًا.. مدينة جديدة، بداية جديدة.. أليس هذا ما كنت تريد؟

- بالتأكيد. مدينة جديدة، بداية جديدة، ودرس جديد يعلمني ألا أشتري طلاءً صنعه... من صنع هذا الطلاء؟!

ثنى عنقه محاولًا قراءة المكتوب على دلو الطلاء. ابتسمت دايان واستدارت كي تُقبل هوبر مجددًا ثم قالت:

- أعتقد أنه يبدو ممتازًا. كنا نريد طلاءً أخضر وقد حصلنا عليه.

- بالتأكيد.

نظر إلى سارة التي تثاءبت مرة أخرى وبدت أنها تعود إلى عالم اليقظة. سألها:

- ما رأيك يا صغيرتي؟ أيروق لك اللون؟ هل أحسن أبوكِ صُنعًا؟

حمل سارة عن كتف ديان ووضعها على خصره ثم قربها من الحائط وهو يؤرجحها.

- انظري. يبدو أن هكذا يبدو اللون الأخضر التفاحي في نيويورك.

ضحكت دايان مرة أخرى، فاستدار هوبر مواجهًا زوجته، فوضعت سارة كفيها على وجهه.. كفيها المُلطختين.

- أوه!

كانت سارة قد لوثت يديها ببقعة الطلاء على قميصه وراحت تنقلها إلى وجهه.. ووجهها!

- تفاح!

قالتها وهي تضحك. أخذت دايان سارة بحذر من بين ذراعي أبيها وهي تقول:

- لنترك بابا الآن، فلديه الكثير ليُنجزه. نحن نعلم عاقبة إزعاج الفنانين العظماء.

ضحك هوبر وأشار لهما بالانصراف، وبعد أن اختفتا، نظر إلى البقعة على صدره، مُتفحصًا إن كان في الوسع إزالتها، لكن بدا له هذا صعبًا.

تنهد، وأمسك بأسطوانة الدهان، وعاد إلى عمله.

الفصل التاسع عشر

قهوة وتأمُّل

٨ يوليو ١٩٧٧

بروكلِن، نيويورك.

بعد ساعتين، أيقظ هوبر المُنبه، فقام في حالٍ أسوأ مما سبق، مُنزعجًا من الحلم/ الذكرى التي أُنتزِع منها. كم مر من الأعوام منذ أن أعاد تجديد الشقة؟ لم يقدر على التذكُّر، لكن حوائط حجرة النوم ما زالت خضراء، وقد قل سطوع اللون بعد جفافه لحسن الحظ.

أغلق هوبر المُنبه وقام ليستحم، وبعد نصف ساعة ارتدى بنطالًا قديمًا من الجينز كان يعمل به في ساحة المنزل التي لم تعد موجودة، مع قميصه قصير الكُمين المُبقع بالطلاء التفاحي، ومن نهاية الخزانة أخرج سُترة جلدية منتفخة، واستبدل بحذاءيه حذاءي الجيش القديمين. فكر في أن يبحث عن سترة الجيش خاكية اللون كذلك، لكنه لم يشأ أن يضيع الوقت في البحث. قضى وقتًا في انتقاء كريم لدهن شعره من وسط حاجيات دايان.

نظر إلى نفسه في المرآة راضيًا بمظهره الجديد، ثم خلع جزءًا من خلفية الخزانة مُخرجًا شيئًا ثقيلًا ملفوفًا في قطعة من القماش، فضَّ الغلاف كاشفًا عن مُسدس نصف أتوماتيكي، كولت إم 1911 رافقه في رحلتي فايتنام. رفع المُسدس ناظرًا إلى انعكاسه في المرآة، ثم دسه بين بنطاله وقميصه من الخلف وارتدى سترته المنفوخة كي تُداري السلاح.

كل شيء على ما يرام، حتى الآن.

أعاد هوبر ما انتزعه من خلفية الخزانة، وعلَّق قميصه وبنطاله اللذين كان يرتديهما وأعاد كل شيء إلى موضعه في الحجرة. كل شيء بدا كأن لم يمسسه أحد. توقف هوبر عند صورة دايان المُؤطَّرة، حيث كان الإطار منقسمًا إلى قسمين، قسم يحمل صورته مع دايان قبل زفافهما بساعتين. كان يرتدي بذلة سوداء، وكانت ترتدي فستانًا أزرق، وكانا يجلسان على الصخور وسط حديقة مزدحمة بالنباتات.

ظل هوبر يحدق إلى الصورة لوهلة، ثم انتقل إلى القسم الآخر من الإطار، حيث صورة عائلية تمثل الأب والأم والابنة يحدقون إليه. تذكر هوبر ألم ظهره إذ جلس في ستوديو التصوير يومها لنحو ساعة حتى استطاعوا التقاط تلك الصورة المثالية.

ضحك هوبر، وأعاد الصورتين إلى مكانهما، ثم تراجع ببطء، ولم يتوقف أو يرفع عينيه عن الصورتين حتى اصطدم بحافة الفراش.

انتزع نفسه من مكانه، ومرر كفه خلال شعره المُدهن في طريقه إلى الخارج. لا يوجد شيء آخر يفعله هنا.

في المطبخ رفع سماعة الهاتف، واتصل برقم، فرفع المُتلقي السماعة فورًا.

- ديلجادو، قسم الجنايات.

قال هوبر برفق رافعًا كفه وكأن شريكته قادرة على رؤيته عبر الهاتف:

- هذا أنا. لا تقولي شيئًا آخر، فقط اسمعيني.

سمع هوبر صوت تنفُّس ديلجادو إذ تنتظره. قال:

- حسنًا؟

أجابت ديلجادو بصوت منخفض:

- لقد طلبت مني ألا أقول شيئًا.

لم يستطع هوبر أن يقاوم الابتسام وقال مُتحققًا من ساعته:

- حسنًا، اسمعي، أحتاج إلى مقابلتك. بعد ساعة في مطعم توم، عند التقاء شارعي واشنطن وستيرلنج...

- أعرفه، لكنه بعيد يا هوبر.

- إذًا عليكِ التحرك فورًا.

وأغلق سماعة الهاتف. كان اتصاله بها مُخاطرة، لكن لم يكن لديه خيار، فبينما هو هارب، عليها أن تقوم بمهمة معينة.

***

مطعم توم من المعالم الهامة في بروسبيكت هايتس منذ منتصف الثلاثينيات، ولم يتغير كثيرًا عبر الزمن. المطعم يشغل الطابق الأرضي من مبنى مربع بلا معالم مميزة، وفي الداخل يعبق هواء المكان رائحة الدهون القديمة ودخان التبغ، لكن القهوة كانت جيدة تُقدَّم في أقداح تبدو نظيفة.

أخذ هوبر قهوته وجلس في ركنٍ قصي، يرمق الشارع عبر النافذة على خلفية من ضوضاء

الزبائن والموسيقى القادمة من المذياع، فامتزجت الأصوات خلفه كحائط يعزله عن العالم.

وصلت ديلجادو بعده بعشرين دقيقة، مع بداية أغنية بيل كونتي «سيطير الآن». بينما تسير، رآها تتفحص بعينيها الكبائن والمناضد، أشار إليها، فتوجهت نحوه ودخلت المقصورة التي يجلس فيها واضعة حقيبتها إلى جوارها.

قالت مقطبة حاجبيها وهي تنظر نحو مصدر الأغنية:

- أكره هذا الفيلم.

أشارت ديلجادو إلى المُضيفة خلف الكاونتر ثم أردفت مائلة نحو شريكها:

- ماذا يحدث بحق الجحيم يا هوبر؟

انتصبت في جلستها وابتسمت حين وصلت المُضيفة التي كانت ترتدي زيًّا أصفر مثل شعرها. سألتها الأخيرة:

- هل أحضر لك قائمة الطعام؟

ظلت تمضغ العلكة بفم مفتوح حتى أن هوبر استطاع أن يشم رائحة النعناع الصادرة من فمها.

- أريد قهوة فقط.

أومأت المضيفة وعادت إلى الكاونتر. نظرت ديلجادو إلى هوبر نظرتها المميزة، لكن الأخير رفع إصبعه مقطبًا حاجبيه ناظرًا نحو المُضيفة التي عادت حاملة إبريق القهوة وكوبًا نظيفًا وضعته أمام ديلجادو وملأته، قبل أن تعيد ملء كوب هوبر الذي قال لها باسمًا:

- أشكرك.

لم ترُد المضيفة وغادرت بسرعة. قالت ديلجادو:

- حسنًا، والآن أين كنا؟ آه.. ماذا يحدث بحق الجحيم يا هوبر؟ هلا أخبرتني لمَ كل هذا التخفي والغموض، وأين كنت منذ أمس؟ حاولت أن أبرر غيابك للنقيب مرتين، لكن مزاجه لن يتحمل المزيد من المراوغة.

- سأخبرك بكل شيء.

وضع هوبر كوبه أمامه، ولفَّ كفيه حوله. كان الجو حارًّا لكنه لسبب ما كان يشعر بالبرد.

- أريدكِ أن تسمعي وتدعيني أكمل كلامي حتى النهاية، وإن خطرت لك أسئلة ادخريها حتى أنتهي. اتفقنا؟

أومأت ديلجادو.

- سأعتبر إيماءتك موافقة، لكن عليكِ أن تثقي بي.

- اختصر يا هوبر! تعرف أنني أثق بك، وليس عليك أن تطلب مني هذا.

- لديك حق.

- ماذا بك؟ ولمَ ترتدي هكذا؟

نظر هوبر إلى قميصه المُلطخ بالطلاء الأخضر التفاحي، ثم قال:

- أنا أعمل لدى العميل الخاص جالوب الآن.

رشفت ديلجادو قهوتها ورفعت حاجبيها. سألها هوبر:

- أليس لديكِ أي تعليق؟

هزت ديلجادو رأسها وقالت:

- تعليقات، لا تعليق واحد. لكنك طلبت مني أن أسمعك حتى النهاية.

زفر هوبر وقال:

- حسنًا، الشاب الذي جاء يطلب الحماية...

- ليروي واشنطن، أجل. لكنه اختفى.

- قبض عليه جالوب أيضًا. الحقيقة أننا نعمل سويًّا وسنختفي لفترة، وقريبًا ستسمعين.. أشياء عني.

رفع كفه تجاه شريكته كأنه يُهدئها وأكمل:

- ومهما ستسمعين عني، فلا شيء من كل هذا حقيقي، كل تلك الأخبار ستكون غطاءً على عمليتنا. لدى جالوب خطة ستساعدني أنا وليروي كي ننجز مهمتنا. المهم، مهما ستسمعين

عني في القسم، ومهما قال الناس عني، فبعض منه سيصيبك لأنك شريكتي. سيظنون أنك تعرفين شيئًا عما يحدث وعن مكاني، وكل ما أريده منك أن تتماسكي لفترة وتشتركي معهم فيما يقولون عني. الرفاق في المكتب سيكونون غاضبين، وأريدك أن تكوني في صفهم.

صمت هوبر، وراحا يجرعان قهوتيهما، وكل منهما يتحاشى النظر إلى الآخر. التوى فم ديلجادو عابسًا ما بين رشفة وأخرى. قال هوبر أخيرًا:

- كل شيء سيكون على ما يرام حين أعود، لكن تذكري أن كل ما سيقال مجرد هراء لتغطية العملية ولا شيء لتقلقي عليه. حين أعود سأوضح للجميع كل شيء.

شربت ديلجادو ما تبقى في كوبها، فقال هوبر:

- وقت الأسئلة.

- لماذا يبدو طعم القهوة هنا كالأسفلت؟ ولماذا أريد كوبًا آخر؟!

رفعت كوبها لتُنبه المُضيفة التي تمضغ العلكة، وبعد لحظات أعيد ملء الكوب. رشفت ديلجادو رشفة ساخنة وراقبها هوبر وهي تلهث والبخار يتصاعد من فمها وهي تسأل:

- لماذا اختار ليروي ولم يخترني؟

- ليروي هو مدخلي للخطة، ولدي مهمة لك أثناء غيابي.

أمالت ديلجادو رأسها وتساءلت:

- مدخلك؟ أنت ستنضم للأفاعي، أليس كذلك؟

لم يُجب هوبر، فولَّت ديلجادو نظرها نحو النافذة.

- اللعنة يا هوبر. لكم من الوقت ستغيب؟

- لا أعرف. يومين كما آمل، لكن ربما أحتاج إلى وقتٍ أطول. بمجرد أن نتورط في الأمر لن نستطيع الفكاك قبل أن ننهي مهمتنا.

أكملت ديلجادو تحديقها عبر النافذة وهي تقول:

- وما هي المهمة التي تريد مني تنفيذها، بعيدًا عن مهمة البحث عن شريك جديد؟

زمَّ هوبر شفتيه، وحين لم يرد على الفور، نظرت إليه ديلجادو، مُتفحصةً ملامحه، ثم قالت:

- دايان؟

- وسارة.

تنهد هوبر وحدق إلى قهوته مُردفًا:

- ما سيحدث سيكون صعبًا عليهما. سارة محظوظة، فهي لا تزال صغيرة ولن تفهم أو تتذكر شيئًا، المشكلة في دايان.

صمت هوبر وشعر بحرارة خلف عينيه، ضاق صدره، وتعالت دقات قلبه كقرع المطارق.

- هوبر؟

رفع هوبر رأسه وأغلق عينيه، لكنه ظل يرى الصورة العائلية في الإطار؛ ثلاثتهم يبتسمون حتى تؤلمهم عضلات وجوههم.

فتح عينيه وقال:

- ستسمع دايان كل ما سيتردد عني، وأريدك أن تكوني معها، وأن ترافقيها خلال كل هذا.. أتفهمينني؟

- لا تقلق يا شريكي، يمكنك الاعتماد عليَّ، سأكون هنا من أجلهما.

تنهد هوبر، فقد شعر أن ثقلًا قد أُزيح من فوق كتفيه.

- شكرًا روساريو.

- الآن أدرك أن الأمور سيئة بحق! بمجرد أن تناديني روساريو أعرف أنك في ورطة.

ابتسم هوبر وشرب قهوته. أردفت شريكته:

- وقبل أن تلعب دور العميل السري أمامي، عليَّ أن أخبرك بمغامرتي.

فرد هوبر كفيه أمامه وسألها:

- هل حصلت على معلومات مفيدة؟

- أتذكُر قائمة العناوين التي وجدتها في شقة جايكوب هويلر؟

- بالتأكيد، وعنوان منها كان مخصصًا لاجتماعات المتعافين من إدمان الكحول.

- صحيح، وعنوان آخر منها هو مقر اجتماع للتأهيل، مساعدة مجتمعية تُقيمها مؤسسة خيرية حيث ترسل إليهم مختصَّة مرتين في الأسبوع لتساعد المُفرَج عنهم من السجن على العودة إلى الحياة العادية والاندماج في المجتمع. مجموعة دعم صغيرة لا أكثر.

قطب هوبر جبينه وسأل:

- و...؟

- والمختصة التي أخبرتك عنها هي ليزا سارجيسون.

توقفت يد هوبر الممسكة بالكوب في منتصف طريقها إلى فمه. وضع حِملها على المنضدة وراح يصغي لما تقوله ديلجادو عن زيارتها لشقة ليزا ومعرفتها عن عملها القديم والحالي، وعن بطاقات زينر.

حكَّ هوبر ذقنه وهو يستمع، ثم سألها:

- العناوين الأخرى؟

بدأت ديلجادو في إحصاء العناوين على أصابعها وهي تقول:

- قاعتان في كنيستين.. نادي ملاكمة.. مركز مجتمعي. كل مكان منهم يستخدم لخدمة تجمعات؛ المتعافين من إدمان الكحول، جماعات دعم المحاربين القدامى، مجموعات دعم لمرضى الأمراض المزمنة، فصول دراسية ليلية للعاطلين. عدد كبير من الاجتماعات المتباينة، ومجموعة ليزا واحدة منهم، لكن...

- لو أضفنا بطاقات زينر للمعادلة...

- ثمة علاقة يا هوبر.

- حسنًا. نحن بحاجة إلى.. أنت بحاجة إلى الحديث مع ليزا مرة أخرى ومعرفة ما تفعله بالضبط في اجتماعاتها، وما إذا كانت تعرف أيًّا من الضحايا أو أيًّا من المجموعات الأخرى.

رفعت شريكته حاجبها وسألته:

- إذًا ما زلنا نعمل على هذه القضية؟

- الوضع تغير بالكامل، أنا أساعد جالوب، وأنت تساعدينني.

أنهت ديلجادو كوبها الثاني وقالت:

- دع الأمر لي.

- أشكرك.

نظر هوبر إلى ساعته وأضاف:

- الوقت يمر سريعًا، ارحلي أنت أولًا، سأمنحك وقتًا للابتعاد.

قامت ديلجادو وهي تقول:

- حظ سعيد يا هوبر، خُذ حذرك.

ابتسم لها هوبر، وراقبها إذ تغادر المطعم، ورآها وهي تعبر الطريق ثم تختفي عن ناظريه. انتظر هوبر بضع دقائق. جاءت المُضيفة ذات الرداء الأصفر حاملة الإبريق.

- أتريد المزيد من القهوة يا عزيزي؟

هز هوبر رأسه نافيًا. ما أن استدارت المُضيفة حتى غيَّر هوبر رأيه وناداها:

- انتظري، صبي لي المزيد. هل لديكِ فطيرة تفاح؟

- أجل.

- ممتاز، أريد إذًا قهوة وفطيرة تفاح.. شريحتين.

- أتريد الفطيرة ساخنة؟

- أجل، لو سمحتِ.

- مع القشدة؟

- أجل.

عادت المُضيفة كي تجلب طلبه، وتمنى هوبر ألا تكون وجبته الأخيرة.

الفصل العشرون

مارثا

٨ يوليو ١٩٧٧
نيويورك

جلس هوبر في مقعد السيارة العائلية الأمامي، بينما يقودها ليروي شمالًا عابرًا شوارع مانهاتِن قاصدًا عُش الأفاعي في مكان ما في جنوب برونكس.

شعر هوبر بالامتنان لنسمات الهواء الداخلة من نوافذ السيارة المفتوحة، التي بردَّت قليلًا قيظ العربة وأخرجت منها رائحة المخدرات الخبيثة المُلتصقة بقماش المقاعد.

كانت السيارة ضخمة أقرب إلى سيارة نقل موتى منها إلى سيارة عائلية عادية، ولو أن حالتها أفضل لعلت قيمتها في أعين جامعي السيارات النادرة. كانت السيارة في حالة مزرية بالفعل، فالمقعد مشطور والجلد مُتشقق يخرج من بين شقوقه الإسفنج الأصفر، ولم يكن للسقف تنجيد، عدادات السرعة لم تكن تعمل بكامل كفاءتها. أما من الخارج، فقد زال الطلاء عن بعض المواضع كاشفًا جسم السيارة المعدني، وقد غطت رسومات الجرافيتي بعض المواضع الأخرى في طبقات مُتعددة تتداخل مع الصدأ. كانت حركة سيارة في وضع كهذا معجزة بغض النظر عن العادم المتصاعد منها، وصوت القعقعة المنبعث من المحرك مع كل مرة يدعس فيها ليروي البدَّال الأيمن.

لم يسأل هوبر عن المكان الذي أتت منه السيارة، ثمة أمور أهم تقلقه الآن. كان ينتظر عند المنعطف المُتفق عليه، وركب السيارة بمجرد وصولها بلا أسئلة.

قاد ليروي السيارة مُخرجًا ذراعه الأيسر عبر النافذة، مُريحًا إبطه على إفريزها. ذراع نقل السرعات كان مثبتًا عند عمود عجلة القيادة. يروق لليروي انحراف السيارة يسارًا عندما يترك المقود ليغير السرعة، ويعجبه تدلي ذراعه الأيسر في الهواء بحُرية.

لم تكن للسيارة أحزمة أمان، وتعلم هوبر التشبث بشريط الجلد المُثبت أعلى الباب كي يمنع نفسه من الانزلاق إلى حِجر ليروي مع كل مُنعطف.

بدأ خط سيرهما من بروكلِن، مرورًا بكوينز، ثم عبرا مانهاتِن شمالًا. قلَّت كثافة السيارات تدريجيًّا في طريقهما إلى برونكس، ولم يكن هذا هو التغير الوحيد، فوسط مدينة مانهاتن يعج دومًا بسيارات الأجرة الصفراء وناطحات السحاب العالية. هكذا كانت وستكون، مدينة مزدحمة حتى مع انقضاء النهار. المزيد من الناس، والسائحين، والعمال.

امتدت اللافتات الإعلانية عبر واجهات المباني، أغلبها إعلانات لسجائر وينستون أو سالم، أو أنواع مختلفة من الويسكي. أما المختلف منها فيحمل إعلانًا لفيلم جيمس بوند الأخير «الجاسوس الذي أحبني». بدا وسط المدينة كأنما لا يعاني أي مشاكل اقتصادية أو أزمات مالية أو أيًّا مما يُذاع في نشرات الأخبار المحلية. لكن الأمور تغيرت بعد عبورهم شارع 42.

هوبر يعرف أن ميدان التايمز عبارة عن هاوية، لكنه لم يتصور إلى أي مدى امتد السرطان إلى الجنوب. كل مبنى عن يمينه أو يساره يشي بما يدور فيه من موبقات وبغي، ويعدك بفتيات عاريات على المسارح وفي الأفلام وعلى صفحات المجلات اللامعة. النساء يقفن خارج البيوت، وعند البوابات، يرتدين التنورات القصيرة والأحذية عالية الرقبة، بينما رجال يرتدون سراويل ضيقة من البوليستر يحتلون مواضع أخرى مخفية. عبرت السيارة على جريدة ملقاة على الأرض، تحمل أخبار الأمس وإحصائيات الجريمة، وفرمتها تحت عجلاتها.

من خلف ميدان التايمز، قل ارتفاع المباني، وظهرت جزيرة مانهاتن. قطعت السيارة الشبيهة باليخت الطريق إليها عبر الأمواج الأسمنتية. قلت كثافة المرور وتزايدت كثافة المارة على الأرصفة. مجموعات كبيرة من البشر، يتعرقون، يشتمون، يتحدثون. أطفال يرقصون تحت صنبور حريق مكسور، ينبعث منه الماء وقوس قزح، بينما يقف الأكبر منهم سنًا أمام متجر أثاث بلا أثاث أو واجهة زجاجية.

تقف السيارات أمام مداخل المباني، وينام الناس بمحاذاتها. أهل المدينة متآكلون كمبانيها وشوارعها والسيارة التي يركبها هوبر وتقطع طرقات الجزيرة.

انحرف ليروي يسارًا نحو هودسون ثم توجه شمالًا مرة أخرى. نظر هوبر إلى النهر على يسار السائق، والمباني الضخمة على الجانب الغربي القديم من الطريق السريع. آثار صدئة تدل على فشل المدينة الفقيرة في التخلص منها، فتركتها كوحوش متحجرة على طول الجانب الغربي من مانهاتن.

في شتاء 1973، جزء من الطريق السريع المتهالك انهار تحت ثقل سيارة تحمل الأسلفت لرصف الطريق ذاته. أغلق الانهيار الطريق إلى الأبد، ولدهشة الجميع لم يتداع باقي الطريق حتى الآن.

انحرفت السيارة شرقًا ثم شمالًا إذ يتبع ليروي طريقًا لا وجود له سوى في عقله. ظل هوبر جالسًا يراقب المدينة تذوب في الأنقاض من حوله.

ثمة نار في مكان ما عند الشرق، يتصاعد منها الدخان عموديًّا وسط سكون رياح الصيف. رأى هوبر في نهاية الشارع سيارات مهجورة، وأناسًا مهجورة، وحيوات مهجورة. سمع صوت ضحكات، وصرخات، وصوت صبية يلعبون لعبة قمار، مطمئنين إلى عدم وجود شرطة تمنعهم. رجال ونساء عجائز يدفعون سيارات تسوق مليئة ببقايا البضائع، بينما يحقن شباب وشابات المخدرات في عروقهم على جانبي الطريق، غير عابئين بإخفاء ما يفعلون في ظلمات المباني أو أركان الشوارع.

توقفت السيارة مع غلق إشارة المرور للطريق، وفي مكان ما من هارلِم ظهرت سيارة شرطة جوارهما، قاوم هوبر رغبته في النظر نحوها. جلس حيث هو ناظرًا أمامه إلى أضواء إشارة المرور، شاعرًا بعيني الشرطي عليه طيلة الوقت. تغير لون ضوء إشارة المرور إلا أن سيارة الشرطة لم تتحرك، لكن ليروي انطلق بالسيارة الضخمة المتهالكة. لم يستطع هوبر النظر إلى مرآة السيارة إلا بعد مرور بضع ثوانٍ، ورأى سيارة الشرطة تتحرك وتنحرف يمينًا.

استقام هوبر في جلسته ورفع رأسه، وجواره بدأ ليروي في الحديث.

- هل أنت "تمام" يا رجل؟

التفت هوبر إلى ليروي، كان الشاب مُحدقًا إلى الطريق الممتد أمامه، ويده الحرة خارج النافذة تدور في دوائر، ثم حرك ذراع السرعات فانحدرت السيارة إلى اليسار قليلًا. ركَّز هوبر على الطريق أمامه مرة أخرى، وحاول إقناع نفسه أنه مستعد، قبل أن ينطق بها إلى رفيقه.

لم يقل ليروي شيئًا، لكنه فحَّ من بين أسنانه، فنظر هوبر جانبًا نحوه، ورآه يهز رأسه ببطء ويتمايل شعره الإفريقي الكثيف المكوَّم كالكُرة يمنةً ويسرةً.

- هل أنت بخير يا ليروي؟

قطَّب ليروي ولم يُجِب.

- عليك أن تُخبرني لأنني "تمام" وأحتاج أن تكون أنت أيضًا "تمام". أنت تعرف ما سنقوم به، وأنا لا أعرف. لذا يجب أن تتماسك وإلا ستسوء الأمور سريعًا.

ازداد عُمق تقطيبة جبين ليروي.

- ليروي؟

تباطأت السيارة، أومأ ليروي وراح يلعق شفتيه واتسعت طاقتا أنفه.

- لدينا رِفقة.

نظر هوبر أمامه. دخل وقت الغروب، وبدأت أعمدة الإنارة في الإضاءة واحدًا تلو الآخر. كانا في آخر مانهاتن، في مكان لم يستطع هوبر تحديد موضعه بالضبط، لكن لم يكن أمامهما الكثير حتى يخرجا من حدود المنطقة. وكانا وحيدين ولم تكن ثمة سيارات في الطريق إلا سيارتهما.

لكن الطريق أمامهما كان مغلقًا.

أمامهم أربعة، وهذا أكثر مما قد يتقبله هوبر. كانوا واقفين وسط الحارة؛ رجلين أسودين، ورجل أبيض، وامرأة سوداء تتقدمهم، تضع كفيها داخل جيبي سترة كرة السلة الواسعة، والتي ترتديها فوق القطعة العلوية من رداء سباحة أحمر، وبنطال من الجينز الأبيض الضيق. من خلفها وقف الرجال مقوسي الأكتاف وكأنهم يتموضعون لالتقاط صورة في مجلة، يرتدون سترات بلا أكمام تكشف صدورهم وأذرعهم العضلية العارية، ويربطون العصابات حول رؤوسهم.

كانت المرأة مبتسمة، ولم يكن رفاقها مبتسمين.

أوقف ليروي السيارة أمام المجموعة، فاقتربت المرأة حتى طرقت بأصابعها على مقدمة السيارة، ثم سارت نحو السائق. أدخل ليروي ذراعه لأول مرة منذ أن بدأ رحلته. مالت المرأة على النافذة واستندت عليها بكوعها.

- مهلًا.. ماذا بك يا مارثا؟

تململ هوبر في مقعده وهو يراقب تصرفات ليروي، لم يكن قلقًا بالضبط، إلا أن ملاقاة الآخرين قد منحته طاقة جديدة مختلفة.

ابتسمت مارثا وهي تمضغ العلكة. كانت أصغر سنًا من هوبر وأكبر من ليروي، ربما في أواخر العشرينيات، تظهر من تصرفاتها معالم القوة والسلطة.

نظرت مارثا إلى هوبر نظرة ناعسة، ثم عادت إلى ليروي وقالت له:

- أين كنت يا أخي الصغير؟ كنت قد بدأت في القلق عليك.

قالت عبارتها بلا أي اهتمام حقيقي.

أخي الصغير؟

توتَّر هوبر، فلم يكن لديه أي توقع عما سيحدث، لكنه كذلك لم يتوقع أن تكون هذه هي أخت ليروي. الطريقة التي تحدث بها ليروي عنها ورغبته في إنقاذها من براثن العصابة دفعت هوبر لتخيلها فتاة مذعورة مثل أخيها.

المرأة التي تقف جوار السيارة الآن أبعد ما تكون عن الخوف والذعر.

ربَّت ليروي على عجلة القيادة بكفيه وقال:

- كنت هنا وهناك.. في الجوار.

شعر هوبر أن الابتسامة التي علت وجهه مصطنعة إلى حد ما. إن لاحظت مارثا ما لاحظه فهي لم تُظهر ذلك. أومأت ونقلت نظرها إلى هوبر وقالت:

- وكل شيء على ما يرام يا ليروي؟

أومأ ليروي بسرعة وهو يربت على المقود مرة أخرى وقال:

- أجل يا مارثا واشنطن. لا تشكي في هذا لحظة. أوه، هذا هو الرجل الذي كنت أخبر القديس عنه. هوبر، هذه أختي مارثا.

توقفت مارثا عن مضغ العلكة للحظة وقالت:

- حسنًا.

استقامت في وقفتها وأشارت للشباب، فأنهوا لعبة التمثيل التي كانوا منغمسين فيها وتكوموا في المقعد الخلفي للسيارة، بينما دفعت مارثا هوبر وجلست جواره، تضغط عليه

بردفها ويصُمَّه صوت مضغها للعلكة. انزاح هوبر نحو ليروي، فابتسمت له مارثا وقالت لأخيها وهي تميل أكثر نحوه:

- عندما سمعت بنبأ عودتك، قررت أن أقابلك لنتجول سويًّا بالسيارة كما اعتدنا.

قبض ليروي على المقود وانطلق بالسيارة، أردفت أخته:

- غرب شارع 207 وشارع ديكر.

- ماذا؟

أراحت مارثا ظهرها إلى المقعد ووضعت ذراعها على كتف هوبر مائلة نحوه كأنها فتاة مدرسة ثانوية مع حبيبها. قالت لأخيها:

- لدينا مهمة ننجزها قبل أن نعود إلى البيت. وعلينا أن نتعرف على صديقنا الجديد الذي جلبته.

ثم وجهت كلامها لهوبر:

- لن تمانع في جولة صغيرة أيها اللحم الطري؟

أدار هوبر وجهه ليواجه مارثا، وكانت قريبة منه حتى كاد أنفاهما يتلامسان.

- لا أمانع، واسمي هوبر.

ضحكت مارثا، وكذا فعل الثلاثة على المقعد الخلفي، وطرق واحد منهم على ظهر المقعد الذي يجلس عليه هوبر، فتصايح الرجال منخرطين في ضحكاتهم.

نظر هوبر نحو ليروي، فهز الأخير رأسه وهتف:

- كل شيء سيكون رائعًا يا أخي.

ثم انطلقوا إلى جولتهم.

الفصل الحادي والعشرون

جرائم وجُنَح

٨ يوليو ١٩٧٧

مانهاتِن العُليا، نيويورك.

حسب توجيهات مارثا، أوقف ليروي السيارة أمام متجر ذي واجهة عرض كبيرة مُدعمة بقضبان حديدية. ظل الثلاثة على المقعد الخلفي صامتين إذ اقتربت السيارة من وجهتها، مما أسعد هوبر، فقد ظل ثلاثتهم طيلة الرحلة يضحكون ويصرخون كمراهقين هاربين من المدرسة، وقد كانت أذنا هوبر تطِنان من قبل.

صب ليروي تركيزه على الطريق صامتًا، بينما صبت أخته تركيزها على الضغط على جانب هوبر الذي ظل جالسًا في الفجوة الضيقة بين الأخوين يتساءل عن كنه الجولة المقصودة، وكيف سيختبرونه. في النهاية لم يكن لديه خيار فيما يحدث ولا فرار منه.

تبادلت مارثا بضع عبارات مع الشباب في الخلف، لكن أحدًا لم يعرفه بهم. بعد أن ركبوا السيارة بدقائق رأى هوبر انعكاس وهج برتقالي على زجاج السيارة وتصاعدت رائحة احتراق لفافة ماريجوانا. مرر الشباب اللفافة بينهم ثم أعطوها لمارثا التي سحبت الدخان منها قبل أن تناولها لهوبر.

كان على هوبر أن يفعل أي شيء ليندمج وسطهم، ونَفَسَا واحدًا من لفافة ماريجوانا لن يُذهب عقله. حرص على تعليق اللفافة بين شفتيه أطول وقت كي يعطي انطباعًا أنه يمتص الدخان بشراهة قبل أن يُرجعها لمارثا مرة أخرى. قالت لأخيها:

- ألا يريد أخي الصغير شيئًا يُهدئه؟

أدرك هوبر أنه لم يُمرر اللفافة إلى ليروي كما هو المعتاد، لكن ليروي تحدث مُنقذًا الموقف:

- كلا يا مارثا، لا أريد، أنا "تمام".

والآن، يجلسون في السيارة خارج المتجر المغلق، لكن من مكانٍ ما بالداخل يبزغ ضوء واهن بينما العمال يُتمُّون غلق الأنوار والأبواب.

أمال هوبر عنقه كي يرى بشكل أفضل من خلال النافذة، كان المتجر مُخصصًا لبيع الأجهزة الإلكترونية، وخلف قضبان نافذة عرضه الواسعة رأى عددًا من الأجهزة الحديثة غالية الثمن؛ سمَّاعات ضخمة بلاستيكية، مُعدات تسجيل صوت مُعقدة مُرصعة بالأزرار والمقابض والعدادات، ثمة أغراض أخرى مألوفة أكثر كأجهزة التسجيل والعرض.

ثم كان هناك جهاز عرض صوتي- بصري، لا كأجهزة المنازل المُعتادة، بل جهاز مُصمم لاستخدام المختصين. لم يكن شيء من المعروضات مكتوبًا عليه ثمنه، فلا حاجة للمارة بمعرفة الأسعار فمُعدَّات كتلك ليست لهم.

واحد من الثلاثة الجالسين على المقعد الخلفي صفَّق بيديه هاتفًا:

- لنبدأ، لنبدأ، لنبدأ!

خرج الثلاثة من مقعدهم، وخرج هوبر بعد ليروي من باب السائق. راحت مارثا تراقبه إذ يتمسَّك بعجلة القيادة جاذبًا جسده إلى الخارج. شعر بيد تمسك ذراعه، فالتفت ليجد مارثا تقول:

- لدي شيء يساعدك.

وأخرجت كيسًا بلاستيكيًّا أزرق اللون من جيب سترتها، وفتحته كاشفة عن أقراص ملونة، انتقت منهم واحدًا أبيض اللون بإصبعيها.

أعطت هوبر القرص، فأخذه دون تردد ووضعه في فمه، محتفظًا به تحت لسانه. كان يعلم أن عليه ألا يتردد من الآن فصاعدًا.

تحرك رُكنا فم مارثا إلى أعلى في ابتسامة شريرة، وخرجت من السيارة، بينما انحنى هوبر مُخرجًا القرص من فمه. حرك لسانه فشعر بطعم طباشيري مُر. دعا الله ألا تكون جرعة بسيطة كهذه من العقار ذات تأثير.

خارج المتجر راح الشباب الثلاثة يتقافزون في حماس، ويتحدثون همسًا بسرعة. وقف ليروي على الجانب الآخر عاقدًا ساعديه، مُستندًا إلى واجهة المتجر.

أُغلِق النور داخل المتجر، فصمت الجميع، كي لا يلاحظ من بالداخل تواجدهم. جاءت مارثا تطوِّح مطرقة بذراعها النحيل. أطلق أحد الشباب عواء ذئب وهي تقترب من الباب الأمامي للمتجر وبلا تردد أو إبطاء من سرعتها، كسرت القفل بضربة قوية من المطرقة.

غاص القفل داخل خشب الباب، ثم تهاوى تمامًا بعد بضع ضربات أخرى من مارثا، واستطاع الشباب الثلاثة اقتحام الباب بسهولة والولوج إلى الداخل.

تبع ليروي مارثا، وتبع هوبر ليروي.

كان المتجر ضخمًا مُرتبًا، تتراص المزيد من المُعدات الباهظة أمام حوائطه، وفي صفوف متوازية. أطاح الشباب ببرج من السماعات المرصوصة فوق بعضها، وفرقوا أشلاءها بركلاتهم. حين أضاء النور المركزي، رآهم هوبر يتقدمون إلى نهاية المتجر مبعثرين ما يجدونه أمامهم.

توقف هوبر ونظر حوله، لوهلة رأى ستة أولاد يجرون، وفي اللحظة التالية لم يرَ أحدًا. رمش بعينيه مرة أخرى فرأى رجلًا عجوزًا أبيض يحمل بندقية ويصرخ بشيء ما.

صوت إطلاق النار أعاد هوبر إلى عقله، واسترد على أثره ثبات رؤيته بعد أن انهال عليه فُتات من السقف بعد إصابته بطلقة الإنذار.

ما تسرب من مفعول القرص مع دخان الماريجوانا أبطآ ردود أفعاله، فشعر بخفة في رأسه كأنما أكثر من شرب البيرة دون أن يسكر تمامًا.

عاد هوبر إلى الواقع مرة أخرى مع صوت الصرخات، نظر نحو العجوز، فوجد البندقية على الأرض وسط بركة من دماء الرجل بينما قبضة هوبر ملتفة حول عنق الرجل تخنقه،

وتضغطه إلى الحائط المقابل.

رمش هو وهز رأسه، لم يكن يذكر أنه أخذ السلاح من مالكه، ولا يذكر لكمه أو خنقه بهذه الطريقة. بدأ العالم ينزلق من عقل هوبر مرة أخرى. أنَّ الرجل حين دفعه هوبر إلى الحائط بقوة أكبر فركله الرجل في قصبة ساقه بوهن.

كان الألم بسيطًا لكنه أيقظه، نظر خلفه ليرى ليروي والشبان الثلاثة يكومون المعدات المتنوعة لينقلوها إلى الخارج، ثم سمع صوتًا من مكانٍ آخر فنظر هوبر إلى الجهة المقابلة ليرى مارثا تنطلق عبر بابٍ مفتوح وتبعثر الأوراق في بحثها المجنون في الأدراج والمكاتب حتى وجدت ما تبحث عنه؛ علبة معدنية كبيرة، هزتها فسمع صوت عملات معدنية وورقية تتأرجح داخلها. حاولت كسر قفل الصندوق، لكنها فشلت، فحملته وخرجت. توقفت لحظة كي تأخذ سلاح مالك المتجر ثم أكملت طريقها مُغادرة المكان.

أصدر الرجل العجوز صوت اختناق، فالتفت هوبر ونظر إليه. كانت عيناه مغرورقتين بالدموع وتتفصد الدماء من طاقتي أنفه. تراقص اللون الأحمر القاني أمام عيني هوبر. تلاقت أعينهما لثوانٍ، ثم نادى أحدهم على هوبر.

- آسف.

همس هوبر للرجل وأطلق سراحه. تهاوى صاحب المتجر فوق بقعة من دمائه. حاول الزحف نحو مكتبه، لكنه انزلق بعد بضع بوصات واستلقى على الأرض يجاهد كي يتنفس.

قال هوبر مُجددًا:

- آسف.

ثم مسح يديه في قميصه وانطلق خارجًا من المتجر.

٢٤ ديسمبر ١٩٨٤
كوخ هوبر
هوكينز، إنديانا

وقف هوبر كي يُمدد جسده، وراح يدور في حجرة المعيشة. كانت استراحة واجبة، فذكرى سرقة متجر الأجهزة الإلكترونية لم تكن مريحة. برغم أنه حجب أغلب التفاصيل القاسية عن إيل، لكن القصة ستثير أسئلة كثيرة في عقلها وعليه أن يتعامل مع فضولها.

وقف هوبر جوار التلفاز وعقد كفيه خلف رأسه موليًا ظهره إلى المنضدة الحمراء التي تجلس إليها إيل. قالت:

- لا عليك.

أنزل هوبر ذراعيه وسألها:

- ماذا؟

تململت إيل في كرسيها وقالت:

- لم يكن هذا ذنبك.

قطب هوبر جبينه وهز رأسه، لكن إيل أكملت مُلتفتة نحوه:

- لقد أجبروك.. كما أجبرني بابا.. أحيانًا...

عاد هوبر إلى المنضدة وجلس. اعتدلت إيل نحوه لكن أبقت عينيها مثبتتين إلى المنضدة.

- أحيانًا ماذا يا صغيرتي؟

- أحيانًا ما كنت أشعر أنني لستُ من يفعل تلك الأشياء...كأنني.. أشاهد.

رفعت عينيها إليه وأردفت:

- أشاهد مثل الرجال.

- أي رجال؟

- الرجال خلف المرآة.

أفلت قلب هوبر دقتين. مد يده وداعب شعر إيل شاعرًا بالدموع الحارة تجتمع في عينيه. سألته إيل:

- ماذا حدث بعدها؟

توقف هوبر عن مداعبة شعرها ونظر إليها غير واثق مما يفترض أن يفعله. نظرت إليه مُنتظرة وقد نسيت الذكرى المظلمة التي تحدث عنها للتو. مسح هوبر وجهه وقال:

- حسنًا.. بعدها قابلت الأفاعي وزعيمهم.

اتسعت عينا إيل لدى سماعها ما قال، وسألته:

- قابلت القديس جون؟

- قابلته.

استرخت إيل في جلستها أكثر وقالت:

- أنا مستعدة للإنصات.

الفصل الثاني والعشرون

جُحر الأفاعي

٨ يوليو ١٩٧٧
جنوب برونكس، نيويورك

رحلة العودة من الشمال كانت أكثر صخبًا، فالشباب مُفعمون بالأدرينالين وظلوا يثرثرون عما فعلوه في المتجر. لم يتابع هوبر أيًّا من حديثهم فقد كانوا يتحدثون بلهجة هي خليط من لغة الشوارع والكلمات السريعة المُدغمة. كان يشعر بالغثيان والدوار، وحين كان يحرك رأسه، يبدو العالم وكأنه يدور بسرعة تختلف عن سرعة حركة جسده.

أغلق هوبر عينيه، شاعرًا بجلد الكرسي المشقق من تحته، وردف مارثا، وحركة ساقي ليروي على بدالات السيارة الممتلئة بالركاب والبضائع.

كيف اتسعت السيارة لكل شيء؟ لا يعرف، لكن صوت المحرك كان عاليًا، وتئن العجلات بحمولتها. يبدو أن نهاية السيارة العتيقة قد أوشكت.

هتف ليروي:

- تحرَّك بسرعة.. تحرك.

فتح هوبر عينيه ونظر نحو السائق الذي أبطأ السيارة وأشار بإصبعه إلى الأمام. كانوا قد دخلوا حدود برونكس منذ دقائق، والآن هم في حارة محاطين من الجهات الثلاث بحوائط عالية مُصمتة. أمامهم حائط ضخم بلا معالم تتوسطه بوابة مزدوجة هائلة. حين أضاء كشافا السيارة البوابة، انفتح فيها مدخل في حجم عادي وخرج منه رجلان، لوَّح أحدهما للسيارة ثم فتح الاثنان البوابة المزدوجة ذات آلية الغلق المُعقدة. حين فُتحت مسافة تتسع للسيارة، دخل ليروي.

كان المكان أشبه بمستودع هائل الحجم، سارت السيارة جوار حاويات شحن عملاقة وأكوام الصناديق الورقية، بعضها مكشوف وبعضها مُغطى بالمشمع. ثم رأى هوبر صفًّا من

الدراجات النارية العارية من أي زينة أو غطاء. وثمة سيارات أخرى كذلك وشاحنة يغطي المشمع مقدمتها التي بدت كبيرة وذات زوايا حادة.

أوقف ليروي السيارة في نهاية صف السيارات.

عند ركن المستودع ثمة مساحة للاجتماع من نوع ما، وكانت تعج بالنشاط؛ اللهب يتصاعد من أربعة براميل، ومن حولهم تناثرت قطع الأثاث؛ أرائك وكراسي بعضها لا يزال مُغلفًا بالبلاستيك، طاولات وطنافس وكراسي قابلة للطي، ومقاعد تخييم، ومقاعد حجرة عشاء تليق بمنزل المُحافظ نفسه.

بمجرد أن توقفت السيارة، حُوصرت، وبدأ الرجال في تفريغ الحمولة المسروقة. نزل الثلاثة من المقعد الخلفي فرحَّب بهم الآخرون بربتات قوية على الظهور.

في مقدمة السيارة جلس هوبر ومارثا وليروي، حتى أوقف الأخير المحرك تمامًا هاتفًا:

- أهلا بك في بيتنا!

ثم نظر نحو مارثا. كان هوبر جالسًا وسطهما ينقل نظره بينهما قبل أن تخرج مارثا من السيارة، فأطلق ليروي زفيرًا طويلًا بطيئًا ثم سأل هوبر:

- هل أنت "تمام" يا رجل؟

- اسألني لاحقًا.

على الفور، تجمد كل من في المستودع، وشعر هوبر بأعينهم تجتمع عليه، ولم يسمع صوتًا سوى هسيس النيران. دفع نفسه للنظر إلى عيني كل شخص حوله. ربما بسبب القرص الذي أعطته إياه مارثا، أو بسبب الماريجوانا، شعر هوبر بأنه ملفتٌ للنظر وكأنه خطا وسط الأفاعي بزي الشرطة والشارة معلقة على صدره. وقف ليروي إلى جواره ولف ذراعه حول كتفيه هاتفًا بصوت عال:

- دعني أقدمك لبعض الرفاق يا أخي.

ضحك ليروي، فاسترخى الآخرون نوعًا واستكملوا تفريغ حمولة السيارة من المسروقات، وظل الرجال يرمقون بعضهم بعضًا أثناء أداء مهمتهم. راقب هوبر مارثا إذ تخرج صندوق النقود المعدني وتدسه تحت ذراعها ثم تتوجه به إلى الركن البعيد من المستودع. صعدت سلمًا معدنيًّا يقود إلى حجرات مكتبٍ مُضاءة بالأعلى، تبعها هوبر بعينيه.. حتى رآه.

كان يقف في نافذة أحد المكاتب على ارتفاع أربعة طوابق. مكتبه مضاء فلم ير من الرجل إلا "سيلويت" أسود.

أهو القديس جون بنفسه؟

شعر هوبر بموجة من الدوار، فأغمض عينيه وأخفض وجهه إلى الأرض.

- أخي، هل أنت بخير؟

رمش هوبر ونظر أمامه، عدد من أفراد العصابة يجولون في المكان وينظرون إليه؛ رجال ونساء، بيض وسود، هيسبانيون وآسيويون. منهم من هو بالكاد في سن المراهقة، أما أكبرهم فكانا رجلين أبيضين ذوي لحى بيضاء، كأنهما توأمان من قصة خيالية منسية. كل الوجوه حوله خشنة عبوسة.

وكما توقع هوبر، كان الجميع يرتدون نفس السترات الجلدية بلا أكمام، مثل التي يرتديها رفاق مارثا، ولاحظ لأول مرة رمز الأفعى الحمراء المطبوعة على ظهورها. فيما عدا الرمز، فكل شخص ما زال يرتدي ما كان يميز عصابته التي كان ينتمي إليها سابقًا.

قال ليروي وهو يشير إلى عدد من الأشخاص ليعرف هوبر عليهم:

- سموكر، كوكي، بيتي، ليز، جاكي.

أومأ هوبر إلى كل منهم، فلم يرد أحد على إيماءته إلا سموكر، الشاب الحليق ذو الشعر البني الطويل المُصفف على هيئة شعر الممثلة فاراه فاوست. كان يرتدي أوفرولًا أزرق تحت سترة الأفاعي الجلدية المميزة، زي يليق بعامل في استوديو تصوير لا مستودع مشبوه في برونكس.

جواره، نظرت ثلاث نساء سوداوات نحو هوبر، كن يمضغن العلكة في تناغم وانضباط، ثلاثتهن يرتدين أوفرولات من الجينز فوق قمصان بيضاء قصيرة الأكمام، قُطعت سيقان الأوفرولات لتظهر من تحتها أحذيتهن طويلة الرقبة. الاختلاف الوحيد بين أرديتهن هو الشريط الذي يمسك عُقصات شعورهن إلى الأعلى. شريط شعر بيتي كان أحمر، وشريط ليز أزرق، وشريط جاكي أبيض.

زمَّ هوبر شفتيه، فنفخت جاكي علكتها على هيئة بالون صغير سرعان ما انفجر. أما كوكي فقد كان غريبًا، يرتدي بنطالًا ضيقًا من الجينز، وشعره المصبوغ بالأسود يتنافر مع لون بشرته الشاحبة، وتتدلى خصلة من شعره على عين واحدة، ولم يعرف هوبر إن كان ينظر إليه أم لا.

قاد ليروي هوبر إلى المجموعة الثانية قائلًا:

- هؤلاء هم برافو وسيتي وروبِن.

برافو كانت امرأة ذات شعر أشقر طويل ترتدي قميصًا ضيقًا، تُدخل طرفه السفلي في بنطال قصير، وتدس إبهاميها في حزامها ذي التوكة الضخمة على هيئة نجمة الشريف، التي تتماشى مع حذاءيها من الجلد المقلوب فتشبه رعاة الأبقار في السينما.

سيتي كان مراهقًا نحيلًا عاري الصدر، تظهر ضلوعه من تحت جلده، شعره طويل ناعم مثل شعر برافو. أطلق صوتًا جافًا من حنجرته أدرك هوبر أنه ضحكة، ونكز روبِن الذي كان

أطول منه بقدمٍ، ويقف عاقدًا ذراعيه، مخفيًا تعبير وجهه العدائي خلف لحية سوداء أغمق من لون بشرته بدرجة واحدة.

أما روبِن فيرتدي قميصًا مُخططًا وبنطالًا من الجينز، فكان أقرب للملابس العادية بالنسبة لما يرتديه الناس في عالم هوبر.

أيا كان ما تعنيه كلمة عادي هذه الأيام..

- ونسي ليروي واشنطن ذويه مجددًا!

التفت ليروي نحو الصوت، ورأى هوبر رجلًا أسود ضخمًا يتقدم منهما وهو يمسح كفيه في قطعة قماش قذرة. كان يرتدي السترة المعتادة ولا شيء تحتها، ويضع على كتفه زوجين من القفازات المخصصة للأعمال الشاقة. وجه الرجل كان مُلطخًا بالشحوم والقار وكأنه كان يُصلح سيارة أو مُحركًا ما.

صاح ليروي:

- اللعنة! تعالَ!

أمسك الرجلان بكفَّي بعضهما وتجاذبا، وطرقا صدريهما ببعضهما، ثم راح الرجل الأكبر سنًا يربت على ظهر ليروي بعنف بيده الممسكة بالخرقة الملوثة.

- لقد طال غيابك يا ليروي، طال للغاية. لقد قلق الناس، وتكلموا.

ابتعد ليروي عنه وهو يهز رأسه ويقول:

- كلا يا رجل، أنا "تمام".. أنا "تمام".

هنا كف الرجل الضخم عن الابتسام وقال:

- كلا يا ليروي، الناس كانوا يتحدثون عنك، أتفهم؟ يتحدثون عنك.

لعق ليروي شفتيه وقال:

- حسنًا، أنت تعرف. ماذا في وسعي أن أقول؟ كنت فقط بحاجة إلى وقت وحدي، هذا كل ما في الأمر. اللعنة، هذه ليست حضانة أطفال، أتفهم ما أقول؟ على المرء أن يحصل على بعض الخصوصية من وقت لآخر، أتفهمني؟

حدق الرجل الأكبر إلى ليروي، ثم ابتسم ابتسامة واسعة وقال:

- أفهمك يا صاحبي، أفهمك. وسمعت أنك حصلت على صيد ممتاز كذلك.

التفت نحو هوبر وأردف:

- هذا هو المُستجد؟

وضع ليروي ذراعه خلف عنق هوبر وقال:

- أجل، أجل! هذا هو رجلي، هوبر. هو بارع يا رجل، بارع للغاية.

ثم نظر إلى هوبر وقال:

- أنت "تمام"؟

- بالطبع، "تمام" جدًا.

فحص الرجل الضخم هوبر من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه، ثم مضغ شيئًا وبصقه على الأرض الأسمنتية. ربَّت ليروي على صدر هوبر وقال:

- هذا هو عرَّابي، لينكولن.

أومأ هوبر مُحييًا، فمد لينكولن ذراعه، حاول هوبر مصافحته ليجد أن الرجل يمسك بساعده ويقبض على كوعه. جذب لينكولن هوبر إليه، توتر الأخير لكنه سرعان ما أدرك أن الرجل يُحييه بنفس الطريقة التي حيا بها ليروي.

أراح لينكولن ذقنه فوق كتف هوبر، وشعر الأخير بأنفاسه الحارة عند أذنه إذ يهمس:

- خير لك ألا تكون مُحتالًا يا رجل.

ابتعد هوبر عن لينكولن، لكن الرجل الضخم ظل يحدق فيه. هتف ليروي وهو يربت على ذراع لينكولن:

- أتدعون هذا حفل ترحيب؟! لقد خاب أملي، فعلا خاب أملي. تعاليا، علينا أن نحتفل كما ينبغي.

رفع لينكولن حاجبًا، ثم ضحك واتجه نحو الأرائك الموضوعة حول النار، وتبعه ليروي.

ظل هوبر حيث هو. عاد من حوله إلى أشغالهم، وقد كوَّموا البضائع المسروقة في جانبٍ من المكان جوار الصناديق والحاويات العملاقة.

نظر هوبر مرة أخرى إلى منطقة المكاتب، ولم يكن ثمة أثر لمارثا. صعد بعينيه إلى الطابق الأخير فلم ير الرجل في النافذة.

- أتريد مشروبًا أم ماذا؟

التفت هوبر نحو الصوت ليرى لينكولن جالسًا جوار النار رافعًا زجاجة من مشروبٍ ما. زفر هوبر وتوجه إليهم.

***

يستطيع هوبر تمالك نفسه، لكن الأمر صار سخيفًا. جواره ثلاث زجاجات فارغة من البيرة، وكان ممسكًا بالرابعة مُريحًا إياها على فخذه لوقت لا يعلمه إلا الله.

كانت البيرة ساخنة لكنها متوافرة بكميات لا نهائية في صناديق مكومة عند الحائط. لم تكن النيران المنبعثة من البراميل ساخنة إلى الدرجة التي كان يتصورها، فقد كانت المساحة الشاسعة للمستودع تمتص الحرارة. أبصر هوبر من فوقه الحوامل المعدنية الصدئة التي تدعم السقف، بعضها كان مخلوعًا مُتدليًا كغصن شجرة مكسور.

جلس الآخرون على قطع الأثاث الأخرى، يشربون ما هو أعظم من البيرة. حولهم تناثرت زجاجات الفودكا والويسكي وخمور أخرى لم يتعرفها هوبر. أشعلوا بعض لفافات من الماريجوانا وتداولوها بينهم، حاول هوبر ألا يشارك في تدخينها قدر الإمكان.

لدهشة هوبر، لم يبد أعضاء العصابة مهتمين به. جلس ينصت ويشاهد، يضحك حين يضحك الآخرون حتى إن لم يفهم ما يُقال. كدخيل مُستجد على المجموعة، عليه أن يتباسط معهم ويندمج وسطهم، فقد كان يعرف أنهم قد ينقلبون عليه إن لم يستسيغوه أو شعروا أنه لا ينتمي إلى حياتهم، أو أنه قد انضم إليهم لغرض غير الذي صرَّح به ليروي.

كان يعلم كذلك أنه مُراقَب، لينكولن جالس أمامه لا يرفع عينيه عنه أغلب الوقت. يبدو أن مهمته هي إبلاغ تقريرٍ عن المُجند المُستجد للقديس جون.

ثم عادت مارثا، تضحك وتثرثر مُتجهة نحو هوبر، ولدهشته جلست على ذراع كُرسيه مُطلقة المزيد من عواء الذئاب والضحكات.

نظرت حولها إلى الآخرين، ثم إلى هوبر. أخذت زجاجة البيرة من يده وشربت منها، ثم وقفت ومدت له يدها وقالت:

- تعال معي.

نظر هوبر إلى الآخرين، ثم أمسك بيدها وتركها تجذبه. عادت الصيحات وعواء الذئاب، التفت هوبر نحو ليروي، فهز الأخير رأسه ببطء قبل أن يرشف من زجاجة تيكيلا، بينما راح لينكولن يراقبه في صمت.

سمح هوبر لمارثا أن تقوده. غادرا الدائرة وتوجها نحو منطقة المكاتب.

- إلى أين نذهب؟

- القديس يريد لقاءك.

تجمد هوبر مكانه. تركت مارثا يده لكنها واصلت السير. نظرت له مرة واحدة قبل أن تصعد الدرج.

نظر هوبر خلفه، وكانت المجموعة قد عادت إلى صخبها المعتاد. التفت ناظرًا إلى أعلى، ورآه هناك؛ "سيلويت" الرجل الغامض المُطل من النافذة.

القديس جون، زعيم الأفاعي.

استفاق هوبر فجأة وأصابه الذعر. انجلى عقله، فتبع مارثا صاعدًا.

الفصل الثالث والعشرون

رفاق السلاح

٨ يوليو ١٩٧٧
جنوب برونكس، نيويورك

المنطقة الإدارية من المستودع كانت تضم ممرات ومكاتب أكبر بكثير مما توقع هوبر، لم يكن لديه أي فكرة عما كانوا يستغلون فيه هذا المستودع في الماضي، فأغلب المكاتب كانت قد أُخلِيَت من أثاثها الأصلي وتستخدم كمخازن. اختلس هوبر النظر عبر كل بابٍ مفتوح ورأى صناديق متشابهة مكومة بلا أية علامات تميزها.

- إذًا أنت شرطي؟

أعاد هوبر انتباهه إلى مارثا التي كانت تتقدمه لكنها تنظر إليه من فوق كتفها من وقت لآخر.

- كنت شرطيًّا.

تفحصت مارثا وجه هوبر، ثم التفتت أمامها. سألها هوبر:

- أهذا كل شيء؟ ألا تريدين أن تعرفي المزيد عني؟

- ولم قد أود معرفة المزيد؟

لم يرُد هوبر، فهو لم يفهم مارثا بعد، وكانت هي أول من سأل عن ماضيه من الأفاعي، لكنها قد تكون الوحيدة التي فكرت في سؤال كهذا.

فيما عدا الزعيم طبعًا؛ القديس جون نفسه.

قادته مارثا إلى الطابق الأعلى من البناية، ثم أدخلته أحد المكاتب. كان المكان واسعًا تغطي النوافذ حائطين منه فتتيح لمدير المكان أن يرى جميع أرجاء المستودع بالأسفل. في

منتصف الحجرة طاولة اجتماعات تعجَّب هوبر من الكيفية التي أوصلوها بها إلى أعلى، وفي قبالة النافذة مكتب عملاق من نفس تصميم الطاولة. خلف المكتب بابان موصدان، وعند الحائط الآخر خزاناتٍ للملفات وأدراج عريضة للملفات الأكبر حجمًا؛ الرسومات الهندسية، الخرائط... إلخ.

لكن ما لفت انتباه هوبر هو الرجل الواقف جوار النافذة موليًا ظهره إلى الحجرة. كان يرتدي رداءً بنفسجيًّا مربوطًا عند الخصر، يصل طوله إلى منتصف الفخذ، ويشبه أردية ممارسي الفنون القتالية.

- أهلا بك وسط الأفاعي.

قالها ثم التفت. كان الرجل أكبر من هوبر، شعره قصير للغاية، ذو لحية قصيرة تحيط فكه السفلي كشريط، وبدا أن أنفه قد كُسِر في زمن ماضٍ. كان يرتدي نظارة شمسية ذات عدساتٍ عاكسة رأى فيها هوبر صورته إذ اقترب الرجل منه.

تحت الرداء كان يرتدي قميصًا أسود من الحرير مفتوحًا حتى أسفل صدره، وياقته مرفوعة. حول رقبته سلسلة فضية مُعلق فيها قطعتان معدنيتان مستطيلتان.

بالنسبة لهوبر، كانت القطعتان المعدنيتان تشبهان بطاقات تعريف المجندين التي تسمى: الأقراص المعدنية. لديه اثنتان منها في درج الكومود المجاور لفراشه في المنزل. أومأ هوبر تجاه بطاقتي الرجل.

سأله القديس جون:

- أي وِحدة؟

توقف القديس جون عن السير، ومن خلفه تململت مارثا في وقفتها. أجاب هوبر:

- سلاح المشاة. خُضت جولتين في فايتنام ورأيت أهوالًا هناك. أديت مهمتي، منحوني وسامًا على شكل نجمة ثم أعادوني إلى الولايات المتحدة الأمريكية العجوز الطيبة.

ابتسم القديس جون كاشفًا عن أسنان نضيدة بيضاء. مد يده، فصافحه هوبر. كانت قبضة الرجل قوية لكن هوبر استطاع مضاهاتها. قال القديس جون:

- أنا كنت في السلاح الجوي 101.

- النسور الصارخة.

- أفضل أوقات حياتي اللعينة. حصلت على أوسمة؟

- النجمة البرونزية.

أومأ القديس جون في تقدير وقال:

- لكم أغبطك، أيها الجندي. ما أديته في الحرب رغم طول المدة التي قضيتها لم يؤهلني للحصول على أي ميداليات أو نجوم.

- لم أطالب بتكريم، لقد أديت واجبي فقط.

- كلنا نؤدي واجبنا، أليس كذلك؟

تلاقت أعينهما لثوانٍ، لكن هوبر لم يكن ينظر إلى شيء سوى انعكاس صورته على العدسات. ابتعد القديس جون متوجهًا نحو المنضدة الكبيرة. نظر هوبر نحو مارثا الواقفة عند الباب تمضغ العلكة في ملل، ثم انضم إلى الزعيم في مجلسه.

تغطي سطح الطاولة خريطة كبيرة لنيويورك وتصميمات لشيء ما. قبل أن يتبين هوبر شيئًا جمع القديس جون كل المستندات وطواها مرتين.

- يقول ليروي أنك واقع في مشكلة مع رفاقك.. شرطة نيويورك؟

- أمور يمكنني التصرف فيها.

- جيد، لأن هذه هي شئونك الخاصة لا شئوني. لو جلبت لنا أيًّا من مشاكلك فلن تجد منا أي ترحيب بك.

أنهى ترتيب الأوراق وواجه هوبر بعدستيه العاكستين مُردفًا:

- لقد رحبت بك الأفاعي، أليس كذلك؟

- أجل، هم رفقة جيدة.

ظهرت ابتسامة القديس جون لثوانٍ قبل أن تختفي ويلتفت نحو خزانة ملفات كبيرة، ويخرج مفتاحين من داخل ردائه، فتح بأحدهما دُرجًا دس فيه الأوراق التي كانت على المنضدة ثم أعاد إغلاقه ووضع المفاتيح حيث كانت.

قال القديس جون وظهره للحجرة بينما يُسند ذراعيه إلى الخزانة:

- الأفاعي ليست كأي عصابة من البلطجية واللصوص. في الواقع أنا لا أحب توصيف «عصابة» على الإطلاق.

التفت ووجد هوبر نفسه يواجه انعكاسه مرة أخرى.

- نحن "مُنظمة". يمكنك أن تطلق علينا توصيف "طائفة". طائفة وهبت لها روحي. أتفهم يا سيد هوبر؟ أتفهم هذا؟

- اسمع.. أنا هنا بحثًا عن مكان أنتمي إليه. لقد عُدت من حفرة الجحيم تلك متصورًا أنني سأكمل حياتي وكأن شيئًا لم يحدث. أعرف أنني كنت أؤدي واجبي، لكن كل ما تلقيته حين

عدت هو: شكرًا، وهاك ميداليتك ضعها في أي درج وانسَ كل شيء عنها.

خطا هوبر خطوة تجاه القديس جون. حدَّق في انعكاس صورته في العدسات ورأى الانتفاخات تحت عينيه، والدماء تلطخ قميصه جراء ما فعل في متجر الإلكترونيات.

شعر باندفاع الأدرينالين في عروقه، فاستخدمه ليُركز كلماته ويشحذ عقله.

- لذا، فقد أديت واجبي، كما أديناه جميعًا هناك. لكن كيف عسى المرء أن يعود من كل هذا الهول؟ لقد ذهبت إلى الحرب لأسباب ظننت نفسي أفهمها، لكنني الآن لست واثقًا من أي شيء. وقد عدت لأي شيء؟ لهذا؟ لأستبدل حربًا بأخرى ودغلًا بآخر. إلا أنني هذه المرة بلا مهمة ولا أوامر أتبعها ولا وطن أحارب من أجله. لذا فأنا أبحث عن انتماء، عن شيء أحارب من أجله. لم أجد ما أبحث عنه في شرطة نيويورك فربما أجده هنا.

صمت هوبر، ونظر نحو الأقراص المعدنية على صدره الذي يتحرك إثر تنفسه الثقيل.

- وأعتقد أنك هنا لنفس الغرض، أليس كذلك؟

حدق هوبر إلى العدستين العاكستين. لم يتحدث القديس جون. لم تكف مارثا عن مضغ علكتها.

- لا تقلق يا أخي، فقد جئت للمكان المناسب. لم تصل فقط إلى خلاصك، بل إلى خلاصنا جميعًا، وخلاص المدينة التي هي الجحيم على الأرض.

أومأ ثم التفت إلى الطاولة، ومال عليها. كانت خاوية وقد رُفعت عنها الخرائط. ظل هوبر يحدق إلى عدستي نظارة زعيم الأفاعي وكأن خطته ستتجسد على سطحها أمام عينيه.

- لقد حان الوقت يا سيد هوبر. حان وقتنا.

- يوم الأفعوان؟

- أعتقد أن ليروي تحدث أكثر من اللازم.

هز هوبر رأسه وقال:

- أنا هنا، أليس كذلك؟

رفع القديس جون وجهه نحو هوبر وأمال رأسه يُمنة ويُسرة.

- ما زال أمامنا الكثير، وعلى المدينة أن تمنحنا المزيد قبل أن أطلق سراحها.

ظل هوبر معلقا نظره بنظارته. *يطلق سراحها؟* لم يفهم ما يتحدث عنه القديس جون، لكن شيئًا واحدًا كان واضحًا؛ هذا الرجل مجنون.

كان على هوبر الخوض في ذكريات فايتنام الأليمة، لكن خطته نجحت واستطاع أن يخترق عقل القديس جون سريعًا.

كلا، لم يكن الرجل مجنونًا.

القديس جون *مضطرب العقل*. رأى هوبر أمثاله كثيرًا، الحرب تودي بالناس إلى حالة كهذه، هوبر ذاته مر باضطراب مشابه. الاختلاف الوحيد بينه وبين القديس جون أنه -على عكس ما قال الآن - قد وجد غاية لحياته. لقد عاد من الحرب وأراد إصلاح العالم، ووجد طريقًا يوصله إلى مبتغاه.

القديس جون سلك طريقًا آخر. تساءل هوبر عن النقطة التي اختلفت فيها طرقهما، وهل كان الأمر ببساطة اتخاذ قرار واحد فرقهما إلى دربين غاية في الاختلاف.

أومأ القديس جون نحو مارثا وقال:

- أنزليه. يمكنه الالتحاق بفريق ليروي ولينكولن.

ثم نظر نحو هوبر وأكمل:

- أعتقد أننا سنجد عملًا كثيرًا ليديك العاطلتين.

ثم سار عبر الحجرة نحو النافذة الكبيرة، ووقف وقفته السابقة عاقدًا كفيه خلف ظهره ناظرًا نحو المستودع بالأسفل.

توقفت مارثا عن مضغ العلكة وبدت مختلفة عما كانت عليه منذ لاقاها هوبر. لم تكن خائفة أو متوترة، لكن شيئًا من عجرفتها وتسلطها قد زال وبدت أصغر وأصبى.

كما وصفها ليروي في القسم.

- اخدمني يا هوبر، واخدم الأفاعي، وسيكون لك مكان بعيد عن العرش المحترق.

نظر هوبر إلى ظهر زعيم العصابة، ثم أدرك أن القديس جون قادر على رؤية الحجرة بأكملها منعكسة في زجاجة النافذة.

لم يقل هوبر شيئًا، ثم سمع مارثا تتحرك نحو الباب.

- تعالَ. أريد أن أشرب شيئًا.

الفصل الرابع والعشرون

بيانٌ طارئ

٩ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك.

جلست ديلجادو في مكانها المعهود في حجرة الاجتماعات بالقسم رقم 65، من حولها جلس زملاؤها المُحققون. كان اليوم هو السبت، وقد بدا أن النقيب لافورنيا قد ألغى كل الإجازات.

رغم أن المقاعد قد امتلأت بالمُحققين، لكن المزيد لا زال يتوافد وقد تعرفت ديلجادو على محققين من وردية الشاويش كونلي الليلية، وقد وقفوا في نهاية الحجرة.

قُضي الأمر.

هيأت ديلجادو نفسها لسماع ما خطط إليه شريكها. التفتت في كرسيها والتقت عيناها بعيني هاريس المتسائلة عن سبب ازدحام الحجرة. قال هاريس قبل أن يدفن وجهه في قدح القهوة:

- ربما ألقوا القبض على ابن سام.

أوقف حضور النقيب لافورنيا الأحاديث المتبادلة. ثمة منصة في مقدمة الحجرة نادرًا ما يستخدمها النقيب، لكن اليوم كان مُختلفًا، حيث وقف النقيب خلف المنصة ووضع أمامه ملفًا وقبض على جانبيها بقوة. نظر نحو الحضور ثم أخفض عينيه إلى الملف.

- في الساعة المائتين من هذا الصباح، ضباط من هذا المكتب حضروا للتحقيق في جريمة قتل في جنوب سلوب. وجدوا ضحيتين في مسرح الجريمة كلاهما من المرشدين الذين يعملون مع المحققين في هذا المكتب. بفحص مسرح الجريمة وجدوا سلاحًا من أسلحة الشرطة. تم إجراء تحليل للمقذوفات على الفور في المعمل المركزي، وتأكد لدينا أن السلاح هو المُستخدم في قتل الضحيتين.

شعرت ديلجادو بالدم يحتشد في رأسها. ظلت متجمدة في مكانها تحدق إلى النقيب وهو يدلي بتفاصيل أكثر عن الجريمة. كانت موقنة أن أي حركة تصدر عنها ستكشف اللعبة.

لكن، إلهي، هذا سيئ للغاية.

توقف النقيب عن الحديث ونظر عبر الحجرة. غامرت ديلجادو بالالتفات قليلًا نحو هاريس الذي كان جالسًا بالقرب منها يهز رأسه، ورأت ديلجادو محققين آخرين يتبادلون النظرات.

تنحنح النقيب مُستعيدًا انتباههم وقال:

- السلاح كان في عُهدة المحقق جيمس هوبر.

صدحت الشهقات في أرجاء الحجرة، وراح الجميع يتبارى في إلقاء الأسئلة. رفع كفه فصمتوا.

- لم يأت المحقق هوبر إلى العمل منذ أربع وعشرين ساعة، ونعتقد أنه هارب. حتى الآن، فالمحقق هوبر هو المشتبه فيه الأول في هذه الجريمة المزدوجة. أُلغِيَت كل الإجازات حتى إشعار آخر. الشاويش مكجويجن والشاويش كونلي سيمدان ورديتيهما.

فتح النقيب فمه مرة أخرى، ثم أغلقه. تنهد وحك أرنبة أنفه ثم قال:

- اسمعوا.. أعرف أن ما قلته يبدو مُريعًا، وصدقوني هو بالفعل مريع. لكننا لا نعرف ماذا حدث على وجه الدقة لذا أقترح أن نعود إلى عملنا ونحل هذه القضية مهما كانت النتائج. لدينا واجب تجاه تلك المدينة وأتوقع أن يحمل كل واحد منا هذا الواجب. أكلامي واضح؟

سرت غمغمة موافقة لم تشارك فيها ديلجادو، وحين نظرت نحو هاريس وجدت عددًا من المحققين يحدقون إليها.

قال النقيب:

- هذا هو كل شيء. أيها الشاويش مكجويجن..

انتزع الشاويش نفسه عن الحائط حيث كان يقف وتوجه إلى النقيب الذي ربَّت على كتفه. شاهدت ديلجادو النقيب يترك المنصة للشاويش كي يبدأ بيانه.

- حسنًا أيها السادة. اسمعوني وأنصتوا فلن يغادر أحدنا قبل أن نوضح كل شيء.

وقف المحققون يسمعون هذا البيان الطارئ، وفتحت ديلجادو دفترها لتدون تعليمات الشاويش، خافضة رأسها، مُثبتة عينيها على الصفحة آملة أن يكون شريكها مُدركًا لما يفعل.

الفصل الخامس والعشرون

رسائل سرية

٩ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

راقبت ديلجادو دايان عبر المرآة غير العاكسة، وهي تفكر في الاحتمالات المُتبقية لديها.

في الحجرة الأخرى جلست دايان إلى طاولة التحقيقات عاقدة ذراعيها يعلو وجهها تعبير حازم وهي تنظر أمامها إلى المرآة. تعلم ديلجادو أنها لا تستطيع أن تراها من خلف المرآة لكن نظرتها وترتها.

استدعاء دايان لسؤالها عن غياب زوجها كان أمرًا عاديًّا، لكن ترفض ديلجادو التفكير في الأمر كمسألة اختفاء نظرًا لما تعرفه. أما احتجازها في حجرة التحقيقات لم يكن أمرًا عاديًّا قط. لم تكن دايان مشتبه بها أو حتى شاهدة.

أرسِلَت سيارة لجلب دايان بعد ترتيب أمر إقامة سارة عند آل فان سابِين في الطابق العلوي، ثم إحضارها إلى القسم رقم 65 لمقابلة لافورنيا كي يخبرها بموقف زوجها. شاهدت ديلجادو لقاءهما عبر نافذة حجرة المحققين حتى أغلق النقيب الستائر، وبينما استمر لقاؤهما السري، طلبت ديلجادو من الشاويش مَكجويجَن أن تتولى هي أخذ شهادة دايان، ووافق الرجل.

لكن ما أن انتهى اجتماع البيان الطارئ حتى وجدت ديلجادو نفسها محل الأنظار، وراح الزملاء يقدمون لها تعازيهم طيلة ورديتها الصباحية والمسائية وكأن ما قيل لهم هو نبأ وفاة والديها. استقبلت ديلجادو تعازيهم وأدركت أنها الوحيدة التي تراقب تصرفاته.

بالنسبة للآخرين، فهوبر صار شرطيًّا فاسدًا بتورطه في أمر يتعدى خلفياته كشاب ريفي من إنديانا ونتج عنه كل هذا العنف.

لم تكن ديلجادو واثقة من تُعجبها لانقلاب الزملاء في المكتب على هوبر. كان مُحقًّا حين قال لها أنهم يعاملونه كدخيل.

حاولت ديلجادو ألا تفكر كثيرًا في ردود أفعالهم إن كانت هي من اختارها جالوب لمهمة كهذه.

بمجرد أن خرجت دايان من مكتب النقيب، قابلتها ديلجادو. سُرَّت دايان لرؤيتها رغم ضيقها البادي عليها، فقد كانت تقاوم تصديق ما أخبرها به النقيب عن زوجها.

والآن، إذ تجلس في حجرة التحقيقات، بدا على دايان الضيق أكثر من أي شعورٍ آخر.

فكرت ديلجادو أنه شعور طيب منها ألا تُصدق أن زوجها متهم في قضية قتل شخصين. لم يكن لديها فكرة كيف سار أمر القضية ومن أين جاءوا بالجثتين وأين ذهبتا؟ أيمكن أن يكون جالوب قد تجاوز الحدود إلى حد القتل؟ أم أن الأمر خدعة متفق عليها صُممت لتصمد حتى انضمام هوبر إلى الأفاعي فقط؟

لم تملك ديلجادو إجابات عن تلك الأسئلة، لكن لديها زوجة هوبر الجالسة في حجرة التحقيقات. في الوضع الطبيعي من المفترض أن تؤخذ أقوالها في مكتب في حجرة الاجتماعات أو في مكتب ديلجادو. كانت حجرة التحقيقات مظلمة عطنة الرائحة، بطانة السقف منتفخة عند أحد الأركان جراء الرطوبة الضاربة في المبنى.

المكان المثالي لإفزاع المشتبه بهم.

المكان المثالي لحديث خاص.

تنهدت ديلجادو وغادرت حجرة المراقبة. حين دخلت حجرة التحقيقات نظرت دايان نحوها وهزت رأسها فقط.

- روساريو، ماذا يحدث بحق الجحيم؟ أتمنى بالفعل أن تمنحيني تفسيرًا.

جلست ديلجادو أمامها، ونظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط. بالرغم من أن ليس هناك مانع في استخدام حجرة التحقيقات لأخذ شهادة دايان، لكن ديلجادو كانت تعرف أن سرعان ما سيأتي أحدهم بحثًا عنهما. ربما كانت حذرة أكثر من اللازم، لكن هذا أفضل من أن تنسى حذرها.

- ليس لدينا متسع من الوقت.

- ماذا تعنين؟ اسمعي يا روساريو، لا يمكن أن يكون جيمس قد تورط في.. في أي من هذا الهراء الذي يزعمونه. لا أصدق أيًّا مما قاله النقيب.

احمرَّ وجه دايان. تراجعت في كرسيها ومسحت جبينها. لاحظت ديلجادو أن يديها ترتعشان بالرغم من شجاعتها وتماسكها.

- اسمعي يا دايان، أريد أن أخبرك بأمرٍ هام وأريد أن تنصتي جيدًا، اتفقنا؟ المفترض ألا أقول شيئًا لكنني وعدت هوبر...

- وعدته؟ أتحدثتِ معه؟

هنا سمعت ديلجادو صوتًا خفيضًا من خلفها. لم تلتفت، لكنها نظرت إلى عيني دايان وهزت رأسها بخفة شديدة. تجعد جبين دايان في حيرة، لكن الرسالة قد وصلتها. أحدهم في حجرة المراقبة. ميزت ديلجادو صوت بابها يُغلق، وهو شيء لن يلاحظه مشتبه به، ولا يهم إن لاحظه. الشيء الوحيد المهم أن محادثتهما لم تعد خاصة.

أخرجت ديلجادو واحدة من بطاقاتها وقلمًا، قلبت البطاقة وكتبت على ظهرها عنوانًا، ثم أخفته تحت رسغها ودفعته نحو دايان التي أخذته بعفوية مخبئة إياه تحت يدها.

هنا انفتح باب حجرة التحقيقات، ودخل النقيب لافورنيا.

- أيتها المحققة ديلجادو، هل يمكنك ملاقاتي في المكتب؟

التفتت ديلجادو في كرسيها وقالت:

- أجل يا سيدي. كنت آخذ شهادة دايان...

- الآن، لو سمحت أيتها المحققة.

وقف النقيب ممسكًا الباب بيد، وبالأخرى يشير إلى ديلجادو كي تغادر معه. التقت عينا ديلجادو ودايان، ثم قامت الأولى خارجةً وسمعت صوت النقيب من خلفها يقول:

- آسف يا سيدة هوبر، سأرسل سيارة لتوصلك إلى منزلك. أشكرك لصبرك.

***

وقفت ديلجادو أمام النقيب لافورنيا ويداها في خصرها. كانت وقفتها تلك عادة اكتسبتها ولم تكن تدرك أنها تفعلها أغلب الوقت.

لكنها كانت تدرك الآن.

كان الباب مغلقًا والستائر مُسدلة. تململ النقيب حينًا في كرسيه قبل أن ينظر إليها ويقول:

- استريحي أيتها المحققة.

- أنا بخير يا سيدي. هلا أخبرتني لأي أمر تريد مقابلتي؟ لدي الكثير لأنجزه.

- أتفهَّم رغبتك في تقديم المساعدة.

قطبت ديلجادو مُتسائلة:

- رغبتي في تقديم المساعدة؟ سيدي أنا فقط أؤدي مهام وظيفتي. لقد كلفتم كل المحققين بتقصي هذه القضية وأنا أريد أن أعود للمشاركة فيها.

- لن يكون هذا ضروريًا.

- سيدي، لست واثقةً أنني...

- شراكة المحققين نوع خاص جدًا من العلاقات يا ديلجادو. علاقة لصيقة تُنمي ما بين الشريكين بشكل شخصي أو عملي.

- لا حاجة لك بأن تخبرني كل هذا يا سيدي.

- في الواقع أيتها المُحققة يجب عليّ أن أخبرك كل هذا لأنني لست واثقًا أنك تفهمينني.

استند لافورنيا إلى ظهر كرسيه مُلقيًا قلمه على المكتب وأردف:

- أنت قريبة للغاية من هذا التحقيق، بالإضافة إلى كونك مُستجدة وهذا أكثر مما يمكننا التعامل معه.

ضيقت ديلجادو عينيها، لكن النقيب تنهد ثم أضاف:

- عودي إلى بيتك أيتها المُحققة، خذي إجازة أسبوعًا مدفوع الأجر. لن أسجل هذه الإجازة في سجلك.

- أنا بالفعل أعتقد أن في وسعي المساعدة يا سيدي.

- وأنا بالفعل أعتقد أن ليس في وسعك المساعدة أيتها المحققة. أريد أن أتأكد أن مُحققي يستطيعون العمل على هذه القضية دون تشتيت أو تحديات ممن يعتقدون أن تدخلك غير لائق.

- تحديات؟ سيدي أنا...

- عودي إلى منزلك. هذا أمر. أراك بعد سبعة أيام وربما نكون قد حللنا القضية بحلول هذا الوقت. سأتصل بك بالطبع لو توصلنا إلى شيء. اتفقنا؟

أخذت ديلجادو نفسًا عميقًا وأومأت.

- سيدي.

نظر النقيب إلى ديلجادو التي ظلت واقفة مكانها.

- أغلقي الباب بعد خروجك، أيتها المحققة.

زمَّت ديلجادو شفتيها وغادرت بلا كلمة أخرى. نظرت إلى الساعة المعلقة في حجرة المحققين بعد غلقها للباب من خلفها. أخذت حقيبتها من على كرسيها وغادرت المكتب، متجاهلة النظرات المُتعجبة من المحققين الآخرين.

توجهت إلى مطعم توم، المكان الذي يمكنها البقاء فيه طيلة اليوم لو أرادت ذلك.

فقط تمنت أن تكون دايان قد فهمت الرسالة.

الفصل السادس والعشرون

اليوم الثاني

٩ يوليو ١٩٧٧
جنوب برونكس، نيويورك

لم تكن ليلة هوبر في المستودع مُريحة، لكنها لم تكن الأسوأ.

بعد أن عاد إلى تجمع الأعضاء، شرب الجميع المزيد من البيرة، وتشارك هوبر ومارثا أريكة ذات يايات معطوبة، وانتهى به اليوم إلى النوم على ذات الأريكة بعد أن انتهى وقت الشرب.

افترض هوبر أن هناك أماكن أخرى مخصصة للنوم في المستودع إذ إنه وجد الساحة خالية تمامًا عندما استيقظ شاعرًا بألم في عضلاته وأسفل ظهره.

- جائع؟

انتفض هوبر قائمًا، فوجد مارثا تحمل علبة بيتزا وضعتها على المنضدة ثم ألقت بنفسها على الأريكة جوار هوبر. فتحت الصندوق وأخرجت شريحة من الشريحتين الباردتين وتناولتها بفم مفتوح.

بيتزا باردة على الفطور؟ تنهد هوبر وأخذ الشريحة الأخرى. كل ما كان يريده حقًّا هو القهوة. الكثير منها.

نظر حوله وهو يأكل، كانا بمفردهما في المكان.

- أين الجميع؟

- يعملون، وعلينا أن نفعل مثلهم. لقد نمت كثيرًا يا صديقي، لكن هذا أمر مقبول في ليلتك الأولى. أما الليلة الثانية فلا نوم. إن كنت تريد أن تكون ضمن الأفاعي فعليك اتباع قواعدنا.

- وهذه القواعد تشمل البيتزا الباردة على الفطور؟

ضحكت مارثا وقالت:

- هذا أفضل ما أمكنني تقديمه، لقد فوَّت وجبة الصباح في "الميس".

مضغ هوبر وهو يفكر فيما قالت، ثم التفت إليها وسألها:

- ألديكم "ميس"؟ مطعم جنود؟

- بالتأكيد. القديس يحب أن تُنفذ الأمور على وجه خاص. هو يطلق لفظة "ميس" على الحجرة التي نأكل فيها. بها طاولة كبيرة ومقاعد، ونأكل هناك في صِحاف معدنية في حصص تشبه حصص الجيش. دعني أخبرك أن البيتزا طعام فاخر مقارنة بما نأكل في «الميس».

- وأين ننام إذًا؟

- ذكرتني. عليَّ أن أجد لك مكانًا. أنت في فريق ليروي ولينكولن، فسأجد لك مكانًا معهما.

أشارت بحافة البيتزا الجافة نحو كومة قريبة من الصناديق وقالت:

- خذ لفافة.

- لفافة؟

- أجل.

قام هوبر متثاقلًا وسار إلى حيث أشارت مارثا، ممددًا ساقيه وذراعيه في طريقه. كومة الصناديق كانت مُغطاة جزئيًّا بقماش المشمع. سحب هوبر الغطاء ليجد أن الصندوق العلوي مفتوح وبه عدد من اللفافات القماشية المربوطة بأشرطة، فأخذ هوبر واحدة.

كانت اللفافات عبارة عن حشيات للنوم، مثل التي قضى عليها لياليه في فايتنام. أدار اللفافة بين كفيه فوجدها أصلية، يبدو أن الأفاعي قد أغاروا على متجر فوائض الجيش.

- تعال.

قالتها مارثا وقامت متوجهة نحو المكاتب ثم أردفت:

- سأجد لك مكانًا للمبيت ثم نبدأ العمل.

لدى الأفاعي مطعم جنود، ويحصلون على حصص طعام مثل المجندين، وينامون على حشيات ملفوفة.

لم تكن الجماعة تبدو لهوبر كعصابة، بل أقرب إلى جيش خاص.

حمل هوبر حشيته، وتبع مارثا إلى عُمق البناية.

الفصل السابع والعشرون

تفسيرات

٩ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

كانت القهوة في مطعم توم سيئة حتى أن ديلجادو تساءلت إن كانت تشرب من نفس وعاء أمس، لكن هذا لم يمنعها من شرب ثلاثة أقداح، بل أربعة، حتى جاءت دايان. كانت تحمل سارة ولم تستطع ديلجادو أن تمنع نفسها من الابتسام للطفلة التي اتسعت عيناها حين رأت الفطائر المُحلاة تُقدم إلى زبائن على طاولة قريبة.

اقتربت دايان من المقصورة التي تجلس فيها ديلجادو، والتي كانت بالمصادفة نفس المقصورة التي قابلت فيها هوبر أمس. عقدت دايان اتفاقًا مع سارة تتعهد فيه بأن تشتري لها الفطائر المُحلاة لو تأدبت أثناء مقابلة ماما مع صديقتها. هزت سارة رأسها بسرعة في حماس. بعد دقائق وصلت فطيرة محلاة وكوب من القهوة لدايان.

استحسنت ديلجادو الفكرة، فالفطيرة المحلاة ستشغل سارة بينما تسمع أمها حقيقة ما حدث لزوجها، لكن دايان تحدثت أولًا.

- اسمعي يا روساريو، عليك أن تخبريني بما يحدث وبما تورط فيه جيم. أعرف أن الأمر ليس جريمة قتل مزدوجة، وأجزم أنني حين رأيتك في القسم عرفت أنك تعلمين الحقيقة. لذا فاختصري و...

قطعت دايان حديثها ونظرت نحو سارة المشغولة بتقسيم الفطيرة إلى مربعات صغيرة بطرف شوكتها. مالت دايان نحو ديلجادو وأردفت بصوت منخفض:

- اختصري وقولي لي أن جيم بخير.

حبست ديلجادو أنفاسها، فهي لم تكن تعرف دايان جيدًا وربما قابلتها مرتين فقط خلال الأسابيع الستة التي عملت فيها مع هوبر، لكنها كانت تعرف أن دايان عنيدة، قوية مثل

زوجها ولم تكن تتوقع منها أقل من هذا، مما سيسهل عليها مهمتها.

فيما عدا..

نظرت ديلجادو إلى بداية الطاولة، وشعرت دايان بمزاج رفيقتها يتغير فمالت نحوها أكثر وسألتها:

- ماذا بك؟

- لا أستطيع أن أجيب على سؤالك لأنني لا أعرف الإجابة.

تنهدت دايان ومالت خلفًا وهي تقول:

- لا تعرفين إن كان زوجي بخير؟ ظننتك على علم بما يحدث.

رفعت ديلجادو كفها وقالت:

- مهلًا.. أنا أعرف ما يحدث. لا أملك صورةً كاملة لكنني أعرف بالقدر الكافي، وكما أخبرتك فقد عاهدت زوجك أن أعني بك، وجزء من هذه العناية إراحة تفكيرك.. أو محاولة ذلك على أية حال.

نظرت سارة إليهما وذقنها ملوث بالعسل. ابتسمت لأمها، فأزاحت الأخيرة شعر الطفلة عن جبينها في رفق، ولم تكن بسمتها صادقة كابتسامة طفلتها.

سألت دايان:

- إن كنتِ تعرفين ما يحدث، فلم لا تستطيعين أن تخبريني إن كان جيم بخير؟

- لأنني لا أعرف إن كان بخير، وهذه هي الحقيقة. أنا حتى لا أعرف أين هو.

تنهدت دايان، وشعرت ديلجادو ببعض من طاقتها وغضبها يتلاشى تاركًا إياها تتضاءل في كرسيها. كانت تحاول وتجاهد، لكن الوضع أصعب مما تستطيع تحمله.

- دايان، المفترض ألا أخبرك بهذا، وإن عرف أي شخص أنني أخبرتك سنتورط في مشكلة عظيمة. زوجك ليس هاربًا، لا أعرف أين هو لكنه لم يختف. جريمة القتل الثنائية مجرد غطاء لمهمة يقوم بها زوجك للمباحث الفيدرالية. هم يحاولون إسقاط عصابة خطرة ذات صلة بقاتل البطاقات المتسلسل.

صمتت ديلجادو، فدايان كانت تحدق إليها، ثم ابتسمت وانفجرت في البكاء. توقفت سارة عن تقطيع الفطيرة ونظرت إلى أمها وسألتها:

- ما بك يا مامي؟

مسَّدت دايان شعرها مرة أخرى وأجابت:

- لا شيء يا حبيبتي.

ثم التفتت إلى ديلجادو وهي تمسح دموعها وأردفت:

- أخبريني بكل ما تعرفين.

أومأت ديلجادو، ورشفت من القدح، ثم بدأت في الحكي.

الفصل الثامن والعشرون

تحقيقات عبر المدينة

١٠ يوليو ١٩٧٧
مانهاتِن، نيويورك

وصلت ديلجادو إلى آخر عنوان في قائمة هويلر بحلول عصر يوم الأحد. كان العنوان لمركز مُجتمعي في جنوب مانهاتن يقبع في بناية حديثة محشورة بين مبنيين قديمين مُقسمين إلى شقق سكنية.

هذا هو العنوان الثالث الذي تزوره ديلجادو اليوم ومن قبله زارت مقرين لاجتماعات المتعافين من إدمان الكحوليات، ومقرين لاجتماعات المحاربين القدامى. لم تكن واثقة من قبول الاجتماعات لوجودها، لكنهم رحبوا بها ترحيبًا دافئًا، وقد لاحظت لاحقًا أنهم يرحبون بأي شخص ولا يحكمون على أحد، فقد كان هذا هو الغرض الأساسي من هذه الاجتماعات. أتاح هذا لديلجادو الفرصة كي تشاهد وتراقب دون أن تثير الشكوك.

من بين كل الاجتماعات التي حضرتها، لم تجد صلة بقاتل البطاقات إلا في اجتماع لمحاربين قدامى عائدين من حرب فايتنام تحديدًا، ولم تكن هذه الصلة مباشرة حتى.

بالحديث مع بعض الحضور أثناء استراحة القهوة، علمت ديلجادو أن هذه المجموعة جديدة نوعًا مؤلفة ممن تبقى من أعضاء مجموعة سابقة انحلَّت بعد اختفاء مؤسسها.

وكان المؤسس هو جوناثان شنيتزر..

الضحية الأولى.

حين عرضت عليهم ديلجادو صورة جايكوب هويلر من الملف الذي استعارته، تعرف عليه اثنان من الأعضاء رغم انخفاض جودة الصورة. كان قد حضر مرتين اجتماعات سابقة.

رغم علم ديلجادو أنها على الدرب الصحيح، لكن ما زال أمامها همٌّ كبير. كانت قد وجدت خيطًا في اجتماعٍ واحد من أربعة اجتماعات حضرتها، والساعة قاربت على الرابعة عصرًا.

ما تحتاجه هو حضور عدد من الاجتماعات وفي وقتٍ واحد، وهذا مستحيل.

كانت بمفردها، تعمل على قضية المفترض ألا تعمل عليها.

نظرت ديلجادو خلال نوافذ المركز المجتمعي، ورأت إعلانًا معلقًا مع عدد آخر من الإعلانات كي يراها المارة في الشارع.

كانت في المكان الصحيح، لكن هل تأخرت؟

مكتوبٌ في الإعلان: تم إلغاء اجتماع المحاربين القدامى الساعة الرابعة عصرًا.

اجتماع المحاربين القدامى؟ هذا هو الاجتماع الذي تريده.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم دخلت المكان قاصدة مكتب الاستقبال. رفعت المرأة خلفه نظارتها إلى أعلى شعرها المموج ونظرت نحو ديلجادو.

- أتبحثين عن شيء؟

لم يكن الوقت وقت تمثيل. أخرجت ديلجادو شارة الشرطة من حقيبتها وأبرزتها. أعادت المرأة نظارتها إلى عينيها وحدقت إلى الشارة، ثم نظرت نحو ديلجادو من فوق إطار نظارتها.

- هل حدث شيء؟

- أنا المُحققة ديلجادو.

أعادت ديلجادو الشارة إلى مكانها ثم أشارت إلى النافذة الأمامية حيث عُلِّقت الإعلانات.

- المفترض أن يُقام اجتماع المحاربين القدامى في الرابعة؟

قامت المرأة من كرسيها مُتجهة نحو النافذة ومالت كي تتأكد أنها أمسكت الإعلان الصحيح قبل أن تُزيله وقالت:

- كان من المفترض أن يُزال هذا الإعلان، فالمجموعة لم تعد تتقابل هنا.

- متى كان آخر اجتماع لهم؟

عادت المرأة إلى مكتبها وهي تقول:

- دعيني أتأكد.

فتحت دفترًا كبيرًا عند كوعها وراحت تقلب بين الصفحات، مُحركة إصبعها عند أوائل السطور قبل أن تقول:

- ها هو. لم يأتوا من هنا منذ شهر. كانوا يحضرون مرتين أسبوعيًّا، يومي الأربعاء والأحد.

قطبت المرأة وقلبت الصفحة التالية.

- دفعوا مقدمًا لشهر، لكنهم لم يقيموا أي اجتماع. آسفة، كان علينا أن نُزيل الإعلان.

ثم بدا وكأنها تذكرت شيئًا، ففحصت الدفتر مرة أخرى ووضعت إصبعها على سطر بعينه، ثم رفعت نظارتها إلى أعلى رأسها مرة أخرى.

- فوَّتوا أول يوم أربعاء لأن مؤسس مجموعتهم لم يحضر. حاولت زميلتي التي كانت مكاني يومها الاتصال به لكنه لم يرد. وحدث نفس الشيء يوم الأحد. ظهر عضوان وحاولا الاتصال بالمؤسس ولم يرُد.

شعرت ديلجادو أنها تعرف الإجابة على سؤالها التالي.

- هلا أخبرتني اسم المؤسس؟

- زميلتي التي تولت أمر الاتصال به ليست هنا. يمكنني البحث عن رقمه. لكن، ألن نحتاج إلى تصريح أمني أو شيء من هذا القبيل؟

-أنا فقط أريد الاسم.

بحثت المرأة عبر صفحات الدفتر ثم قالت:

- سام باريت.

ثم أدارت الدفتر كي تستطيع أن ترى ديلجادو الاسم. كان تخمينها صحيحًا، مؤسس جماعة المحاربين القدامى هذه هو سام باريت.

الضحية الثانية.

كان لدى ديلجادو سؤال آخر. أخرجت صورة جايكوب هويلر وعرضتها على المرأة.

- هل رأيتِ هذا الرجل من قبل؟

أنزلت نظارتها على قصبة أنفها وقربت الصورة من عينيها ثم أبعدتها وقطبت جبينها.

- ربما. لا أعرف، من الصعب أن أجزم. الصورة غير واضحة.

- هلا فكرتِ قليلًا؟

تنهدت المرأة وكأن ديلجادو تتطفل على يومها. نظرت إلى الصورة مرة أخرى ثم أعادتها إلى المحققة.

- يوم الأربعاء.. كان هنا يوم الأربعاء حين كان الأعضاء يسألون عن مؤسس مجموعتهم. ما الأمر؟ لا نريد أي مشاكل هنا.

أعادت ديلجادو الصورة إلى حقيبتها وقالت:

- لا مشاكل، لا تقلقي. لقد ساعدتِني كثيرًا.

استدارت مُغادرة، وهي تسمع المرأة من خلفها تتنهد مرة أخرى. توقفت ديلجادو على الرصيف بالخارج وفكرت فيما عرفته عن جوناثان شنيتزر وسام باريت وجايكوب هويلر، ثم استدارت على عقبيها وعادت إلى عُمق المدينة. ثمة اجتماع آخر تود حضوره، وشخص آخر تود مقابلته.

دكتورة ليزا سارجيسون.

نظرت ديلجادو إلى ساعتها، لو أسرعت لاستطاعت اللحاق بموعدها.

الفصل التاسع والعشرون

الوصول المُتأخر

١٠ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

وصلت ديلجادو اجتماع ليزا قبل بدئه بدقائق. اخترقت جموع الحاضرين فلفتت نظر مؤسسة المجموعة إذ وصلت إلى الصفوف الأولى.

- مرحبًا أيتها المحققة! لم أتوقع أن أراكِ هنا. هل حدث شيء؟

- كنت فقط أتساءل إن كان في وسعي سؤالك بعض الأسئلة.

جعدت ليزا أنفها وقالت:

- هل الأمر عاجل؟ اجتماعي على وشك البدء.

فتحت ديلجادو حقيبتها وأخرجت صورة جايكوب هويلر وهي تقول:

- لن آخذ من وقتك الكثير. أتعرفين هذا الشخص؟

لكن ليزا كانت تهز رأسها نفيًا بالفعل وهي تقول:

- كلا. من هو؟

- اسمه جايكوب هويلر، لدينا معلومات أنه كان يحضر عددًا من مجموعات الدعم في أكثر من مكان في المدينة خلال الأسابيع القليلة الماضية.

- لكن هذه ليست مجموعة دعم، ونحن من نختار الحضور. لم أره أو أسمع اسمه من قبل.

- حسنًا. هل تعرفين من يُدعى جوناثان شنيتزر أو سام باريت؟

هزت ليزا رأسها نفيًا مرة أخرى وقالت:

- كلا. لم أسمع هذه الأسماء من قبل.

- حسنًا، شكرًا لك.

تقوس كتفاها يأسًا، وحين رأت نظرة ليزا المتعجبة، ضحكت وقالت:

- أنا بخير. كنت فقط أحاول اتباع بعض الخيوط.

- لو أن هناك ما أستطيع مساعدتك به، أخبريني أي وقت.

ثم اتسعت عينا ليزا وهي تضيف:

- هل لبحثك علاقة بقاتل البطاقات؟

- أخشى أنني.. أنني لا أستطيع الخوض في هذه التفاصيل.

كان هذا حقيقيًا، لكنه كذلك كان غطاءً لتحركاتها السرية، فلو عرف أحدهم أنها تعمل على القضية بعد أن منعها النقيب من ذلك فستدفع ثمنًا باهظًا.

- لكن أشكرك على وقتك.

التفتت ديلجادو فرأت امتلاء المقاعد بالحضور الذين راحوا يثرثرون في انتظار بدء الجلسة. قالت ديلجادو:

- لو أن هناك أي أخبار تهمك سأخبرك.

سارت ديلجادو في الممر بين المقاعد ثم دفعت الباب المزدوج عند نهاية القاعة. سارت إلى الخارج فمرت جوار رجل طويل ذي قصة شعر عسكرية ونظارة عاكسة، تزين وجهه لحية كشريط أسفل فكه. لعله أحد المشاركين وقد وصل متأخرًا.

لم تعره ديلجادو أي انتباه.

الفصل الثلاثون

فليدخل الأفعوان

١٠ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك.

انتهى اجتماع ليزا، وانصرف الحضور إلا شخصان كانا يتسكعان جوار الباب بينما تجمع مستشارتهم ومؤسسة مجموعتهم حاجياتها.

سار الرجل في الممر، نظرت ليزا نحوه. أومأ برأسه نحو المقاعد، وبرغم أن عينيه مخفيتان خلف نظارة ذات عدسات عاكسة، فهمت ليزا الرسالة.

- يمكنك مساعدتي طبعًا، شكرًا لك. كنت سأطلب من الحضور المساعدة في جمع المقاعد، لكنني خشيت أن أظهر بمظهر مُدرسة الابتدائي.

ضحك الرجل وبدأ في جمع المقاعد وتكويمها في جانب من القاعة. راقبته ليزا وهو يعود ليكوِّم صفًا آخر.

- معذرة، لكن لا أظننا التقينا من قبل. لست من أعضاء مجموعتي.

توقف الرجل لوهلة، ثم أكمل ما كان يفعل. كان طويلًا ذا بشرة برونزية طبيعية، يرتدي قميصًا بنفسجيًّا تحت سترة جلدية سوداء، وحول عنقه تتدلى سلسلة معلق بها قطعتان معدنيتان مستطيلتان.

توترت ليزا فجأة حين وعَت إلى الغريب. حضور مجموعاتها كان مُنتقى ومُراقبًا، لكن الكنيسة كانت مكانًا عامًّا أبوابها مفتوحة دومًا، وليزا لم توصد الأبواب بعد انتهاء اجتماعها، ويمكن لأي شخص أن يدخل.

كان الرجل أمامها يشبه الآخرين من أعضاء مجموعتها. كانوا مجموعة مختارة من المُطلق سراحهم، تؤهلهم تلك الاجتماعات إلى الاندماج في المجتمع بدلًا من الانضمام إلى العصابات التي تملأ نيويورك.

عصابة مثل التي ينتمي إليها الغريب.

حين انتهى من صف المقاعد جوار الحائط، لمحت ليزا الشعار على ظهر سترته الجلدية؛ أفعى حمراء ملتفة، مُخرجة لسانها المشقوق، وتحتها كلمة واحدة: الأفاعي.

أخذت ليزا شهيقًا واقتربت من الرجل، فقد تعاملت مع مثل هذه النوعية من الأشخاص من قبل، ويحتاج أمر إفزاعها إلى ما هو أكثر من شعار عصابة.

اقتربت ليزا أكثر من الغريب حين التفت لها وهي تقول:

- معذرة. عليك أن تغادر الآن وإلا طلبت الشرطة.

رفع الرجل يديه إلى أعلى وأومأ، فترجعت ليزا خطوة إلى الوراء مُبعدة نفسها عن مرمى يده. ربما استطاعت الاستغاثة، فبعض الأعضاء لا يزال يجول بالخارج.

كانت حقيبة ليزا في مقدمة القاعة، وفيها صاعق كهربي ورذاذ فلفل وعصاها السحرية القابلة للطي. على الساكنة في نيويورك أن تأخذ حذرها.

هي تستطيع أن تحمي نفسها.

تستطيع أن تتصرف معه.

قال الرجل:

- آسف، لم أتعمد الاقتحام، لكنني أؤكد لك أنني لا أبغي إيذاءك ولا إزعاجك.

تراجعت ليزا خطوة أخرى إلى الخلف. تصرفه كان غريبًا، الطريقة التي يتحدث بها لم تكن طريقة حديث بلطجي محترف. كان متعلمًا، ذكيًّا، مُختلفًا. وظل مُبقيًا يديه حيث تراهما.

- أنتم تقومون بعمل رائع هنا. عمل نحتاجه لمساعدة المدينة وساكنيها. أهنئك. في الحقيقة هذا هو السبب الذي جئتك من أجله.

- جئت تُهنئني؟!

ضحك الرجل وقال:

- أجل، وكي أعرض عليكِ وظيفة.

- معذرة، لكن هل قلتَ ما سمعته حقًّا؟

- أنا أمثل منظمة لـ...

أومأت ليزا إلى الشعار وقالت:

- تقصد عصابة.. الأفاعي. هل نسيت أنك تعلن عنها على ظهر سترتك؟

ضحك الرجل مرة أخرى هاتفًا:

- أجل، الأفاعي. لكن كما قلت هي ليست عصابة، بل منظمة. في الحقيقة فقد اقترضت بعض مواردي من مصادر أخرى، لكنها منظمة غير إجرامية، ولا خيرية كذلك كتلك التي تعملين بها، لكن أهدافنا واحدة؛ مساعدة المحتاجين. تعجبني مجموعتك وأريدك أن تنضمي إلينا.

هزت ليزا رأسها وقد علمت أن الرجل لن يهاجمها. تحركت نحو مقدمة القاعة، ولفت حمالة حقيبتها بسرعة حول كتفها وجمعت باقي حاجياتها فيها.

- آسفة، أيًّا كان ما تبيعه فأنا لن أشتري. حظًا سعيدًا مع مجموعتك، لكنني مرتاحة هنا. أشكرك.

- مرتاحة بهذا الأجر الضئيل؟

- ماذا تعني؟

نظر الرجل إلى ما حوله فاردًا ذراعيه وقال:

- لقد ألقوا بك في مكان هكذا ويدفعون لك الفتات بينما تعملين هنا بجد كي تنقذي العشرات في الجلسة الواحدة. تعالي واعملي معي وسوف تنقذين المئات، وسوف تستطيعين دفع إيجار شقتك في موعده.

- يجب أن تغادر الآن.

- هل تريدين أن تصنعي فارقًا؟ ألا تريدين أن تفعلي شيئًا ذا قيمة؟ أن تساعدي الناس؟ هذا ما ولدتِ لأجله. تعالي واعملي معي. معًا سنساعد المدينة بأكملها.

تنهدت ليزا في غضب، فقد جارت هذا الرجل كثيرًا، لكن شيئًا فيه بدأ يضايقها.

- كيف تعرف من أنا وماذا أفعل وأنت لست عضوًا في المجموعة حتى؟ هل تعرف عضوًا فيها؟ هل تحدثت مع أحدهم؟

- أوه، دكتورة سارجيسون.. أنا أعرف من تكونين. أعرف عملك، وأبحاثك عن إعادة التأهيل المجتمعي.. تحف فنية. درست عملك وأرى أنك ذات عقل مذهل.

عظيم! هو إذًا مُتعقب يمضي وقته في مراقبتها والبحث وراءها في المكتبات العامة. همَّت ليزا بالحديث لكن الرجل رفع كفه وقال:

- هل أجد معك قلمًا؟

- قلمًا؟!

أومأ الرجل، ومن سترته أخرج علبة ثقاب حمراء أدارها بين كفيه كأنما يتأكد أنه لا يحتاجها، ثم مد يده نحو ليزا فوجدت نفسها تخرج قلمًا من حقيبتها وتعطيه له. أخذ القلم ومال مستندًا إلى بيانو هناك وكتب شيئًا على علبة الثقاب.

- هذا عنواننا. فكري في الأمر. أشعر أنك ستأتين. حين تكونين مستعدة تعالي وقابليني. سأنتظرك.

قطع الجزء الذي كتب فيه العنوان في برونكس وأعطاه لها.

- ماذا؟

أعاد لها قلمها، فأخذته. استدار مغادرًا، وفي منتصف طريقه نظر من فوق كتفه إليها وقال:

- سعيد لمقابلتك مرة أخرى يا دكتورة سارجيسون. أتمنى أن تصلي إلى القرار السليم.

ثم انصرف تاركًا ليزا وحدها في القاعة.

وقفت ترتعد، ثم نظرت إلى قطعة الورق في كفها. تنهدت ودستها في حقيبتها، ثم توقفت حين أدركت أن نصف المقاعد لا يزال مكانه وعليها أن تعيده إلى جوار الحائط. وضعت حقيبتها على الأرض وشرعت في تكويم المقاعد، ولم تغادر صورة الرجل الغريب ذهنها قط.

٢٦ ديسمبر ١٩٨٤
كوخ هوبر
هوكينز، إنديانا.

توقف هوبر عن الحكي حين رأى نظرة الحيرة على وجه إيل. كان الوقت قد تأخر وقد تعب هو أكثر مما تعِبَت.

فتحت إيل فمها في ذهول، فرفع هوبر حاجبه وسألها:

- ألديكِ سؤال؟

عقدت إيل ذراعيها وقالت:

- كيف.. كيف عرفت؟

- كيف عرفت ماذا؟

- ما حدث مع ديلجادو وليزا. أنت لم تكن هناك.

- ملاحظة ممتازة. لكننا.. أعني أنا وديلجادو، جلسنا وتبادلنا ما مر بنا لاحقًا. كان علينا استجواب كل من قابلنا ثم كتابة تقرير ضخم مفصل في النهاية. في الحقيقة كتابة هذا التقرير أخذ منا وقتًا أطول مما قضيناه في التحقيقات نفسها، وقد أرسلونا لتسليمه إلى فيدراليين مجهولين ذوي بذلات في مبنى أنيق عملاق. لقد استجوبونا وعصرونا حتى آخر قطرة ولا أعرف حتى الآن من يكونون. هذا ملخص كل ما حدث.

أومأت إيل ببطء، لكن تعبيرات وجهها أخبرت هوبر أنها غير مقتنعة بعد.

- أعترف أن بعض المعلومات لم يكن واضحًا حقًّا، أتعرفين؟ فعلنا ما بوسعنا بعدها كي نُكمل الصورة عما حدث للناس وفيم كان يفكر الآخرون. هذا ما يعنيه أن تكون مُحققًا.

حرك كفيه على الطاولة أمامه كأنما يخلط بطاقات لعب غير مرئية وأردف:

- على المحقق أن يجمع كل تلك المعلومات المتنوعة، والشهادات، والمعلومات التي عرفها بنفسه ثم يجد طريقة كي ينسقها سويًّا ليرى الصورة الكاملة. الأمر ليس سهلًا لكن كثيرًا ما يكون بعض المعلومات بلا معنى، والبعض يقولون ما لم يحدث فعلًا حتى لو كانوا يعتقدون أنهم يخبرون بالحقيقة. أعني أنني أخبرك هذه القصة الطويلة الآن بعد أن سكنَت في مؤخرة عقلي لسنوات. أحيانًا ما يحتاج المرء كل هذا الوقت كي يدرك ما حدث فعلًا.

وضع يديه على حِجره وهز كتفيه مُكملًا كلامه:

- عادةً ما تكون هناك فجوات في الحكاية وعليك ملؤها حتى لو لم تكوني متأكدة من صحة ما تملئينه بها. لكن كما قلت، هذا جزء من وظيفتي؛ على المحقق أن يجمع كل ما يعرف ويخلق منه قضية، ولو أدى المحقق واجبه على أكمل وجه يمكن لما جمعه أن يصمد كقصة كاملة مقنعة.

كانت إيل تنظر إلى الطاولة، ولم يقدر هوبر على فهم تعبير وجهها، ولم يكن في حاجة إلى ذلك. القصة كانت ضخمة ومعقدة وطويلة للغاية، أطول مما انتوى أن يكون طولها.

لكن الظلام قد أغرق القصة، ولم يدرك هذا في خضم محاولاته لقطع الأحداث غير المناسبة لسنها. تساءل إن كان قد غاص أكثر من اللازم في السواد. لكن عليه أن يخبرها بالحقيقة، من أجل نفسه. ثمة معلومات لم يسترجعها منذ زمن، وكانت إيل تحتاج -وتريد- أن تعرف ماضيه.

لكن.. لم يكن ينتوي أن يحكي لربيبته الصغيرة قصة عن جماعة شيطانية وقاتل متسلسل. حاول أن يتذكر كيف كان تفكيره حين كان في عمر إيل وكيف سيكون رد فعله على قصة

كهذه.

لكنه لم يحصل على إجابة.

مال نحو الطفلة مرة أخرى وقال:

- الوقت قد تأخر يا طفلتي، ربما نكمل الحكاية غدًا.

رفعت إيل رأسها هاتفةً:

- كلا!

- إمم.. أليست قصة مفزعة بالنسبة لكِ؟

صمتت إيل كأنما تفكر في إجابتها بحرص، ثم قالت باسمة:

- نصف مفزعة فقط!

ثم اختفت ابتسامتها وأردفت:

- الأمر فقط...

- ماذا؟

- هل كنت حقًّا بخير؟ أنت هنا الآن، لذا من المفترض أنك كنت بخير وقتها.

ابتسم هوبر، ثم تحولت ابتسامته إلى ضحكة. أنار وجه إيل واسترخت.

- أجل يا إيل، خرجت من كل هذا بخير حال.

أومأت إيل في رضا.

- هل تريدين أن تكملي الاستماع؟

ابتسمت.

- حسنًا إذًا، أين كنا؟

أكمل هوبر من حيث توقف، وهو يفكر في سؤال إيل واهتمامها به.

أجل.. لقد خرج من كل هذا بخير..

بالكاد.

الفصل الحادي والثلاثون

ديلجادو تقرر

١٢ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

رفعت ديلجادو سماعة الهاتف، ثم أنزلتها. كررت ما فعلت ثلاث مرات قبل أن تقوم وتدور في دائرة ضيقة في منتصف شقتها.

قبل أن تفعل ما عليها فعله، يجب أن تتأكد من أنها اتخذت القرار الصحيح. الحقيقة أن أحداث الأمس لم تتوقف عن التكرار في عقلها.

لو اتخذت هذا القرار، فلن يكون ثمة مجال للتراجع. ستتورط في الأمر مهما كانت النتيجة.

لذا، عليها التأكد أنها ستتخذ القرار الصحيح اليوم، لأن غدًا سيكون الوقت قد فات. عادت إلى حجرة المعيشة محاذرة أن تطأ أيًّا من الأوراق المتناثرة على الأرض. على الأريكة دفترها المفتوح الذي أمضت ساعات من ليلة أمس في كتابة نظرياتها فيه. أخذت الدفتر وقرأت آخر صفحة كتبتها. عند بداية الصفحة اسمان تحيطهما دائرتان متصلتان بخط؛ جوناثان شنيتزر وسام باريت. كانا مؤسسين لمجموعتي دعم محاربي فايتنام القدامى. مجموعتان ناجحتان حتى اختفى مؤسساهما وانحلَّتا.

الضحية الثالثة، جايكوب هويلر، كانت الأغرب. لكن قضية مقتله تلائم نظرية ديلجادو. ربما كانت تقفز إلى استنتاجات متسرعة، لكنها كانت متأكدة أن نظريتها صحيحة لأن جايكوب هويلر العميل المتخفي الذي يعمل مع الفيدراليين قد زار كل عنوان في القائمة، خاصة المجموعتين الخاصتين بشنيتزر وباريت.

بعد كل زيارة يُقتل مؤسس المجموعة ويتفرق الأعضاء، وسرعان ما لاقى هويلر نفس المصير وقتله قاتل البطاقات الذي كان يستهدف المجموعات ومؤسسيهم لهدف لا يزال غامضًا حتى الآن بالنسبة لديلجادو، لكن هويلر كاد أن يصل إليه.

لذا توجَّب الخلاص منه وصار الضحية الثالثة. هزت ديلجادو رأسها مفكرة في صحة نظريتها. هل هي حقًّا صحيحة أم هي فقط تأمل أن تكون صحيحة؟

ما صلة ليزا بكل هذا؟ وهل لها صلة أصلا؟ هي تعرف بطاقات زينر وتدير مجموعة تقام في عنوان من العناوين المدونة في قائمة هويلر. لكن كما رأت ديلجادو بنفسها، فثمة العديد من المنظمات التي تستخدم قاعات الكنيسة الميثودية في اجتماعات مختلفة.

وماذا كان يفعل هويلر؟ كان يحقق في أمر الأفاعي، لكن هل لاحق القاتل المتسلسل؟ أم أن تقاطع تحقيقاته عن العصابة وقضية القاتل المتسلسل كان محض صدفة؟

هل قُتل بالخطأ حين ظن القاتل أنه يلاحقه بينما كان يعمل هويلر على قضية مختلفة تمامًا؟

حدقت ديلجادو إلى دفترها حتى زاغت عيناها، فوضعت الدفتر على الأريكة ودارت دورة أخرى في الشقة.. وأخيرًا قررت. هناك فرصة أنها قد اكتشفت أمرًا هامًّا، أمرًا نافعًا، أمرًا ربما يساعد شريكها حيث هو.

عادت إلى الهاتف ورفعت السماعة تتصل بالمكتب الفيدرالي المحلي.

- اسمي المحققة روساريو ديلجادو، من القسم رقم 65. أحتاج إلى الحديث مع العميل الخاص جالوب فورًا.

الفصل الثاني والثلاثون

وقت اتخاذ القرار

١٣ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

- لا أفهم يا جيري. ماذا تقول؟

سارت ليزا عبر شقتها وهي تجر خلفها سلك الهاتف الطويل، محاولة فهم ما يقوله لها رئيس مجلس إدارة المؤسسة الخيرية التي تمول مجموعة إعادة التأهيل الخاصة بها.

لم يكن لما يقول أي معنى.

- معذرة يا دكتورة سارجيسون، لكنني لا أجد طريقة أخرى أخبرك بها ما أريد قوله. سنوقف برنامجك فورًا. وافقت المؤسسة على دفع مستحقاتك لباقي الشهر، لكنني أخشى أن هذا سيكون آخر ما سندفع لك.

توقفت ليزا في منتصف الرواق وأمسكت جبينها بكفها. تنهد جيري عبر الهاتف وهو يقول:

- آسف للغاية. لكننا لن نستطيع الاستمرار في تجربتك.

قبضت ليزا على سماعة الهاتف. ماذا قال للتو؟!

- تجربتي؟ هل تمزح يا جيري؟ ما أقدمه ليس تجربة. أنت تعهدت بتمويل المجموعة لمدة عام، وبعد مرور ستة أشهر أعلنت أن النتائج ممتازة. في الواقع أنت قلت أن النتائج فاقت توقعاتك، حتى أن شرطة نيويورك اللعينة كتبت لك خطاب توصية. هل أقرؤه لك عبر الهاتف يا جيري؟

- دكتورة سارجيسون.. ليزا.. أفهم...

- وأنا لا أفهم.

- سأكون صريحًا معك. الأمر يتعلق بالمال. لن يكون لدينا أي مال بعد الآن.

- ماذا تعني بـ"بعد الآن"؟

- انظري خارج النافذة يا ليزا. لم تعد نيويورك كما كانت. الناس قد يئست من إصلاحها. آسف لقولي هذا، لكن الأمر ينطبق على ممولينا. لذا فاعذريني، لن يمكننا الاستمرار.

تهاوت ليزا على الأريكة جوار النافذة العملاقة.

- لا يمكننا التخلي عنهم يا جيري، أعضاء المجموعة يتحسنون وعلينا الاستمرار في دعمهم. لا يمكننا أن نلغي الاجتماعات ونحن نعرف ما قد يحدث لهم من انتكاس.

- لا أعتقد أنك تقدرين نفسك حق قدرها يا دكتورة سارجيسون، ولا تقدريننا.

- معذرة؟

- مجلس الإدارة وافق على توزيع الأعضاء على مجموعات أخرى. ربما كانت مجموعتك الأفضل في المدينة، لكنها ليست الوحيدة. عملك كان ممتازًا وقد قدمتِ مساعدات عظيمة. أعلم أن مقاطعة رحلتك معهم ستقلل من فعالية ما قمتِ به، لكنهم سيكونون بخير وسيشكرونك أنت على ما قدمتِ له.

استمرت المحادثة من طرف جيري فقط، بينما انجرف عقل ليزا بعيدًا عما يُقال. لم تكن تُصدق.. كل هذا الوقت والجهد والعمل ضاع هباءً بهذه البساطة.

لم تكن هي المرة الأولى التي مرت فيها بظرف كهذا بالطبع، لكن على الأقل في روكوود أدركت أن السفينة تغرق ونجت بنفسها. أما هذه المؤسسة الخيرية فقد كانت أحوالها ممتازة.

لن تترك تعبها يضيع.. لن تسمح بهذا.

لكن الآن، لم يكن أمامها خيار. أنهت المكالمة بينما يعتذر جيري ويُعرب عن تفهمه وتعازيه. الحقيقة أنها كانت مثالية في عملها.

لم يكن الخطأ خطأها، بل خطأهم.

أعادت ليزا السماعة إلى الهاتف وتراجعت بظهرها إلى ظهر الأريكة.، ثم رفعت وجهها ليحدق إلى السقف. أغمضت عينيها وظلت على هذا الوضع لدقائق.

أخيرًا قامت، فهي لن تترك شيئًا يوقفها عن مساعدة الناس، فهي بارعة في هذا المجال بحق.

ربما ما زلت أمامها فرصة.

هرعت إلى حقيبتها وفتشتها ملهوفة حتى وجدت ما تبحث عنه؛ البطاقة التي أعطاها لها رجل الأفاعي أمس. أدارت الوريقة بين كفيها. على أحد أوجهها المكان الذي جاءت منه علبة الثقاب؛ مطعم في برونكس اسمه مطعم لويس. على الوجه الآخر العنوان الذي خطَّه الرجل.

ما هو التصرف الأمثل؟ هذا جنون، أليس كذلك؟ لم تكن لديها فكرة من يكون الرجل. كان ذكيًا، لبقًا، لكنه بدا كرجل عصابات يرتدي شعار عصابته حتى لو كان يقول أن تلك العصابة «منظمة».

لكن.. ماذا لو كان يقول الحقيقة؟ لأن ما قاله عسير أن يكون مُختلقًا. لو كان عضوًا في عصابة، فلأي غرض يريد خدماتها؟ العصابات لا تهتم بتطوير أعضائها أو خدمة الآخرين.

إذًا ربما كان يقول الحقيقة..

أو ربما كان كاذبًا.

لكن ألا يستحق الأمر التقصي؟ لم يكن لديها شيء آخر تفعله، أو وظيفة تشغلها إلا وظيفة ساحرة المسارح. لو أن الرجل يقول الحقيقة فربما كان في استطاعته تمويل برنامج تأهيل خاص به، من النوعية التي كانت تطمح لها في روكوود، وكانت تمارسها في المنظمة الخيرية. تمويل يساعدها كي تتفرغ تمامًا لـ...

كانت قد عقدت عزمها. يمكنها أن تلقي نظرة، ففي أسوأ الاحتمالات لن تخسر إلا رحلة طويلة إلى برونكس.

لكن ما هي أفضل الاحتمالات؟

وضعت ليزا الوريقة في حقيبتها، وتحققت من وجود الصاعق ورذاذ الفلفل وعصاها معها، ثم توجهت إلى برونكس.

الفصل الثالث والثلاثون

زيارة منزلية

١٣ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

كانت ديلجادو واقفة تحدق إلى قائمة الأسماء المكتوبة جوار أزرار جهاز الاستدعاء، حين انفتحت بوابة المبنى. نظرت ديلجادو إلى أعلى ورأت التي جاءت لتزورها واقفة عند الباب.

- المحققة؟!

قالتها دايان وابنتها جوارها تمسك بيدها.

- هل عندك أخبار؟

- كلا، آسفة.. لم أكن أريد أن أفاجئك بزيارة منزلية.

هزت دايان رأسها وقالت:

- لا عليكِ. كنت جالسة طيلة اليوم جوار النافذة. أخذت إجازة لسارة من المدرسة حتى تمر تلك الأزمة، لكن عندما رأيتك في الشارع.. ظننت أن شيئًا قد حدث. لم أقصد أن أفاجئك أنا بفتحي للباب!

- حسنًا.. ثمة أشياء حدثت.. لم أسمع شيئًا عن هوبر، لكن فكرت أن آتي وأخبرك وجهًا لوجه. أعتقد أنك في حاجة إلى رفقة، فقد عاهدت زوجك أنني سأرعاكِ. والآن، ألن تدعيني إلى شاي وكعك؟

ابتسمت دايان وفتحت الباب على مصراعيه.

- أنت دومًا مُرحبٌ بك. سأجن وأنا محبوسة هنا.. تفضلي.

دخلت ديلجادو إلى المبنى وقادتها دايان عبر الدرجات.

- من هنا.

وتبعتها ديلجادو.

الفصل الرابع والثلاثون

قديس جنوب برونكس؛ القديس جون

١٣ يوليو ١٩٧٧
جنوب برونكس، نيويورك

حسنًا.. هذه غلطة..

ليزا ناضجة بما يكفي كي تعترف بخطئها، ولو كانت صادقة مع نفسها لراودتها الشكوك منذ اللحظة التي غادرت فيها شقتها. لكنها كانت غاضبة حانقة بحاجة إلى وقتٍ للتفكير، والذهاب إلى وجهة مكتوبة على ظهر علبة ثقاب كان إلهاءً مناسبًا.

الآن تسير على رصيف مليء بالأخاديد في بلدة صناعية، تنظر إلى الساحات الشاسعة من حولها، والمحاطة بأسلاك شائكة عملاقة ومستودعات ضخمة في حجم مرائب الطائرات وتفكر في أن المكان لا يصلح للتجوال.

اليوم كان حارًا والسماء صافية زرقاء، لكن المكان لم يكن مما يحب المرء التسكع فيه، حتى أن سائق سيارة الأجرة رفض أن يُنزلها عند العنوان بالضبط، وألقى بها على بُعد عدة أميال، وقد أراح ضميره بتحذيرها من هذا المكان.

وصلت ليزا نهاية الشارع الذي راح يضيق حتى انتهى إلى حارة ضيقة بين حائطين عاليين لمستودعين بينهما مستودع ثالث. ربما كانت المستودعات الثلاثة متصلة ببعضها. ثمة باب مزدوج يتسع لمرور شاحنة، ولم يكن أمامها سواه.

هذا حمق. لا يمكن أن يكون هذا هو العنوان الصحيح. من الصعب إيجاد المكان الذي تريد في منطقة صناعية كهذه ما لم تكن تعرف وجهتك بالضبط. كانت قد سارت أكثر من ميل منذ أن أنزلها سائق سيارة الأجرة، ولو صح حدسها، فالطريق الرئيسي موازٍ للشارع الذي تقف فيه. لو استطاعت السير عبر إحدى الساحات الخالية فستصل إلى العمران وستجد سيارة أجرة سريعًا.

فركت كفيها ثم رفعت يدها اليمنى مفتوحة الأصابع لتجد أن خاتم المزاج اسودَّ لونه علامة على توترها..

أو أن الخاتم مُعطل.

- خاتم أحمق.

أنزلت يدها محاولة إيقاف اندفاع قطار الأفكار في رأسها. الخاتم كان قديمًا ويبدو أنه فقد قدرته على تغيير الألوان.. لكن، هل كان حالكًا هكذا في بداية اليوم؟

قالت لنفسها أنه خيالها لا أكثر، عادت تقرع بحذاءيها الأرض، ويتردد الصوت عاليًا بين حوائط المستودعات الشاهقة المُصمتة. يبدو أن المكان مهجور؛ لم تر ليزا أي شخص أو سيارة أو شاحنة أو أي شيء. لكن هذا لم يُطمئنها. مجيئها إلى هنا كان خطأً، قرارًا مُتسرعًا وُلد من رحم الغضب. لكن لا بأس، كل ما عليها هو العودة إلى بيتها وإغراق حزنها في الحانة الإيطالية الصغيرة القريبة من شقتها.

كان عليها التوجه إلى تلك الحانة بعد مكالمة جيري مباشرة.

ما أن ابتعدت عن المستودعات وانعطفت يسارًا كي تعبر الساحة، ظهر أمامها رجل من الناصية التالية. شهقت ليزا في مفاجأة وتوقفت مكانها، ثم تراجعت. ابتسم لها الرجل وهو يمضغ العلكة، ويدس إبهاميه في عروتي بنطاله الجينز. كان يرتدي قميصًا أبيض قصير الكمين تحت سُترة بنية بلا أكمام، ويربط عصابة خضراء مبرومة حول سلك أسود حول رأسه. قال وهو يقترب منها ببطء:

- لمَ ستغادرين سريعًا يا سيدتي؟ لا لا لا.. لا يمكن أن تأتي إلى هنا دون أن تلقي علينا التحية أيتها السيدة الصغيرة. هذا سوء خُلُق منك.

استمرت ليزا في التراجع وهي تجذب حقيبتها وتفتحها وتدس يدها فيها. هز الرجل رأسه وتوقف عن مضغ العلكة وقال:

- ماذا لديك في الحقيبة أيتها السيدة الصغيرة؟ أتريدين أن تلعبي؟ هه؟

أخرجت عصا مطوية من حقيبتها وهزتها فانفردت. ابتسم الرجل وصفق بيديه ثلاثًا.

- جميل أيتها السيدة الصغيرة. جميل جدا. ما رأيك يا جوكي؟

سمعت صوت حركة من خلفها، استدارت ليزا ورأت رجلًا آخر يرتدي مثل الأول تقريبًا يخرج من ناحية المستودع. ركل الحصى على الأرض فاصطدم بالحائط المعدني المجاور، ثم دس سيجارة مشتعلة بين شفتيه.

- يبدو أننا سنمرح كثيرًا معها.

قالها جوكي وألقى بالسيجارة أرضًا متبوعةً ببصقة. استمرت ليزا في تراجعها محاولة تهدئة نفسها. إن كانت تنتوي النجاة من هذا الموقف فعليها تمالك مشاعرها والتركيز. هما يفوقانها عددًا، لكنها مُسلحة، ولم يكونا بعيدين عنها وعصاها سلاح فعال في اليد المناسبة.

في يدٍ كيديها.

تراجعت أكثر والرجلان يقتربان من بعضهما ويتصافحان قبل أن يلتفتا إليها. اقتربا منها وابتعدت هي محافظةً على المسافة بينهم. ثم نظرت إلى أعلى لترى المستودعات تحيطها من الجانبين. لقد تراجعت حتى اقتربت من الحائط.

هنا ظهر الآخرون من فوق سطحي المستودعين، أربعة فوق كل مبنى، أبعد من أن يشكِّلوا عليها خطرًا، لكنهم أكدوا لها كم كانت مخطئة. لم تكن وحدها أبدًا طيلة الطريق، لقد دخلت في فخ.

ضحك جوكي ورفيقه، ومن فوق الأسطح صفق الآخرون وتصايحوا.

قبضت ليزا على عصاها، لو استطاعت الفرار من الرجلين أمامها فالباقون بلا قيمة. ثم سمعت قرعة معدنية متبوعة بصوت احتكاكٍ عال. اختفى الرجال فوق الأسطح مرة أخرى وتوقف جوكي ورفيقه وتراجعا في ذعر.

غامرت ليزا ونظرت خلفها، فوجدت بابًا أصغر لم تلاحظه من قبل انفتح بداخل البابين الأكبر وخرج منه رجل تلمع عدسة نظارته العاكسة في الظلام.

عبر جوار ليزا ليواجه الرجلين وقال بصوت منخفض مُهدِّد:

- هذه ليست طريقة مناسبة للترحيب بضيفتي.

نظر الرجلان إلى بعضهما ثم إلى الرجل.

- سأتصرف معكما لاحقًا.

ثم استدار مبتسمًا نحو ليزا.

- أنا سعيد لقدومك.

ثم أومأ نحو عصاها وأردف:

- ومعجبٌ باستعداداتك، لكنني سعيد أنك لم تضطري لاستخدامها. إخوتي ينسون أنفسهم أحيانًا.

سألته ليزا:

- ما هذا بحق الجحيم؟ لم طلبت مني أن آتي إلى هنا؟ ومن أنت بالضبط؟

- أخبرتك يا دكتورة سارجيسون، طلبت منك المجيء لأنني أحتاج إلى مساعدتك. اسمي القديس جون، وهذا المكان ملكي. أهلا بك.

الفصل الخامس والثلاثون

مُستَجدُّون

١٣ يوليو ١٩٧٧
مكان ما، نيويورك

بعد يومين من تحميل وتفريغ الشاحنات، أخيرًا استطاع هوبر الحصول على ثقة الأفاعي في تنفيذ مهمة حقيقية. ذهب ليروي ولينكولن ليتحدثا مع الزعيم، ثم عادا بعد قليل ليقودا هوبر إلى السيارة الضخمة المتهالكة. تكوم الثلاثة بداخلها خارجين إلى الليل الصيفي.

كانت الصالة الرياضية قديمة، لكنها مؤثثة بشكل ممتاز. أحصنة القفز كانت مصفوفة جوار الجدران، والحبال والحلقات معلقة من السقف ومربوطة في نظام إلى الحوائط. كان أغلب أثاث المكان بني اللون يفوح برائحة العرق والقهوة الطازجة الموضوعة في وعائين ساخنين على المنضدة جوار أحصنة القفز.

دار الرجال الثلاثة حول المدخل، يرتدي ليروي ولينكولن قميصين أبيضين وقد تخليا عن سترات العصابة في السيارة. ارتدى هوبر سترته المنتفخة وأغلقها كي يخفي آثار الدماء على قميصه. رغم برودة الجو في الخارج لكن الصالة الرياضية كانت أبرد.

أو هكذا خُيِّل له.

كان يشعر بالسوء حيال مهمتهم هذه.

في منتصف الصالة حلقة من المقاعد بعضها كان شاغرًا. الحضور يتبادل الأحاديث الجانبية ويبدو أنهم قد اجتمعوا هنا لغرض ما.

يبدو أن هذه مجموعة دعم، لكن ليست للمتعافين من إدمان الكحول، أو للمتعافين من الإدمان عمومًا، ولا لأصحاب الأمراض المزمنة أو العاطلين أو ضحايا العنف المنزلي.

كل الحضور كانوا من الرجال المتماثلين في العمر، ثُلثهم تقريبًا يرتدي سترات عسكرية قديمة، ورجل منهم يعلق قرصين معدنيين يتدليان على صدره، بينما تعد أصابعه حبَّات

السلسلة التي تحملهما كأنها مسبحة. والجميع يدخن تقريبًا.

كان هوبر قد قرأ الإعلان عند المدخل ومن هنا بدأ شعوره بعدم الراحة.

علم هوبر بوجود هذه الاجتماعات لمقاتلي فايتنام القدامى، وكان يعلم بأهميتها. لقد عاد من الحرب بلا أذى جسدي، لكنه مر بأوقات عصيبة للغاية. لم يحتج هوبر إلى مساعدة مثل البعض، لكنه شعر بالامتنان لوجود مثل هذه الاجتماعات لدعم من يحتاج.

أما عن سبب وجوده هنا مع ليروي ولينكولن، فليس لديه أي فكرة عنه، لكن عليه أن يعرف بنفسه. مجرد وجوده في نفس الحجرة مع محاربين قدامي يشعره بالغثيان. كان يعتبر وجوده هو وعضوي عصابة الأفاعي خرقًا للخصوصية وغزوًا لدائرة أمان أولئك المحاربين.

ابتلع هوبر عصارة معدته التي تهدد بالخروج إلى حلقه، وسار نحو حلقة المقاعد. لم يكن يريد التواجد هنا ولا يريد أن يفعل هذا، لكنه كان يعرف أن وجوده مُبرر وله أسبابه الشريفة لأنه بهذا سيجني ثقة القديس جون، ومن ثَمَّ معرفة مخططه والسبب وراء استهداف الأفاعي لمجموعة كتلك.

كلما أسرع في جمع المعلومات، كان أسرع في إيقاف كل المخططات البغيضة.

كلها.

خلال دقائق، كان الرجال قد جلسوا في مقاعدهم، وجلس ليروي ولينكولن في قبالة بعضهما، عن يمين ويسار هوبر. أمامه جلس رجل لا يظهر في عينيه النظرة الفزعة الدائمة في أعين أغلب المحاربين القدامي. كان يرتدي سترة ثقيلة للغاية بالنسبة للطقس الحالي، ويمسك قلمًا في يده.

قال وهو يضع ساقًا فوق ساق ويريح عليها دفتره:

- أهلا بكم جميعًا وشكرًا لقدومكم. اسمي جورج، وسعيد لأن أغلب مجموعتنا حاضر الليلة.

أدار عينيه في الوجوه قبل أن يتوقف عند هوبر ويقول مبتسمًا:

- وسعيد أن بيننا وجوهًا جديدة كذلك. من يريد أن يبدأ بالحديث الليلة؟

سمع هوبر الهدير في أذنيه، وظهرت ومضات بيضاء عند ركني عينيه وقبل أن يفهم ما يحدث، وجد نفسه يتحدث.

- مرحبًا. اسمي جيم.

كرر الجميع: أهلا جيم. ابتسم لهم هوبر غير واثق مما يفعل، غير واثق حتى إن كان هذا هو صوته الذي يسمعه يتردد في أرجاء الصالة.

عن يمينه ويساره رأى ليروي ولينكولن يتبادلان النظرات. أردف هوبر:

- أهلا بكم.. أ.. حسنًا.. قلت أن اسمي جيم، وقد خدمت في فايتنام.

مال مُسندًا كوعيه على ركبتيه واسترسل في الحديث.

***

دارت بينهم أكواب القهوة، لكن هوبر لم يستمتع بها، فقد صبها في حلقه بعد أن تحدث طويلًا واحتاج إلى سائل دافئ يهدئ حنجرته. صب لنفسه قدحًا آخر، ووقف جوار المنضدة ممسكًا به، يحرك عنقه على الجانبين مغمض العينين. لم يكن لديه فكرة عما اعتراه، وكيف كان يحبس كل هذه التفاصيل بداخله، لكن...

- جيدة، أليس كذلك؟

فتح هوبر عينيه ليرى واحدًا من الحضور يصب لنفسه القهوة من وعاء طازج. رشف هوبر من كوبه وقال:

- لقد شربت ما هو أسوأ.

أضاف الرجل المُبيَّض والسكر إلى كوبه، واتجه ليقف جوار هوبر.

- كنت أعني المجموعة لا القهوة.

وأشار بكوبه نحو الحضور. ضحك هوبر وقال:

- أوه! أجل، الحقيقة أنني أشعر بالراحة فعلًا.. أقصد، لا أعرف تحديدًا كيف أشعر الآن.

- أعرف ما تشعر به. اسمي بوب بالمناسبة.

مد الرجل كفه نحو هوبر مُردفًا:

- الشاويش ديفلين روبرت دوجلاس. أنا في ظهرك يا جيم.

كرر العبارة التي يقولونها في المجموعة إعلانا عن مؤازرة بعضهم بعضًا. قال هوبر:

- وأنا في ظهرك يا بوب. سعيد لمقابلتك.

راح الاثنان يرشفان القهوة جوار المنضدة يراقبان الحضور حولهما، لكن لم يكن ثمة أثر لليروي أو لينكولن.

لعق هوبر شفتيه وقال:

- أنت تحضر تلك الاجتماعات بانتظام؟

- نعم ولا. أحضر الاجتماعات بانتظام، لكنني لا أحضر هذا الاجتماع فقط.

- أجل، أعرف أن ثمة مجموعات مماثلة في أماكن مختلفة من المدينة. تستطيع حضور أي واحدة تشاء، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، فلسنا مثل مجموعات المتعافين من إدمان الكحول. لكنهم يفضلون أن ينتظم الأعضاء في الحضور. من الصعب العودة إلى الحياة العادية، فهم يقولون أننا نحتاج إلى الاتزان، كما تحتاج السفينة إلى مرساة.

ابتسم هوبر وقال:

- أجل. أهذه واحدة من قطوف حكمة جورج؟

ضحك بوب وقال:

- أفهم ما ترمي إليه. لا، هذه حكمة من مجموعة أخرى. حكمة جيدة كذلك. أواظب على حضور تلك المجموعة منذ عامين أو أكثر، مجموعة جيدة هي ويروق لي قائدها أكثر مما يروق لي جورج. بعض الناس تتميز بموهبة عن سواها، أتعرف هذا؟ أو ربما أنا أحب التغيير ولقاء زملاء جدد. أحتاج إلى الاستقرار.

- هل تنقل محل إقامتك أم ماذا؟

- ماذا؟ كلا. هذه المجموعة ستنحل. هذه أمور تحدث.

- أعرف.

- لكن هذه خسارة كبيرة. جاء الأمر على نحو مفاجئ.

جال هوبر بنظره في الحجرة، لكنه لم يرَ زميليه. عاد ليواجه بوب وينصت إليه بذهن شارد.

- مفاجئ؟

- أجل.

مد يده وتناول كيسًا آخر من مُبيض القهوة، قطع طرفه بأسنانه ثم أضاف المسحوق الأبيض إلى قهوته.

- مؤسس مجموعتنا توقف عن الحضور فجأة. لم يرسل رسالة أو يرتب بديلًا له. فقط اختفى ولم يسمع عنه أحد. خسارة فعلًا. سام كان رجلًا رائعًا، من أفضل الرجال.

توقف كوب القهوة في منتصف الطريق إلى فم هوبر الذي سأل:

- سام؟

- أجل. سام باريت. أتعرفه؟

جرع هوبر قهوته. سام باريت مؤسس مجموعة الدعم هذه هو الضحية الثانية. لم يقل هوبر شيئًا.

- فقط أتمنى أن يكون بخير أينما كان. كان واحدًا منا وقد عانى ما عانيناه، أتفهمني؟ معذرة، لقد شربت الكثير من القهوة وأحتاج إلى استخدام دورة المياه.

أومأ هوبر وراح يراقب المحارب القديم إذ يعيد كوبه إلى المنضدة ثم يتجه نحو دورات المياه.

سام باريت..

بالطبع هوبر يعرف أن هناك علاقة بين الأفاعي والقديس جون وقتلى البطاقات. لكن سماع الاسم على لسان شخص آخر جعل هوبر يشعر ببرودة إضافية.

هنا ظهر ليروي جوار هوبر. وضع هوبر كوبه على المنضدة وأغمض عينيه كي يقلل إحساسه بالغضب، لكنه ظل يغلي من الداخل.

كفى..

دفع هوبر ليروي جانبًا نحو صف أحصنة القفز، وهو يقول في حنق:

- ماذا يجري بحق الجحيم يا ليروي؟ ماذا يفعل القديس جون اللعين؟ هل يُجند أشخاصًا من أماكن كهذه؟ أخبرني أنني قد أسأت الفهم، لأنه لو صح فهمي فهو يتغذى على الضعفاء، على أشخاص مثله من المحاربين القدامى. ساعتها أقسم أن...

دفع ليروي هوبر إلى الخلف وقال:

- مهلًا يا رجل، اهدأ!

- لن أهدأ! إلامَ يخطط الأفاعي يا ليروي؟ أتيت لنا بمعلومات وأردت أن نحميك، لكن بمجرد أن أفقت مما كنت قد تعاطيته، تبخرت المعلومات!

هندم ليروي قميصه ونظر حوله. لم يكن أحد يعيرهما اهتمامًا إذ بدأ الحضور في العودة إلى مقاعدهم.

- هوبر، هلا هدأت يا رجل؟ عليك أن تحذر مما تقول. نحن معًا في هذا، أليس كذلك؟ اتفقنا؟

ضيق هوبر عينيه. نظر إليه ليروي ثم أشاح بوجهه. يستطيع هوبر أن يرى هذا التعبير من على بُعد ميل. سنوات قضاها كشرطي وقد رأى فيها الكثير.

- ما الذي تخفيه عني يا ليروي؟

- هل نحن "تمام" هنا؟

عاد لينكولن فدفع ليروي هوبر.

- نحن "تمام".

نظر لينكولن إليهما ثم رفع إبهامه فوق كتفه وقال:

- تلقيت استدعاء. القديس يريدنا.

سأل ليروي:

- ماذا؟ لماذا؟

- لا يخبرني القديس بالأسباب يا ليروي، وهو يعرف أنني لن أسأل عنها. يريدنا أن نعود لذا سنعود.

استدار مبتعدًا، فالتفت هوبر ليواجه ليروي، لكن الأخير تبع زميله.

غادر هوبر القاعة عابرًا جوار جورج الذي كان آتيًا من دورة المياه. توقف جورج في منتصف القاعة هاتفًا:

- جيم، هل أنت بخير؟ كنا سنبدأ الآن، لمَ لا تأتي و...

- معذرة يا جورج، يجب أن أرحل الآن. لكن أشكرك، لقد ساعدتني كثيرًا.

كانت السيارة تنتظر في الخارج، ورأى هوبر أن لينكولن يجلس في المقدمة الآن بينما ليروي خلف المقود. ركب هوبر في المقعد الخلفي وصفع الباب وراءه، وقد بدأ ليروي في التحرك بالفعل.

٢٦ ديسمبر ١٩٨٤
كوخ هوبر
هوكينز، إنديانا

راح هوبر يمد ساقيه ماشيًا بين المطبخ والمنضدة الحمراء. مسح وجهه ومرر كفه في شعره، ثم توقف وظهره نحو إيل مُخفيًا تعبير وجهه عنها. مسح وجهه مرة أخرى ثم نظر عبر نافذة المطبخ. رأى انعكاسه شاحبًا وإيل من خلفه.

مجموعة دعم محاربي فايتنام.. لقد نسي هذا الموضوع. كلا، لم يكن الأمر كذلك، فهو لم يستطع أن ينسى، لكنه تعلم عبر السنوات أن يضع ذكريات كهذه في مكان بعيد من عقله، مكان تنام فيه الأحداث ولا تُنسى...

حتى الآن.. حتى الليلة، حين وصلت حكاية هوبر إلى الوقت الذي زار فيه مجموعة الدعم مع ليوري ولينكولن.

اندهش هوبر من مشاعره تجاه تلك الذكرى، من عُمق مشاعره. كان يعرف أنه سيحكي هذه الأحداث، لكنه لم يفكر فيها إلا حين ربطها برد فعل إيل.

بالطبع لم يحكِ ما حكاه أثناء هذا الاجتماع، لكن فضول إيل لن يهدأ. لن يحكي أبدًا عما حدث له في فايتنام. هكذا اتفقا. هذه الحكاية عما حدث له في نيويورك.

تقاطُع القصتين، والمكانين بهذه الطريقة لم يكن متوقعًا، وشعر هوبر بالحمق. من المنطقي بالطبع أن يتقاطعا.

- هل أنت بخير؟

أخذ هوبر نفسًا عميقًا والتفت مُستندًا إلى منضدة المطبخ وهو ينظر نحو إيل.

- أجل، أنا بخير. هذه قصة طويلة بالفعل. تذكري أن في وسعنا التوقف في أي وقت.

هزت إيل رأسها نفيًا، ثم عبست وهي تقول:

- تبدو متعبًا.

- يمكن للمزيد من القهوة إزالة أي تعب.

طرق منضدة المطبخ بكفيه وبدأ في تحضير القهوة، وظلت إيل صامتة من خلفه لبضع دقائق، ثم قالت:

- أنا في ظهرك.

تجمد هوبر ثم لف رأسه جانبًا.

- ماذا؟

- ماذا تعني هذه العبارة؟

شعر هوبر بجسده يسترخي. أجاب:

- هذا تعبير نستخدمه في الجيش. في بعض الأحيان حين تسيرين بمفردك، فإنك لا ترين ما ورائك، لذا تحتاجين إلى رفيق يحمي ظهرك. هذا هو معنى «أنا في ظهرك»، والبعض يستخدمون هذه العبارة كناية عن المؤازرة، أو بمعنى: يمكنك الاعتماد عليَّ. أتفهمين؟

أومأت إيل وقامت تجول في المكان، وتمدد ساقيها. راقبها هوبر للحظات ثم عاد لاستكمال إعداد قهوته حتى عادت ووقفت بالقرب منه.

- أنا في ظهرك.

نظر إليها ولم يقل شيئًا. مسحت عيناه وجهها. كانت تنظر إليه في جدية وصرامة وذقنها مرفوع إلى أعلى. أردفت:

- يمكنك الاعتماد عليَّ. أنا في ظهرك.

انفجرت ضحكة هوبر من حنجرته، فأجفلت إيل وتراجعت خطوة للخلف، وعلت وجهها الحيرة.

- هل أخطأت؟

جذبها هوبر بين ذراعيه، فلفَّت ذراعيها حول خصره.

- كلا يا صغيرتي، فقد فهمتي العبارة بشكل صحيح.

شعر بإيل تومئ وتكرر:

- أنا في ظهرك.

مسَّد شعرها الأشعث وقال:

- وأنا في ظهرِك يا صغيرتي. أنا في ظهرك.

ابتعدت إيل مُتشممة الهواء وقالت:

- قهوة؟ يع!

جعدت أنفها، ثم -وكأن شيئًا لم يحدث- عادت إلى المنضدة الحمراء وقالت:

- أكمل.

- أوامرك يا سيدتي.

عاد هوبر إلى المنضدة وجلس أمام إيل التي عقدت كفيها أمامها ناظرةً إليه. حك هوبر ذقنه وقال:

- حسنًا. أين كنا؟

الفصل السادس والثلاثون

كِزّ أفعى مُجلجلة، فتعضك!

13 يوليو 1977

جنوب برونكس، نيويورك

كان هوبر قد هدأ حين وصلوا إلى المستودع. أوقف ليروي السيارة جوار الشاحنة كالمعتاد.

أدرك هوبر الآن أن اجتماع المحاربين القدامى قد هزه، لكنه لن يسمح لهذا بأن يفسد مهمته. عليه أن يبتلع أحاسيسه ويصمد كي يُتِم ما أرسله جالوب لإتمامه.

كانت الأفاعي مشغولة، والمستودع مليء بأكثر من ضعف العدد الذي رآه هوبر من قبل. فِرَق تملأ شاحناتٍ بصناديق، وقد تحركت الشاحنة الضخمة بعيدًا عن الحائط بينما أشخاص يعملون على الشيء المغطى خلفها. حين خرج هوبر من السيارة أدرك أن هذا الشيء هو بكرة كبيرة من الأسلاك معلقة على إطار ميكانيكي. يبدو أن الشاحنة قد سُرقت من شركة كون إيديسون لخدمات الطاقة.

اختفى لينكولن في عمق المستودع، ووقف ليروي جوار هوبر وهو يراقب عمل العصابة وهمس:

- عليك أن تهدأ يا رجل.

كان ليروي مُحقًّا، ولم يكن ثمة ما يجادله فيه. أومأ تجاه الشاحنة وسأل:

- لمَ كل هذا؟ ماذا يفعل القديس جون؟

- قلت لك لا أعرف.

- لكنهم يعرفون. هناك من يعطيهم الأوامر والإرشادات. أنت لا تكون في الجوار حين يعطيهم القديس جون الأوامر، أليس كذلك؟

نظر ليروي حوله كي يتأكد من أحدًا لا يسمعهما ثم همس:

- اسمع يا رجل، هذا ليس من اختصاصي. لكل عضو مكانه ووظيفته، لذا لا أعرف ماذا يحدث وهذا هو سبب وجودنا هنا من الأساس، أليس كذلك؟ ماذا تريدنا أن نفعل؟ نذهب للقديس جون ونسأله عما يفعل وعن التوقيت الذي سيظهر فيه الشيطان؟ هه؟

- كلا. لكن حان وقت البحث عن إجابات.

سار هوبر نحو مجموعة من الصناديق الخشبية ينقلونها ببطء إلى واحدة من الشاحنات الأخرى الواقفة جوار الدراجات البخارية. الصناديق طويلة خفيفة إلى حد ما. لدى هوبر شعور سيئ للغاية بأنه يعرف ما بداخلها.

مع انشغال باقي أعضاء العصابة، غامر هوبر. كان ثمة عتلة على الأرض، التقطها وكان على وشك استخدامها لفتح أحد الصناديق حين وُضعت يد ثقيلة على كتفه.

- أتبحث عن شيء يا أخي؟

أدارته اليد، وكانت يد لينكولن، ولم يبدُ مسرورًا وهو ينظر إلى العتلة في كف هوبر.

- ماذا تفعل بحق الجحيم؟

دفع لينكولن هوبر، فسقط الأخير على الصندوق الذي كان يبغي فتحه، وانغرست الزاوية الحادة في ظهره فصرخ ألمًا وتعثر. أسقط العتلة من يده. حاول أن يقوم واقفًا لكنه شعر بضربة عند حزامه من الخلف.

قام هوبر ليجد مسدسه المخفي في يد لينكولن. نظر إليه الأخير نظرة حادة مرعبة.

- من أنت بحق الجحيم يا رجل؟ يقول ليروي أنك شرطي هارب. اللعنة يا رجل، أتساءل إن كنت حقًّا شرطيًّا هاربًا أم شرطيًّا يبحث عن البطولة هنا. هه؟

لفَت الشجار بينهما نظر الأفاعي، فراحوا يتجمعون حولهما واحدًا تلو الآخر. نظر هوبر حوله إلى دائرة الوجوه المحيطة به. كل الأفاعي كانت تنظر إليه، ولم يستطع هوبر أن يرى ليروي.

بصق لينكولن على الأرض الأسمنتية، وثنى رقبته إلى اليمين واليسار، ثم وزن سلاح هوبر في كفه. خطا هوبر أمامًا ثم توقف حين وجه لينكولن المسدس نحو رأسه.

- ما أعرفه عن الأبطال، أنهم غير موجودين. الأبطال من وحي القصص المصورة. أنت تعيش في مدينة كهذه وتعرف أن هذه هي الحقيقة. لا وجود لسيارات أجرة في نيويورك، ولا وجود للشرطة وسط الأفاعي.

- هل نحن "تمام"؟

نظر لينكولن نحو الصوت، ورأى هوبر الأعضاء ينزاحون ليسمحوا بمرور القادم. خطت مارثا وسط الدائرة وسارت كعارضة أزياء لتقف جوار لينكولن.

- مارثا واشنطن، لقد وجدت هذا.

قالها لينكولن قابضًا على المسدس، لكن شيئًا قد تغير؛ توازن الموقف. لم يعد لينكولن هو المسيطر.

مارثا هي المسيطرة.

دارت حول لينكولن مُتجاهلة السلاح، واقتربت من هوبر الذي ظل متجمدًا مكانه حتى انحنت والتقطت العتلة التي سقطت منه ثم عادت إلى لينكولن وهي تؤرجح الأداة في يدها.

- انتابك الفضول، أليس كذلك؟ الزعيم يريد أن يراك.

ظل المسدس موجهًا نحو هوبر، وقال لينكولن:

- أقول أنني وجدت هذا.

- وأنا أقول أن القديس يريد أن يراه، ولا يحب أن ينتظر كثيرًا.

تنهد لينكولن وأخفض ذراعه الذي يحمل المسدس. نظر إلى مارثا ثم ناولها السلاح قبل أن ينصرف دون كلمة أخرى.

ظل هوبر يراقب ما يحدث، يخشى أن يتحرك فيفسد توازن الموقف الحرج. أمسكت مارثا العتلة في يد وفي الأخرى المسدس، ثم أشارت بذقنها نحوه وقالت:

- ثمة شيء يخصك أيها المستجد. شيء لا يعجبني كرائحة عفنة. لقد شممتها حين التقينا أول مرة لكنني لم أكن أعرف ماهيتها وقتها.

- أنا هنا لأنني أريد أن أكون هنا. أنا هنا كي أعمل مع القديس جون. اسأليه.

- أخبرني القديس جون بكل شيء عنك. لكننا سنتصرف على طريقتي هذه المرة على سبيل التغيير أيها المستجد.

ألقت المسدس أرضًا بعيدًا عن متناول يده ويدها، ثم طوحت بالعتلة وهي ممسكة بها فاصطدمت بالأرض مُطلقة الشرر. من حولهما بدأ الأفاعي في التحلق مرة أخرى. أطلق

أحدهم صيحة وصفق آخر، وفي لحظات وجد هوبر نفسه في وسط حلبة مصارعة أمام مارثا المتسلحة بالعتلة تشهرها كسيف.

لم يكن هوبر مُسلحًا، ورغم صغر حجم مارثا لكنها كانت قوية. فقد رآها تطوح المطرقة فتكسر باب متجر الإلكترونيات. رآها تحمل المسروقات الثقيلة معهم. في حياة كهذه إما أن تكون قويًّا أو تُسحق.

هذا انتخاب طبيعي، والبقاء للأكثر مهارة.

المنتصر يحصد كل شيء.

- إن كنت تريد أن تكون منا، فلتثبت أنك منا.

وتقدمت منه شاهرةً العتلة.

الفصل السابع والثلاثون

سر المستودع

١٣ يوليو ١٩٧٧
جنوب برونكس، نيويورك

كان مُجمع المستودعات شاسعًا، وكما ظنت ليزا، فلم يكن كل مستودع منفصلًا عن الآخر، بل ثلاثتهم يشكلون مبنى واحدًا. فكرت ليزا أن القديس جون لا بد وأن لديه موارد ضخمة كي يمتلك مكانًا بهذا الحجم.

قادها القديس جون داخل المبنى، وكان من الواضح أن الأفاعي يعملون بكدٍ. أراها حجرات مليئة بأشخاص يعملون حول طاولات ضخمة. رأت مُعدات تركيب ومعدات تنظيف ومعدات تصليح. رجال يجمعون مكونات إلكترونية ويوصلون آلات ببعضها البعض، ويعلِّبون أغراضًا دقيقة في صناديق.

لم تكن لدى ليزا فكرة عما يفعلون، ولم يخبرها مرشدها. لكنها لاحظت الصمت، بالطبع كانت تصدر أصواتٌ من المعدات التي يعملون بها، لكن العاملين أنفسهم كانوا صامتين تمامًا يصبون تركيزهم على ما يفعلون.

سألته ليزا وهم يعبرون جوار صف من العمال:

- لمَ تُريني كل هذا؟

توقف القديس جون والتفت إليها مُجيبًا:

- لأني أريدك أن تفهمي.

- ماذا أفهم؟ أنا حتى لا أعرف ماذا يفعلون.

- أريدك أن تفهمي أننا ننجز عملًا هنا. قلت لك أننا لسنا عصابة، بل منظمة تهب نفسها لإصلاح نيويورك. للوصول إلى غايتنا علينا أن نتبع طريقًا وهدفًا لا نحيد عنه. هدفًا

حقيقيًّا. هذا يتطلب طاعة وقوة.

هزت ليزا رأسها فقط. ابتسم القديس جون وفرقع بإصبعيه، فتوقف العامل المجاور له فورًا عن العمل. هتف القديس جون:

- هنري.. أنت تعمل لديّ، أليس كذلك؟

أجاب الرجل بلا تعبير على وجهه أو صوته:

- أجل.

- ستفعل أي شيء من أجلي، أليس كذلك؟

- أجل.

أجفلت ليزا، فلم تكن تفهم ماذا يحدث، لكنه لم يرُق لها. من حولهما ظل الآخرون عاكفين على عملهم متجاهلين تمامًا وجودهما.

- شكرًا لك يا هنري. أنت خدمتني بصدق. تعرف ما عليك فعله.

هنا رفع العامل المفتاح الذي كان يعمل به إلى حنجرته حتى كاد ينغرس طرفه فيها. مدت ليزا يدها لا شعوريًّا نحو المفتاح تمنعه من إصابة الرجل.

- توقف! ماذا تفعل؟!

جذبت ذراع الرجل كي ينزل المفتاح. قطرت الدماء من رقبة العامل. جوارها ضحك القديس جون، وفرقع بإصبعيه مُجددًا، فارتخى ذراع هنري وارتطمت يد ليزا بالمنضدة إذ توقف الرجل عن مقاومتها فجأة. دارت ليزا لتواجه القديس جون.

- هذا مريع، أنت مريض!

- هذا ليس مرضًا، بل قوة.

- أعطني سببًا يمنعنى من الخروج من هنا والاتصال بالشرطة؟

- دكتورة سارجيسون، أتمنى أن أمنحكِ أكثر من سبب. أنت تريدين تغيير العالم، أليس كذلك؟ معًا نستطيع.

أشار لليزا كي تسير معه. أحكمت ليزا إغلاق قبضتيها كاتمة غضبها وخوفها ومئات الأحاسيس الأخرى. عند الطاولة، عاد هنري إلى عمله كأن شيئًا لم يحدث.

غير واثقة مما تفعل، سارت ليزا خلف القديس جون خارجة من الحجرة.

***

كان المكتب كبيرًا، موقعه في أعلى المبنى مُشرفًا على المستودع يعطي إحساسًا بالسلطة. قادها القديس جون إلى الحجرة، ثم وقف خلف مكتبه وفتح بابًا أصغر وأشار إلى ما خلفه.

- تفضلي، لدينا ما ننقاشه.

دخلت ليزا من الباب لتجد نفسها داخل حجرة أصغر، حوائطها مكسوة بخزانات مستندات مليئة بالكتب والملفات. في منتصف الحجرة منضدة صغيرة دائرية وكرسي على كل جانب منها. على المنضدة سكين فضي بيد كبيرة أعطى انطباعًا أنه صليب لا سكين، جوارها كأس فضية مليئة بسائل حالك.

هذا كان كل شيء. وكان كافيًا.

استدارت ليزا لتغادر، لكن القديس جون كان واقفًا عند الباب. أغلقه وخطا أمامًا مُجبرًا ليزا على التراجع حتى هوت على واحد من الكرسيين.

- اجلسي لو سمحتِ. سأشرح لك سبب وجودك هنا وسبب دعوتي لك.

لم تجد ليزا خيارًا آخر سوى الانصياع. نظرت حولها ولاحظت لأول مرة أن أغلب الكتب عن علم النفس والتحليل النفسي. كتب وأبحاث مألوفة لديها.

ثم رأتها؛ عددًا من الكتب مُلصق عليها وريقة بيضاء مكتوب عليها: معهد روكوود.

- ماذا؟!

نظرت إلى القديس جون الجالس أمامها فاغرة فمها في دهشة.

- من أين حصلت على هذه الأبحاث؟ من أنت بحق الجحيم؟!

- تعنين أنك لا تذكرينني؟ أم أنك لم تتعرفي عليّ؟

هزت ليزا رأسها في حيرة.

- لطالما كنت من أشد معجبيك. أبحاثك عن التفكير الجماعي وغيرها أذهلتني. لقد تحدثنا عنها من قبل حين تقابلنا لأول مرة.

ضيقت ليزا عينيها، وتسارع عقلها، ثم نظرت نحو الأبحاث.

معهد روكوود بالطبع..

هنا تذكرته.. شعره كان أطول، لحيته تغطي أسفل وجهه، وبلا نظارة بالطبع.

أومأ القديس جون وقد فهم أنها تذكرته.

- كنت جزءًا من البرنامج التجريبي. واحدًا من أول ستة مساجين.

- أنا.. ليس لدي أي فكرة، لكن.. ماذا تفعل؟ أخبرتني أنك تدير برنامجًا تأهيليًّا خاصًا بك.. هنا؟ هل تستند فيه إلى أبحاثي؟

- أنا بالفعل أدير برنامجًا، وأنت وأبحاثك كنتما البداية فقط. حين قابلتك حركتِ شيئًا داخلي. ذكرتني بماضٍ حاولت نسيانه، بفعلٍ قمت به منذ زمن بعيد، يمكنك أن تطلقي عليه: وحي إلهي.

- إلهي؟

تجاهل القديس جون سؤالها وأردف:

- كنت أعمل بكد طيلة الأشهر الماضية، ولا يزال أمامي المزيد من العمل كي أحضِّر كل شيء. لكنني استغللت الوقت بحكمة. لم تكوني أول من جندت. لقد أمضيت شهورًا أرسل إخوتي إلى أنحاء المدينة ليبحثوا عن المحتاجين والضالين ويجلبوهم لي حيث أريهم الحقيقة وأكشف لهم خطتي كي يعملوا على تنفيذها، وأريد أن أضمك إلينا.

هزت ليزا رأسها وحاولت الوقوف لكنها لم تستطع. نظرت إلى أسفل لتجد كفيها قابضين على مسندي الكرسي، لكنها لم تقدر على تحريكهما أو تحريك ساقيها. كانت متجمدة في مكانها.

- سيأتي يوم الأفعوان، لقد رأيته بنفسك، أليس كذلك؟ أستطيع أن أراه في عينيكِ. قريبًا سيعم الظلام الأرض وسيأتي مُطالبًا بعرشه.

حدقت ليزا إلى الانعكاس المزدوج لوجهها في عدستي نظارته. شعرت بالدوار، لكنها كانت يقظة وكأن كل خلية فيها موصولة بكهرباء. القديس جون أمامها بعيد للغاية لا يمكنها الوصول إليه. من حولها رأت الخزانات تهتز وتتكسر كأمواج ترتطم بالشاطئ.

ثم سمعت صوت طرقة من خلفها، فعادت الحجرة إلى طبيعتها ووضع القديس جون أمامها، وبدا غاضبًا.

صاح:

- اخرج!

قالها لأي من كان يندفع من الباب خلفها. حركت ليزا أصابعها فتحركت واستطاعت أن تستدير في كرسيها ورأت أحد رجاله واقفًا عند الباب.

- ثمة مشكلة بالأسفل.

- حلها.

- الأمر يخص الرجل المستجد ومارثا. أعتقد أن عليك النزول.

اتسعت طاقتا أنف القديس جون غضبًا وقام واقفًا. نظر نحو ليزا ثم اندفع خارجًا وأغلق الباب من خلفه بعنف حتى اهتزت الخزانات.

قامت ليزا من كرسيها شاكرة كونها قادرة على الحركة، لكنها لم تعرف أي خبرة مرت بها الآن. الشيء الأكيد هو أن الباب كان مُحكم الغلق. أمسكت المقبض وهزته لحظات بلا فائدة.

لكن بابًا موصدًا لم يكن ليوقفها.

ضغطت أذنها على الباب وأغمضت عينيها وأنصتت، ثم نزلت على ركبتيها وأخرجت دبوس شعرٍ معدنيًّا من شعرها وفردته وأدخلته في فتحة القِفل شاكرة للوقت الذي أمضته في التدرب

على فنون الهرب كجزء من عرضها السحري على المسرح. لم تظن قط أن هذا التدريب سينقذ حياتها.

الفصل الثامن والثلاثون

الغُمَّيضة!

١٣ يوليو ١٩٧٧
جنوب برونكس، نيويورك

- كفى!

توقف هوبر ومارثا عن الدوران حول بعضهما، ونظرا نحو الصوت المميز للقديس جون. افترق الجمع من حولهما مرة أخرى سامحًا للزعيم أن يقترب من المتصارعين اللذين لم يشتبكا بعد. نظر إليهما من خلف نظارته العاكسة، ثم نظر إلى الجمع المحتشد.

- فليذهب كل إلى عمله.

لم يتحرك أحد.

دار القديس جون على عقبيه ومد ذراعيه جانبًا فانفتح رداؤه البنفسجي.

- فليذهب كل إلى عمله!

هذه المرة أطاعوا، وتفرق الجمع يهرولون في كل اتجاهٍ هربًا من غضب زعيمهم.ن أن

توجه القديس جون إلى حيث يقف هوبر رافعًا قبضتيه ومارثا شاهرة العتلة. تجاهل القديس جون مارثا ووقف بين الاثنين مواجهًا هوبر.

من خلف الزعيم رأى هوبر النظرة التي رمقت بها مارثا زعيمها الحبيب؛ نظرة كراهية صافية.

وجد هوبر هذا مثيرًا للاهتمام. أكانت فقط غاضبة لأن شجارها قد قوطِع؟ أم أن غضبها جزء من عداء أعمق تجاه الزعيم نفسه؟

خاطب القديس جون مارثا دون أن ينظر إليها:

- مارثا، أنت اخترت هذا التوقيت لمصارعة صديقنا الجديد؟ أنت تعرفين كما أعرف أن الوقت قد شارف، أليس كذلك؟

ثم استدار القديس جون مناورًا المرأة بخفة أذهلت هوبر، فتعثرت مارثا إلى الخلف وسقطت العتلة من يدها.

- *أليس كذلك؟!*

أومأت مارثا وقالت:

- أجل أيها القديس جون. أجل.

- إذًا عودي إلى عملك.

أمسك خدها بكفه وابتسم لها ابتسامة لم تَرُدَّها، ثم أنزل يده والتفت إلى هوبر الذي رأى مارثا تنظر نفس النظرة الكارهة إلى الزعيم، مؤكدة أن غضبها منصب على الرجل نفسه. ثم استدارت مبتعدة.

- أعتذر لك فقط عن تصرف.. مساعدتي. أتريد أن تعرف ماذا يجري هنا؟

لم يقل هوبر شيئًا.

- ربما حان الوقت لذلك. تعال، لدي شيء أريك إياه.

واتجه القديس جون نحو الدرج عند نهاية المستودع، وتبعه هوبر.

***

- هل تؤمن بالتضحية يا سيد هوبر؟

قاد القديس جون هوبر إلى الطابق الثاني من مكاتب المستودع، ومرة أخرى بدا لهوبر أن المكان ظل مهجورًا لأعوام. المكاتب كانت هياكل فارغة، والطلاء تساقط كاشفًا عن الطوب من خلفه، وأغلب الحوائط كانت مغطاة بالجرافيتي.

كلما خاضا في المكان أكثر، اكتشف هوبر أنه مليء بالصناديق الخشبية وكأنهم يستغلون هذا المكان في التخزين. أراد هوبر أن يعرف ما في هذه الصناديق المشابهة لتلك التي أراد فتح واحد منها.

كان يريد أن يرى بنفسه.

- هذا سؤال صعب. أفهم هذا.

نظر هوبر أمامه إذ قاطع قطار أفكاره توقف القديس جون في منتصف الرواق والتفاته نحوه. هوبر نفسه كان واقفًا أمام حجرة من حجرات التخزين. اقترب القديس جون أكثر من هوبر وقال:

- دعني أخبرك بما أظنه الإجابة عن سؤالي.

حدق هوبر إلى القطعتين المعدنيتين على صدره.

- أعتقد أن الإجابة هي نعم. أعتقد أنك تؤمن بالتضحية كما أؤمن بها. أعتقد أنك تفهمها كما أفهمها. أرى هذا في عينيك.

توقف القديس جون عن الحديث. كان قريبًا من هوبر حتى أن الأخير شعر بأنفاسه على وجهه.

- يقولون أن العينين هى نافذة الروح. وأظنها مقولة صحيحة للغاية، وصدقني.. حين أنظر إلى عينيك أنظر إلى روحك وأرى فيها الحقيقة.. أرى التضحية.. أرى الإيمان.

أنت ترى ما تريد أن تراه. انعكاس لك لا أكثر.

- أرى فهمًا نادرًا للمهام الضرورية. لقد مررنا -أنا وأنت - بالكثير، ورأينا الكثير. والآن نحن هنا، مستعدان، ننتظر، نعتزم. أنت تفهم.. يداك هي يداه، يدان سيرشدهما كما سيرشد مهمتنا. سيستخدم أيادينا وكأنها يداه، سيحارب بنا بالحق والصدق. هو يستطيع رؤية الحقيقة في روحك، هي صارت ملكه. هو يملكك ويملكني، ولهذا فلنبتهج.

تنفس هوبر ببطء. القديس جون رفعه إلى مكانة عالية، من الواضح أنه فعل ذلك كونه محاربًا مثله خدم في حرب فايتنام. ألهذا السبب اصطحبه لينكولن وليروي إلى اجتماع المحاربين القدامى؟ يضع القديس جون ثقلًا كبيرًا على الخبرة العسكرية.

بالطبع كانت مجموعات الدعم مكانًا مثاليًا لتجنيد الأعضاء. القديس جون كان يبحث عن نوعية محددة من الأشخاص. أشخاص مثل هوبر.. محارب سابق ذي خبرة وشغف مُتقد لفعل شيء يغير العالم، وقد نسج القديس جون شغفه هذا في حلمه وحول هوبر من مستجد إلى مُصطفى.

من هذه المسافة استطاع هوبر أن يرى المحفور على القرصين المعدنيين على صدر الرجل، نقش يماثل الذي على أقراص هوبر المعدنية في منزله.

القديس

جوناثان

ر.أ 098174174

أ- موجب

كاثوليكي.

نظر هوبر إلى القديس جون، وكان المكان مُضاء بشكل جيد. استطاع هوبر أن يرى حركة خفيفة خلف العدستين العاكستين إذ يرمش زعيم العصابة. قال هوبر:

- لو أن العينين نافذة الروح، فلمَ ترتدي إذًا هذه النظارة؟

ابتسم القديس جون، ثم أشار نحو صدر هوبر وقال:

- عرفت أنك الشخص المناسب. في أرض العميان ثمة مبصرون يا أخي.. ثمة مبصرون. أنا وأنت مُختاران. هو أرسلك لي كي تؤدي عنه عمله، ويا له من عمل مجيد!

استدار القديس جون متوجهًا نحو الرواق، ثم توقف واستدار حين أدرك أن هوبر لم يتحرك. سأله الأخير:

- من "هو"؟ وما الغرض من كل هذا؟

ابتسم القديس جون.

- نحن نفعل هذا من أجل سيدنا.

- سيدنا؟

- السيد. يعرفه الناس بأسماء متعددة، لكن الاسم الذي همس به في أذني هو: إبليس. قريبًا سيسير بيننا ونحن نقوده إلى عرشه الناري.

ثم أكمل القديس جون سيره. احتاج هوبر إلى لحظات كي يستجمع قوته وأفكاره ويتبعه، بدلًا من أن يهرب في الاتجاه المُعاكس بأسرع ما يمكن.

عادا إلى مكتب القديس جون في الطابق العلوي عن طريق سلم داخلي، لا السلم الخارجي المعدني. كان المكان خاليًا لكن هوبر استطاع سماع أصوات العمل الجاري في مكان ما في

عمق المبنى، وكأن هناك مكانًا لا يزال مخصصًا للصناعة التي بُني من أجلها المستودع في الماضي. حتى وصلا إلى المكتب، لم ير هوبر أيًّا من أعضاء العصابة في أي مكان.

بدا المكتب مثلما تركه هوبر آخر مرة، لكن ما أن دخلا حتى اندفع القديس جون إلى الباب الأصغر خلف مكتبه، وكان الباب مفتوحًا.

- كلا! كلا!

همس بها القديس جون غاضبًا وهو يفتح الباب بقوة ويدخل، فتبعه هوبر. الحجرة خلفه كانت حجرة صغيرة بلا باب آخر. اندفع القديس جون خارجًا في حنق، ووقف أمام النافذة الكبيرة المُطلة على المستودع، فتحها وصاح في أتباعه:

- ليروي، لينكولن.. اصعدا حالًا وأحضرا طاقميكما. الآن!

رأى هوبر الرجال يهرعون، بعضهم يقفز من مكانه على الأرائك حول النيران ويتجهون نحو الدرجات. سأل هوبر:

- هل من خطب ما؟

التفت القديس جون، واستطاع هوبر أن يرى النبض يحرك شرايين عنقه وصدغيه.

- شيء في مقدوري حله.. شيء في *مقدورنا* حله.

عاد إلى مكتبه ملقيًا نظرة أخرى على الحجرة الصغيرة الخالية، ثم فتح الدرج العلوي من مكتبه. من مكانه جوار النافذة لم يستطع هوبر أن يرى ما فيه، لكن زعيم العصابة أومأ ثم أغلق الدرج. انفتح باب المكتب ودخل منه ليروي ولينكولن، يلهثان من العدو على الدرجات، ومن خلفهما ظهر عدد آخر من أعضاء العصابة.

نظر إليهم القديس جون، ثم اتجه نحو خزانة الملفات الطويلة وفتح الدرج الثاني وأخرج منه لفافة ورقية فردها على الطاولة. تجمع الموجودون بمن فيهم هوبر ينظرون إلى الورقة التي اتضح أنها خارطة للمستودع والمكاتب. كما كان يخشى هوبر فقد أخذ الأفاعي عددًا من البنايات المجاورة وأوصلوها ببعضها بممرات وجسور متعددة الطوابق.

راح زعيم العصابة يشير إلى مواضع معينة وهو يقول:

- ليروي، خذ طاقمك وامسحوا الناحية الشرقية. انقسموا إلى قسمين، قسم يصعد إلى أعلى والآخر يبحث في الطوابق السفلى. لينكولن، افعل مثله لكن تولَّ الناحية الغربية. اطلبوا من الرجال مراقبة المخارج الشمالية والجنوبية. لو أنها ما زالت في المبنى فسنحاصرها في المنتصف.

من هي؟

تبع الرجال تعليمات زعيمهم بلا أي تردد. لم يعرف هوبر ما يحدث، لكنه استطاع التخمين.

إحداهن كانت حبيسة في الحجرة الصغيرة ونجحت في الفرار منها. تساءل عمن تكون. بالتأكيد ليست ديلجادو؟ كلا، هي تعرف ما يفعله هوبر وتثق به. لا يمكن أن تكون هي.

إذًا.. من؟

أشار القديس جون إلى الخارطة مرة أخرى وقال:

- هوبر.. خذ بعضًا من طاقم ليروي وابدأ من هنا إلى أسفل مُغطيًا منتصف منطقة المكاتب. مجددًا، لو أنها هنا فنستطيع أن ندفعها للظهور.

نظر هوبر إلى زعيم العصابة وقال:

- عمن نبحث؟

استقام القديس جون في وقفته ولم ينظر إلى هوبر وقال:

- شخصٍ هامٍ للغاية. الآن، انطلقوا.

راح الرجال يقسمون أنفسهم إلى فرق من شخصين أو ثلاثة، واختار ليروي من رجاله وقال لهوبر:

- سيتي وروبن سيذهبان معك.

خطا عضوا العصابة نحو هوبر وقد تذكرهما من لقاء أول يوم. سيتي شاب أشقر الشعر يحيط رأسه بعصابة، وروبن رجل أسود حليق. خرج ليروي ولينكولن مع رجالهما، بينما خطر لهوبر فكرة. عاد إلى الطاولة وقال للقديس جون:

- لدي خبرة هنا. لقد كنت شرطيًا لأعوام وأعرف كيف أنظم بحثًا شبكيًا. هل تسمح لي؟

تراجع القديس جون مفسحًا لهوبر الذي أدار الخارطة نحوه وراح يمسحها بإصبعه، لكن عينيه كانتا في مكانٍ آخر؛ تفحصتا الأقسام المختلفة. كان يحاول أن يطبع الخارطة في عقله. بعد دقيقة قال:

- حسنًا. سنفترق وبهذا يمكننا تغطية مساحة أكبر. سيتي، تول هذه المنطقة. روبن، اتجه من هنا. وأنا سأتولى المنتصف كما أمر الزعيم. سنعمل ككماشة. لو أن هدفنا في المنتصف فسنجده، ولو لم يكن هناك فسندفعه إلى هنا أو هنا ووقتها سيجده الآخرون. فهمتما؟

أومأ الرجلان في استحسان وخرجا. مسح هوبر الخارطة مرة أخرى بعينيه والقديس جون ينظر إليه عاقدًا ذراعيه.

- تخطيط بارع يا أخي.

لعق هوبر شفته السفلى ولم يعلق، فقط أومأ وانطلق خارجًا.

***

شعر هوبر بأمرين متضادين لعملية الأفاعي تلك. من الواضح أنهم قد استولوا على عدد من المباني لا يعرف عددها تحديدًا، لكن يبدو أن القديس جون يحتاج هذه المساحة لغرض ما. على جانب آخر لم يكن الاستيلاء على هذا العدد من المباني صعبًا على الإطلاق، فنيويورك مدينة التناقضات. في جنوب منهاتن يقف برج التجارة العالمي شاهدًا على مقاومة وطموح مدينة تنزلق نحو أكبر أزمة اقتصادية في التاريخ، أما في منتصف المدينة فيستمر الازدهار، بينما يرتع الأغنياء في الجانب الغربي.

لكم من الوقت سيستمر هذا؟ لم يستطع هوبر أن يخمن، فنواحٍ أخرى من المدينة في حالٍ أسوأ. هو لم يعمل شرطيًّا في برونكس من قبل، ولم يُرد قط أن يخدم في هذه الضاحية. لقد سمع عنها بما يكفي حين كان في هوكينز. برونكس تبدو في كوكب آخر، تتألف من مبانٍ متعفنة متآكلة بينها ساحات خاوية وصفوف من مساكن آيلة للسقوط. إيجاد مستودعات مهجورة في هذا المكان من أسهل ما يكون. كان المكان مثاليًّا مناسبًا لازدياد عدد الأعضاء ونمو الموارد والمعدات، وبعيدًا عن أي مكان قد يضايقهم فيه أحد، ومع ذلك سيكون في وسعهم رؤية أي وافدين أو غرباء.

في النهاية، أبلى القديس جون بلاءً حسنًا. ربما كان يعاني من ضلالات ما أو مرض عقلي، لكنه كان مُخططًا ماهرًا. ذكر من قبل أنه عمل في المهام الخاصة في فايتنام، وتساءل هوبر عن معنى «مهام خاصة». كذلك تساءل عما يخطط له القديس جون ولأي سبب.

الآن حانت الفرصة كي يعرف بينما أفراد العصابة يبحثون عن الهاربة وهوبر مشارك في هذا البحث ولديه الحرية في أن يتقصى دون أن يثير الريبة.

ممتاز..

سار وسط الأروقة الخاوية محاولًا تَذكُّر الخارطة. كان المكان كالمتاهة. مبدئيًّا، هوبر كان قد افترض أن الهاربة قد خرجت من المكان بالفعل، لكن بعد نصف ساعة من البحث في حجرة تلو الأخرى، وفي ممر تلو الآخر صار هوبر غير متأكد من افتراضه. ضل هوبر وفقد معرفته بموقعه وقد نسي الخريطة، لكنه كان يسمع الآخرين في بحثهم، يبدون فرحين أكثر مما ينبغي.

بالطبع كانت هذه لعبة بالنسبة لهم.. رياضة. حتى الآن لم يكشف بحث هوبر عن شيء، فهذه المنطقة من المبنى مُعدة لتخزين الطعام؛ لحم معلب، حليب مجفف، فاكهة. كان هناك طعام يكفي لإطعام جيش.

لم يرُق هذا لهوبر.

أما بالنسبة للهاربة، فلم يكن لها أثر. وصل هوبر إلى نهاية الرواق المُفضي إلى الدرجات عند الناحية الشرقية، واستعد كي يعود أدراجه ويبدأ في الطابق السفلي، لكنه توقف. صوت ضوضاء البحث من فوقه تبتعد، وسمع صوتًا أقرب إليه آتٍ من هذا الطابق.

تكرر الصوت مرة أخرى، صرير باب ثم صوت حذاءين يتحركان على الأرض الأسمنتية الصلبة.

الهاربة! لا بد أنها كانت تختبئ في أحد المكاتب في انتظار رحيل هوبر. لقد مر بها ولم يلحظها حين كان منشغلًا ببحثه الخاص. عاد هوبر حتى وصل إلى أول مفترق، وضغط نفسه إلى الحائط عند الزاوية ووجه وجهه تجاه الصوت وانتظر.

سمع صوت الخطوات مرة أخرى، خطوات بطيئة تسير نحو الرواق.. نحوه. انتظر هوبر غير عالم بما أو من يتوقع، لكن شيئين خطرا في باله: أولًا، لو أنه من سيمسك بالهاربة، فسيضمن له هذا مكانة عند الأفاعي. لقد وثق به الزعيم أخيرًا وسريعًا متأثرًا بماضيهما

المشترك في فايتنام، لكن الآخرين -باستثناء ليوري- كانوا مستمتعين بهجوم مارثا عليه، ولينكولن يكرهه. حتى مع دعم القديس جون فهوبر ليس متأكدًا من موقفه مع الأفاعي.

ثانيًا، لو أن هوبر أمسك بالهاربة أولًا فيمكنه الاستفادة من ذلك لصالحه بطريقة أخرى. رغم أنه لا يعرف من تكون هي، إلا أن عدوًا للقديس جون يمكن استمالته كحليف. قال القديس جون أن الهاربة مهمة. ربما كانت تعرف ما تنتويه العصابة وما يخطط له زعيمها. ربما استطاعت أن تمد هوبر بالمعلومات اللازمة كي يبلغها لجالوب.

خطوتان بطيئتان أخريان تدويان وسط سكون المكان كالأجراس في أذني هوبر. شحذ كل حواسه محاولًا تخيل الشخص القادم، وحجمه، وما إن كان يحمل أي سلاح. كان يعلم أنها امرأة، لكن هذا لا يعني شيئًا. مارثا أخت ليوري في نصف حجمه، لكنها قادرة على هزيمته. صارت الهاربة عند الزاوية تقريبًا، حين سمع صوت بابٍ يُفتح وأصوات خطوات ثقيلة وثرثرة. مجموعة بحث أخرى تدخل ممرًا مجاورًا. خافت الهاربة من الصوت وتوقفت عن الحركة.

يجب أن يتحرك هوبر سريعًا.

ظهر من مخبئه، ولمح المفاجأة على وجه المرأة ذات الشعر البني الطويل. ثم تجمد مكانه.

حدقت إليه ليزا سارجيسون بعينين متسعتين.

من خلف هوبر اقتربت أصوات المجموعة، فرفع هوبر إصبعه إلى شفتيه طالبًا الصمت، ثم أشار لها نحو نهاية الرواق. أومأت وعادت إلى حيث أشار واختبأت خلف الباب.

كان المكتب ذا نافذة تطل على الرواق الذي كانا فيه. انحنت ليزا ودسَّت نفسها تحت مكتب قديم هو ما تبقى من أثاث في الحجرة. حاول هوبر أن يختبئ معها لكنه وجد أن المكان لن يسعهما سويًّا.

نظرت ليزا إلى هوبر والقلق محفور على ملامحها، طمأنها بإشارة من يده، ثم اتجه إلى الحائط وركع تحت النافذة. لو أن الباحثين دخلوا ووجدوه فستكون مشكلة أقل حدة مما لو وجدوها هي.

سار الأفاعي عبر الرواق، راقب هوبر الظلال الخمسة تمر بالحجرة وتتكسر على المكتب قبل أن يتجهوا نحو نهاية طريقهم. تلصص عليهم هوبر من النافذة ليجدهم قد ابتعدوا.

التفت ببطء ليجد وجه ليزا قد بزغ من تحت المكتب. أشار إليها أن تخرج ففعلت، لكنها أبقت جسدها منحنيًا. همست:

- ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟

- متخفٍ. مهمة تابعة للمباحث الفيدرالية. لمَ أنت هنا؟ ولماذا كان يحتجزك القديس جون في مكتبه؟

تحقق هوبر من الرواق مرة أخرى ثم نظر إلى ليزا.

- هذه قصة طويلة.

- إذًا فلتبدأي.

- هو عرض عليّ وظيفة.

- وظيفة؟ ما هي؟

- لا أعرف. دعاني إلى هنا وأخذني في جولة عبر المكان ثم حبسني في الحجرة. حاول أن يجبرني على...

شعر هوبر بدمه يتجمد. سألها:

- على ماذا؟

- لا يهم. لكن اسمع، هذه ليست كأي عصابة شوارع عملت معها من قبل. هذا غريب.. الأمر يشبه.. خليطًا من جيش خاص وطائفة دينية. القديس جون مسيطر تمامًا على هؤلاء الناس وهو مهووس بما يسميه يوم الأفعى.. نبوءة بنهاية العالم يؤمن بها.

- هل أنت واثقة أنك لا تؤمنين بها أنت أيضًا؟

- ماذا تعني؟

- حفل يوم عيد الاستقلال. حين دخلت في حالة السِّنة وتحدثتِ عن الظلام القادم، والليل الذي في حُلكة الأفعوان.

ضيقت عينيها في حيرة وقالت:

- معذرة.. لا أذكر أيًّا من هذا. أهذا حقًّا ما قلته؟ إلهي!

- أجل. والآن ستخبرينني أن لا صلة لك بالأفاعي؟

- كلا.. ثمة صلة. أنا أعرف القديس جون.

شعر هوبر بدفقة الأدرينالين المألوفة في دمه.

- تعرفينه؟

- عملت معه من قبل، خلال تجربة دراسية قديمة في مكان اسمه معهد روكوود. كان واحدًا ممن شاركوا في مجموعتي التجريبية. لم نستمر كثيرًا قبل أن يُغلق المعهد.

أخبرته ليزا ما عرفت من القديس جون، وأصغى هوبر، وحين انتهت أومأ وقال:

- حسنًا. يجب أن أخرجك من هنا.

- وماذا عنك؟

- مما قلتِ فيوم الأفعوان هذا حدث عظيم، ويجب أن أعرف ما هو.

- لكن يمكنني مساعدتك.

- أجل، يمكنك. بأن تخرجي من هنا وتذهبي إلى القسم رقم 65 في بروكلِن، وتقابلي المحققة ديلجادو. أخبريها بكل ما تعرفينه وهي ستتصرف.

- حسنًا، لكن كيف أخرج؟

حك هوبر ذقنه وقال:

- لدي حليف هنا. المفترض أن يساعدك، لكن يجب أن أجده أولًا. هل ستكونين بخير هنا؟

أومأت ليزا.

- عظيم. اختبئي عن الأنظار وسأعود في أسرع وقت.

- حظًا سعيدًا.

قام هوبر مغادرًا، وأغلق باب المكتب من خلفه.

الفصل التاسع والثلاثون

اكتشافات خطرة

١٣ يوليو ١٩٧٧
جنوب برونكس، نيويورك

حاول هوبر أن يتتبع خطواته قدر الإمكان في طريق العودة، وقد تذكر معالم المكان أكثر مما كان يظن. لم يمض وقت طويل حتى عاد إلى المكاتب الرئيسية وتبع صوت جماعة البحث حتى وصل إلى جماعة ليوري.

- مهلًا يا رجل، هل وجدتها؟

هز هوبر رأسه نافيًا، ثم نظر نحو الرجلين الآخرين برفقة ليروي. عليه أن يُسرع ولا يترك مجالًا للشك. قال هوبر:

- أحدهم رأى شخصًا عند المبنى الغربي.

ثم قال للرجلين:

- أنتما، جدا لينكولن وطاقمه واتجها إلى هذا الجانب، أنا وليروي سنخرج إلى الشارع ونعود من وراء المبنى.

نظر الرجلان إلى بعضهما وهما يحاولان فهم تعليمات هوبر السريعة. تدخل ليروي وهو يصفق ويقول:

- أسمعتما الرجل؟ هيا.. هيا!

كان هذا كافيًا، فربت الرجلان على ظهر ليروي بقوة، ثم انطلقا إلى الرواق. انتظر هوبر حتى اختفيا عن ناظريه ثم التفت نحو ليروي. أومأ الشاب وبدت ابتسامة قلقة على وجهه وهو يسأله:

- أين هي؟

وضع هوبر يده على كتف ليروي مُقربًا إياه:

- اسمها ليزا، ويجب أن نخرجها من هنا. لديها معلومات هامة تبلغها للفيدراليين. عليها أن تصل إلى جالوب.

ثم نظر إلى عيني ليروي وسأله:

- هل أنت واثق أنك تستطيع إخراجها من هنا دون أن يلاحظوا؟

- اترك هذا الأمر لي.

وصف هوبر الطريق إلى المكتب القديم حيث تختبئ، وقال ليروي أنه يعرف هذا المكان ثم عدا مبتعدًا. كان هوبر في الطابق الأرضي من مبنى المكاتب، ومكتب القديس جون يعلوه بأربعة طوابق.

ممتاز.

شعر هوبر بالراحة كون ليزا في طريقها إلى الأمان، ودبت فيه طاقة جديدة. حان وقت إلقاء نظرة على حجرات التخزين.

***

دخل هوبر أول مكتبٍ خالٍ دخله من قبل. كانت الحجرة مليئة بالصناديق الخشبية المكومة في صفوف تصل إلى مستوى الصدر. لاحظ هوبر أن كل صندوق كان مختومًا بعلامة تعريفية، مشطوبة بخطوط من رذاذ طلاء أسود.

انتقل هوبر إلى أقرب الصناديق، وكان مغلقًا بمسامير، لذا سيحتاج إلى أداة لفتحه مثل العتلة التي كانت معه. نظر حوله فلم يجد ما ينفعه. عاد هوبر إلى الممر وجرب الحجرة التالية ثم التي تليها.

وأخيرًا واتاه الحظ حين دخل مكتبًا مثل الذي ترك فيه ليزا، وكان فيه مكتب متهالك ذو أدراج معدنية. جذب هوبر أحد الأدراج فوجده مؤلفًا من أربعة قوائم معدنية تربطها أربعة مسامير، أما القاع فكان لوحًا معدنيًّا. أخذ هوبر الدرج من المكتب ووضعه على الأرض، أسنده بقدمه وراح يجذبه حتى انكسر واستطاع أن يجذب اللوح المعدني الرقيق.

كانت الأداة المُرتجلة أفضل من لا شيء. دس اللوح تحت غطاء أحد الصناديق الخشبية وراح يدفعه إلى أسفل حتى استطاع أن يحصل على فتحة يدس فيها أصابعه ويكمل فتح الصندوق.

نظر هوبر إلى الداخل ليجد ما توقع. على فراش من قش ترقد قطعة سلاح، كلاشينكوف على وجه الدقة. السلاح السوفييتي الشهير المصنوع في مكان ما من أوروبا الشرقية. لم يتغير السلاح منذ ثلاثين عامًا، نفس التصميم البسيط الفعال للغاية والذي لا يحتاج إلى صيانة دائمة ولا مهارة كبيرة في استخدامه، مما جعله السلاح رقم واحد في سوق سلاح العصابات حول العالم.

لكن بالنسبة لعصابات نيويورك، فكان قطعة سلاح ضخمة. رفع هوبر السلاح وعاينه، ولم يحتج إلى تدقيق كثير كي يعرف أنه أصلي. فحص الصندوق فوجد خمس قطع أخرى من ذات السلاح داخل طبقات القش.

ستة أسلحة في كل صندوق.

كان يقف جوار ستة صناديق متشابهة، وهناك على الأقل دستة صناديق في حجرة التخزين. بضرب هذا العدد في عدد حجرات التخزين الأخرى والمستودع بالأسفل، أدرك

هوبر أي خطة مريعة يخطط لها القديس جون.

لم يكن يؤسس عصابة، بل جيشًا يقوده رجل مجنون، محارب عاد من فايتنام بفكرة تغير وجه العالم. عاد يسمع صوت الشيطان نفسه ويستخدم إيمانه المريض هذا في السيطرة على أتباعه وإيهامهم أن وقت حياتهم الجديدة قد حان، وأن العالم سيصير ملكهم إن أطاعوه فقط.

يوم الأفعوان.. اليوم الذي سيسير فيه الشيطان في عالمنا ويتخذ من نيويورك مملكةً.

هذا كلام فارغ، خيال. القديس جون رجل مختل، لكن لا مجال لأن يؤمن بالشيطان. التفوه بنصوص مشابهة للعهد الجديد هي الطريقة الأسهل لرفع مكانة نفسه بين أفراد عصابته والسيطرة عليهم. ثمة أشخاص يصدقون أي قصة تُتلى عليهم إن رُويَت بالطريقة المناسبة.

لكن.. يوم الأفعوان؟ هذا يوم حقيقي، اليوم الذي سيكشف فيه القديس جون عن جيشه في هجوم من نوع ما.

أعاد هوبر السلاح إلى الصندوق مقاومًا موجة الغثيان التي ضربته.

ما هي الخطة وأين سيكون الهجوم؟

هل سيخرج الأفاعي مسلحين من المستودع؟

هذا غير معقول. القديس جون مُخطط ماهر، وقد كان يبني جيشه وترسانته ببطء وحذر مُجهزًا لهجومه. ويعرف هوبر تحديدًا أين تقام هذه التجهيزات.

هرع هوبر من حجرات التخزين إلى الدرج، متجهًا إلى مكتب القديس جون.

***

عاد هوبر سريعًا لكنه لم يتخل عن الحذر. كان المكان خاليًا ويبدو أن فرق البحث قد انتقلت كلها إلى الجهة الغربية بعد أن أشاع ليروي ما رآه هوبر هناك كي يُجلي المكان ليُخرِج ليزا. تمنى هوبر أن يكون القديس جون قد رافقهم إلى الجهة الغربية، وإلا ستُلغى خطة تفتيش مكتبه. أثناء رحلته قرر أن تكون خطته البديلة هي الهرب، بعد أن حاز على معلومات كافية لتحريك قوات جالوب ضد الأفاعي، بالإضافة إلى معلومات ليزا. هو بالفعل لم يعرف كنه يوم الأفعوان، ولم يعرف الصلة بين الأفاعي وقاتل البطاقات، لكن هوبر كان واثقًا أن كل شيء سيظهر حين يُلقى القبض على القديس وعصابته.

دخل هوبر المكتب فوجده خاليًا. ما زالت الخارطة على الطاولة جوارها أدوات رسم هندسي. حدق هوبر إلى الرسم ثم طواه ودسه تحت سترته. الخارطة مهمة لتسهيل دخول القوات الخاصة. التفت بعد ذلك إلى خزانة المستندات ذات الأدراج الستة المغلقة. لكن تصميم الخزانة لم يوفر التأمين الكامل، فبين الدرج وجسم الخزانة فراغ استطاع هوبر أن ينظر خلاله ليرى آلية الغلق البسيطة. عاد إلى الطاولة وتناول المسطرة الحديدية ودسها في الفراغ بين الأدراج كعتلة صغيرة، فانفتح القفل. جذب هوبر الدرج عن آخره ووقف جواره يفحص الأوراق فيه.

وجد تصميمات مرسومة توضح توربينًا.. وحدة توليد كهرباء صناعية عملاقة. قطب هوبر وراح يقلب بين الأوراق، ليجد المزيد من المخططات لآلات مشابهة؛ نُظُم طاقة، محولات، وشيء بدا له كخارطة شارع، لكن بعد التدقيق أدرك أنه مخطط لدوائر كهربية عملاقة.

أخرج هوبر الأوراق ووضعها على الطاولة، ثم فتح الدرج الآخر باستخدام المسطرة، فوجد رسومات هندسية لم يجد هوبر وقتًا لفهم ما بها.

أهذه مخططات ليوم الأفعوان؟

عليه أن يستمر في البحث.

فحص أدراج المكتب ووجدها جميعًا خاوية ما عدا الدرج العلوي الذي رأى هوبر القديس جون ينظر بداخله في وقت سابق. وفيه وجد صليبًا فضيًّا.

قطب هوبر، ثم تذكر المكتوب على الأقراص المعدنية الخاصة بالقديس جون، فهو كاثوليكي. لكن هل يحتفظ الكاثوليك بصلبان؟ لم يكن هوبر واثقًا من الإجابة ولا يعرف سر وجوده في الدرج. لم يكن الأمر هامًّا على أية حال.

فتح هوبر الباب المؤدي إلى الحجرة التي كانت سجن ليزا. دخل مارًّا جوار المنضدة الدائرية، ناظرًا نحو الأرفف المعدنية، ثم تجمد.

على رف ثمة صناديق ملفات سوداء، عليها بطاقة تعريف يعرفها هوبر جيدًا.

وزارة الدفاع الأمريكية - ممنوع التداول.

الصناديق التي كانت في شقة هويلر السرية. كلها هنا.

هذا لغز آخر قد انكشف. لا يعرف هوبر إن كانت هذه التفصيلة مهمة، لكنها ستكون جزءًا من تقريره إلى جالوب. شرع يفتش الأرفف باحثًا عن أي خيط يقود إلى تفسير خطة القديس جون. بعد دقائق توقف عن البحث وقد أغشته الحيرة.

كل الأرفف كانت مليئة، لكن هوبر لم يفهم الصلة بين الكتب التي يجمعها القديس جون وبعضها. ثمة كتب عن علم النفس والتحليل النفسي، وأبحاث أكاديمية، وكتب عن التاريخ العسكري وكتيبات إرشادية صناعية. على رف آخر مجموعات متنوعة من مجلدات قديمة كل منها من حجم مختلف، بعضها مُغلف بغلاف جلدي، وبعضها مغلف بقماش بلا نقوش. ميز هوبر كتابات لاتينية وحروف يونانية، وما استطاع أن يقرؤه أعطاه فكرة عن المحتوى؛ مفاتيح الملك سليمان - كتاب سحر كافاكان - عالم العين.

استدار على عقبيه، ونظر إلى باقي الأرفف. المزيد من الكتب القديمة والحديثة، المزيد من الملفات، وما بدا كمجلدات أبحاث تحمل عنوان: معهد روكوود.

هذا هو المكان الذي قالت ليزا أنها التقت فيه بالقديس جون. لم يعد هناك وقت للمزيد من التقصي. لو أن محتويات مكتبة القديس جون مهمة فلا يمكنه أخذ شيء منها الآن، فقد رأى ما فيه الكفاية.

حان وقت الرحيل.

سمع صوت حركة في المكتب، فخطا إلى الخلف حتى ألصق ظهره بركن الحجرة جوار أحد الأرفف المعدنية. انتظر ينصت محاولًا ألا يكون مرئيًّا لأي من يدخل الحجرة.

سمع صوت باب آخر يُفتح ثم يُغلق وساد الصمت. انتظر هوبر قليلًا ثم تحرك بحرص نحو الباب. لم يكن ثمة صوت، فغامر بالنظر عبر باب الحجرة الصغيرة.

كان المكتب خاليًا، والأوراق التي وضعها على الطاولة ما زالت في مكانها لم تُمس. خطا إلى المكتب وهو يفكر في ما سمعه وفي صوت الباب الآخر. لم يكن صوت باب المكتب الرئيسي فقد كان هذا مفتوحًا. لا بد أنه الباب الصغير الثاني الذي يقود إلى ما يبدو له كحجرة ملفات أخرى.

تسلل هوبر جوار الحائط نحو الباب الثاني، ولف مقبضه فوجده مفتوحًا. الحجرة من خلفه كانت كما توقع، ولها نفس أبعاد الحجرة الأولى لكن فيها خزانة كبيرة تشغل المساحة كلها. فتحها هوبر ليجد مشجبين بلا ملابس عليهما، وثالث معلق عليه عباءة سوداء طويلة ذات غطاء رأس مصنوعة من قماش خشن رخيص.

كان الوقت يضيع من بين يدي هوبر. أغلق الخزانة وعاد إلى المكتب، ثم سمع صوت طرقة عالية من فوقه كأن شيئًا ثقيلًا قد سقط على الأرض. نظر هوبر إلى أعلى وأدرك أن الشيء

الوحيد الذي يعلوه هو سطح المستودع نفسه. سمع المزيد من الضوضاء وحركة أشخاص فوق رأسه.

الكثير من الأشخاص.

عليه أن يعرف ماذا يجري.

***

صعد هوبر إلى سطح البناية وألصق نفسه بحائط الدرجات. السطح كان مسطحًا ممتدًّا على مساحة المستودعات كلها، في مساحة أقرب لمساحة ملعب كرة قدم. من مكانه رأى أضواء برونكس ساطعة وسط الهواء الدافئ لليل الصيف. كانت المستودعات هي أطول المباني في المنطقة المحيطة، لا يضاهيها سوى مبنى سكني قريب. نظر خلفه فرأى أضواء مانهاتن تصبغ السحب بلون برتقالي ساطع، وحتى من هذه المسافة استطاع أن يميز ناطحة سحاب إمباير ستيت بوضوح إلى جانب عدد من المعالم الأخرى لوسط المدينة. لم يكن ثمة وقت للاستمتاع بالمنظر، فالتفت هوبر ليرى ما يجري محاذرًا أن يراه أحد.

السطح مزدحم بالأشخاص. بالطبع من الأفاعي، لكن هوبر لم يكن واثقًا من هذا، فقد كانوا يرتدون عباءات بيضاء ويغطون رؤوسهم بأغطية الرأس المُتصلة بها، ويصطفون في صفوف متوازية مولين ظهورهم نحوه.

أمام هذا الـ... محفل؟ الطائفة؟ وقف رجل يرتدي عباءة مماثلة لما يرتدونه لكن بلون أسود.

القديس جون. كان مواجهًا لهوبر. ورغم أن السطح كان مُضاءً بضوء المدينة المحيطة به، لكن هوبر كان متأكدًا أنه غير مرئي إذ اختبأ جوار بئر السلم.

رفع القديس جون ذراعيه، فاردًا أصابعه مُشيرًا إلى الجمع.

- إخوتي وأخواتي! نجتمع هنا في ظل مولانا الحالك، ونشكره، ونمنحه امتناننا كما نمنحه دماءنا وحيواتنا وأرواحنا. اسمعوني!

رفع القديس جون وجهه فغاصت ملامحه في ظلال غطاء رأسه، لكن هوبر رأى انعكاس الضوء على عدستي نظارته التي لا يزال يرتديها.

- نقف هنا في فجر يوم جديد، يومنا.. يوم الحساب.. يوم صحوتنا. اليوم المحفور في أرواحنا منذ وُلدنا وضِعنا في الظلام. اسمعوني. لقد أتى اليوم.. يوم الأفعوان!

صمت الحشد، وأنزل القديس جون ذراعيه وأخفض رأسه. لم يتحرك أحد أو يتكلم.

ثم رفع القديس جون رأسه مرة أخرى.

- أنتم في ظهري، وأنا في ظهوركم.

هنا هَدَر الحشد رافعين قبضاتهم في الهواء مُكررين العبارة المألوفة. رفع القديس جون ذراعيه مرة أخرى مشيرًا لهم كي يرفعوا صوت هتافاتهم أكثر.

أطاعت الأفاعي، وغاص هوبر في مكانه. صاح القديس جون:

- اسمعوني! اسمعوني! أمامنا مهمة واحدة قبل أن يصير كل شيء ملكنا، وقبل أن يجيء سيد الليل ويُنزل علينا بركاته. تضحية واحدة أخيرة، وسيأتي الظلام.. الليل.. الأفعوان الحالك!

حرك هوبر رأسه حين لمح حركة بركن عينه. غاص أكثر في الظلال حين ظهر رجلان آخران يرتديان الأبيض، يجران معهما امرأة في فستان أحمر، شعرها يتمايل إذ تُحاوِل التملص منهما.

شعر هوبر بصدره يضيق، وتغادر الأنفاس رئتيه وهو يحاول أن يمنع نفسه من أي حركة مهما كانت صغيرة.

ليزا.. لقد أمسكوها.

جذبها الرجلان تجاه القديس جون. حاولت ليزا التملص بكل قوتها، لكنهما كانا يُمسكانها بقوة. نظرة الخوف على وجهها تُجمد الدماء في عروقه.

هذا خطأي.. هذا خطأي.. كان عليَّ أن أخرجها بنفسي..

تراجع القديس جون إلى حائط قصير، وأخذ من فوقه شيئًا، اتضح لهوبر أنه الصليب الذي كان في المكتب. وقف أمام الحشد وليزا وجذب الطرف السفلي للصليب كاشفًا عن نصل حاد. الصليب كان خنجرًا يمسكه الآن في يده.

سبَّ هوبر في سره، ومسح المكان بعينيه وقلبه يدق بنصف سرعة الضوء. كان الوضع ميئوس منه. هو بمفرده في مواجهة المئات. لا يوجد ما يمكنه فعله.

حين لمحت ليزا الخنجر، صرخت وراحت تتملص من قبضتي من يمسكانها، وبينما يحاول الرجلان السيطرة عليها، انكشف رأس أحدهما..

وكان ليروي.

إلهي، ماذا فعلت؟!

دفعا ليزا كي تقف أمام القديس جون. نظر إليها من مكانه جوار الحائط القصير ومد يديه مرة أخرى والخنجر في إحداها. كان يتحدث لكن هوبر لم يكن يسمعه.

ثم توقفت ليزا عن التملص. انتصبت واقفة، وأشار القديس جون للرجلين فأطلقا سراحها. أنزلت ليزا ذراعيها إلى جانبيها. مد القديس جون كفه إليها فأخذتها كي تصعد إلى الحائط القصير ثم تدور لتواجه الحشد.

واحد من الحضور ناول القديس جون كأسًا فضية، وناول الأخرى إلى ليزا. سمع هوبر الكلمات التالية بوضوح.

- اشربي.

أخذت ليزا الكأس دون أن تنظر إليها، ورفعتها إلى شفتيها، ثم...

توقفت، وتمايلت، فأسندها القديس جون.

- حان الوقت. أنت تعرفين وقد رأيتِ بنفسك. تعرفين ما عليكِ فعله. اشربي.

يجب أن يفعل هوبر شيئًا. لم يكن يعرف ما يجري ولا ما يمكنه فعله لكنه كذلك لن يظل صامتًا يشاهد. عليه أن يتدخل برغم انعدام فرصه. عليه أن يحاول.

تهيَّأ للهجوم، لكن ليزا أسقطت الكأس على الأرض. انطلق هوبر من مكانه كاشفًا نفسه، ولم يكن في صفه شيء سوى أن الأعضاء باستثناء القديس جون يولون ظهورهم ناحيته.

نظر القديس جون وليزا تجاهه، ثم خطت ليزا إلى الخلف واختفت وراء الحائط القصير وفستانها الأحمر يطير إلى أعلى. صاح هوبر:

- كلا!

التفت أعضاء العصابة إليه مُتفاجئين، وأمامهم رفع القديس جون ذراعيه.

- لقد حل الظلام، وجاء فجر يوم الأفعوان!

من خلفه انطفأت أنوار برونكس، نظر هوبر حوله فلم يجد سوى الظلام إلا من جهة أضواء مانهاتن التي تتوهج كجوهرة في الليل. ثم بدأت الأنوار في الانطفاء هناك تدريجيًّا. بقع من النور تختفي، واجتاحت موجة من الظلام وسط المدينة. اختفت ناطحة سحاب إمباير ستيت وانطفأ الضوء الأحمر عند قمة مركز التجارة العالمي.

وقعت مدينة نيويورك في ظلام دامس.

السطح مضاء بنور القمر فقط، ويقف القديس جون عند حافته يضحك، ثم أشار نحو هوبر وصاح:

- أمسكوه!

هنا شعر هوبر بيد تمسك بيده وتجذبه للخلف. كانت مارثا تحدق إليه.

- اجرِ!

فأطاع هوبر.

الفصل الأربعون

انقطاع التيار عن بروكلِن

١٣ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك.

نظرت ديلجادو من أعلى السلم الخشبي إلى أسفل، مُبعدة ضوء الكشاف عن دايان كي لا تُعميها. أمامها كان صندوق كهرباء المبنى مفتوحًا.

- لا يبدو أن في الصندوق عطلًا، لكنني لست خبيرة.

أغلقت الصندوق ونزلت درجات السلم الذي كانت تمسك به جارة دايان في الطابق العلوي إيستر، زوجه إيريك فان سابِن، بينما السيدة شايفر تمسك كشافًا محمولًا تضيء به تحت قدمي ديلجادو وتقول:

- كما قلت لكم، وكأننا في عام 1965 مرة أخرى. انقطعت الكهرباء لأكثر من اثنتي عشرة ساعة.

وصلت ديلجادو الأرض، وهي ما زالت تسمع ذكريات السيدة شايفر عن أيام الزمن الجميل. كانت قد تعرفت على المرأة منذ نصف ساعة عرفت خلالها تاريخ المنطقة كلها، لا البناية فقط.

وقفت المجموعة في مدخل البناية توجه كل منهن كشافها نحو الأخريات. قالت ديلجادو:

- أعتقد أنها على حق. التيار مقطوع عن المنطقة بالكامل.

فتحت ديلجادو البوابة الأمامية وخرجت إلى الشارع المظلم الذي سطعت فيه أضواء كشافات الآخرين إذ يستكشفون ما حدث. أخذ إيريك الكشاف من زوجته وقال:

- سوف ألقي نظرة، لا يوجد شيء آخر نفعله الآن.

نظر إلى زوجته، ثم ديلجادو، وحين لم تعلق أيتهما، تنهد مُضيفًا:

- أريد أن أعرف إلى أين يمتد انقطاع التيار.

نظر إلى ديلجادو مرة أخرى وكأنه ينتظر منها إذنًا، وأدركت ديلجادو أنها بالفعل تمتلك سلطة كونها شرطية. أومأت مشيرة إلى الباب بالكشاف.

- حسنًا، لكن كن حذرًا. ربما يكون الشارع أكثر ظلامًا مما تتصور.

- لا تقلقي، فلن يهاجمني أحد.

شهقت زوجته وأمسكت بذراع زوجها. قالت ديلجادو:

- لست قلقة بشأن الاعتداء. ربما تتعثر أو تسقط في حفرة وتكسر ساقك يا إيريك.

- مفهوم. سأسرع قدر الإمكان. سأعود سريعًا.

قبَّل زوجته وأنار كشافه خارجًا، بينما زوجته تراقبه حتى اختفى في الظلام. نظرت إليها ديلجادو لوهلة ثم قررت أمرًا. قالت:

- ماذا لو بقينا معًا؟ سوف ننتظر عودة إيريك ونرى ماذا وجد. سأجري بعض المكالمات حتى يعود.

ثم التفتت إلى دايان وأكملت:

- ألن تخافي لو عدت إلى شقتك؟

- كلا بالطبع. لدينا مذياع ببطارية، سأرى إن كانوا قد أذاعوا شيئًا في الأخبار.

- عظيم. سيدة شايفر، هل تفضلين أن تبقي في شقتك؟

- كلا بالطبع. أريد أن أعرف ماذا سيخبرنا به إيريك بعد عودته. لكنني بحاجة إلى جلب بضعة أشياء من شقتي. هل تلعبن المونوبولي على ضوء الشموع؟

غادرت السيدة العجوز إلى شقتها دون أن تنتظر ردًا. قالت ديلجادو:

- جيد.

ضحكت دايان وربتت على كتفها قائلة:

- السيدة شايفر لطيفة، ستحبينها.

قالت إيستر:

- أيًّا كان، لا تدعوها تبدأ بالحديث عن الجرافيتي الأمريكي.

قطبت ديلجادو:

- تقصدين الفيلم؟

أومأت دايان وقالت:

- أجل. هذه قصة طويلة. تعالي لنر إن كنت سأجد المذياع.

الفصل الحادي والأربعون

الإظلام

١٣ يوليو ١٩٧٧
جنوب برونكس، نيويورك.

وصلت مارثا إلى السلم أولًا ثم دفعت هوبر أمامها، وأغلقت باب السطح بعتلة مائلة، ربما كانت ذات العتلة التي كانت تشهرها في وجه هوبر من قبل.

- تعال!

نزلت الدرجات بسرعة، وأزاح هوبر كل تساؤل خطر بباله حتى يصل إلى الأسفل سليمًا، فطريقه لم يكن مُضاءً إلا بأشعة من نور القمر الباهت الذي اخترق الظلام آتيًا من النافذة العالية عن بداية السلم.

- ماذا يحدث بحق الجحيم؟!

- لاحقًا.. لا وقت الآن للحديث ولا لكسر العنق على الدرج كذلك.

تقبَّل هوبر هذه النصيحة الجيدة.

بينما ينزلان أكثر، يصير السلم كحفرة سوداء أمامهما. كان يسمع مارثا من أمامه، لكنه اضطر إلى تقليل سرعته متحسسًا طريقه إلى أسفل ويده على الإفريز ويده الأخرى تتحسس الظلام حوله.

ثم انفجر الضوء من أسفل عندما فتحت مارثا الباب وانتظرت عبور هوبر. أسرع الأخير نازلًا درجتين درجتين وعبر الباب الذي تفتحه له منقذته.

كانا الآن في المستودع، لم ير هوبر شيئًا فقد غطى عينيه بيديه من وهج الضوء. سمع صوت محرك قبل أن يدرك أن الضوء قادم من كشافي سيارة ليروي القديمة، وكانت مارثا خلف المقود.

لم يحتج هوبر إلى دعوة. دس نفسه جوارها والسيارة تتحرك بالفعل. التفتت السيارة لتواجه مخرج المستودع. دعست مارثا دواسة البنزين وانطلقت نحو البوابة المفتوحة. تشبث هوبر بالحلقة الجلدية فوق الباب المجاور له. سرعان ما ابتعدت السيارة عن المستودع وخرجت إلى الطريق الرئيسي، وانعطفت مارثا خارجة من المنطقة الصناعية كلها إلى شمال برونكس.

- هل يتبعنا أحد؟

عبرت السيارة فوق وهدة عميقة. نظر هوبر خلفه ولم ير إلا الشكل الضبابي للمستودع إذ اختفى الآن ضوء القمر خلف غيامة.

- لا أستطيع أن أرى شيئًا.

- حسنًا.

انحرفت مجددًا بسرعة كبيرة، فزأر المحرك ثم توقف تمامًا. جلست خلف المقود صدرها يعلو ويهبط انفعالًا.

- قطعة القاذورات تلك!

التفت هوبر إليها وسألها:

- والآن هلا أخبرتني بما يحدث؟ ماذا كان يجري على السطح ولمَ تساعديننني الآن؟ أردتِ قتلي في آخر مرة التقينا فيها.

نظرت مارثا إليه بطرف عينيها ولم ترفع يديها عن المقود.

- آسفة لهذا. كان عليَّ أن أفعل شيئًا، فلينكولن أراد أن يُفجر رأسك. لم أكن لأقتلك، ربما كنت سأضربك قليلًا.. لكن أخبرني، أنت ما زلت تعمل لدى الشرطة، أليس كذلك؟

- ماذا؟

- مشكلتك مع الشرطة كانت مجرد غطاء كي تنفذ إلى العصابة. هلُم، لست بهذا الحمق. ربما أبدو أقسى من الآخرين، فالبقاء وسط الأفاعي يستوجب اليقظة. مر عام عليَّ وأنا في هذه الحالة، وقد اعتدت عليها.

- ماذا تعنين أنك كنت على هذه الحالة منذ عام؟ أنت من الأفاعي، أليس كذلك؟

- نعم ولا. لا أظن لدينا وقت كي أشرح لك. علينا أن نبتعد من هنا الآن.

أدارت مارثا مفتاح السيارة مرة أخرى، ومع المحاولة الثالثة دار المحرك. حركت ذراع التحكم في السرعات عدة مرات، ثم انطلقت راضية عن النتيجة.

- راقِب الطريق من خلفنا، لن يمر وقت طويل حتى يلاحقونا.

- لديك حق.

نظرت مارثا إلى المرآة كما فعل هوبر، ورأت على مسافة أضواء مركبات آتية من شارع جانبي.

لقد انطلقت الأفاعي تطاردهما.

صاح هوبر:

- أسرعي!

دعست مارثا البدال فانطلقت السيارة.

الفصل الثاني والأربعون

المدينة رأسًا على عقب

١٣ يوليو ١٩٧٧
جنوب برونكس، نيويورك

فاجأ الظلام الذي ابتلع المدينة هوبر. أدرك أن الليل بالفعل حالك..

الأفعوان الحالك..

رددها صوت في عقله.

مر به هذا النوع من الظلام من قبل، لذلك لا يشعر براحة حتى بعد ما اختبره على سطح المستودع وهو يرى ليزا تقفز لتلقى حتفها. كان هذا هو نوع الظلام الذي لا تراه إلا في البرية أو في الأدغال على بُعد أميال من المدنية.

دفع هوبر هذه الأفكار جانبًا كي يعبر المأزق الحالي. كانت الخطة بسيطة، الابتعاد عن الأفاعي بأي طريقة إلى مكان آمن، ثم معرفة من هي مارثا حقًّا ولماذا تساعده. ثم سيحتاج إلى الوصول إلى السلطات وإلى جالوب. لا يعرف إن كانت مارثا ستساعده في هذا الأمر. المؤكد هو أنها مهتمة بالهرب من الأفاعي مثله وأكثر.

ثم عليه أن يعود إلى بيته. لا يعرف إن كان الظلام قد نال من بروكلن، وتمنى ألا يكون كذلك، فقد ظل لوقت طويل بعيدًا عن دايان وسارة.

تشبث هوبر بالحلقة الجلدية فوق الباب وحاول أن يتجاهل أفكاره عن عائلته مؤقتًا، وحاول التركيز في مهمته الحالية، لكن كل أفكاره كانت أبعد ما تكون عن التنفيذ.

كانت الشوارع حول المنطقة الصناعية خالية من المارة والسيارات. قادت مارثا السيارة المتهالكة عبر شبكة الطرق المتشابهة وقد بدت عارفة بالمكان وأسراره، في محاولة منها للإفلات من متعقبيها. بعد حين اختفى أثر السيارات التي تلاحقهما.

ثم بدد الظلام ضوء برتقالي يتوهج وسط دخان. انحرفت مارثا متفادية الاصطدام بتجمع لأشخاص يقفون وسط الشارع متحلقين حول حريق في مبنى قد تحول إلى هيكل وارتفعت النيران منه لعشرين أو ثلاثين قدمًا في الهواء. شعر هوبر بالحرارة حين توقفت سيارتهما يحيطها الناس بكشافاتهم.

أطلقت مارثا نفير السيارة مرتين، فتحرك الحشد في تكاسل مبتعدًا عن طريقهما. بدا لهوبر أن سيارتهما هي الوحيدة في الطرقات، وفهم السبب.

جذب الإظلام الجميع نحو الشوارع. كان الوقت مبكرًا نوعًا، التاسعة مساءً بحسب ساعة هوبر، والليل كان حارًّا لزجًا. انقطاع التيار يعني الحرمان من النور والتلفاز وأجهزة مكيفات الهواء والمراوح.

لكن المحتشدين لم يكونوا خائفين أو متوترين، بل بدوا أقرب للسعادة. كانوا يبتسمون ويلوحون لبعضهم. علا صوت دردشاتهم وضحكاتهم على صوت النيران التي تحرق المبنى. بعد موضع النيران قل عدد المتجمهرين، وجلس البعض على الأرصفة أو السيارات الواقفة يشربون البيرة وتتراقص أطراف سجائرهم المشتعلة في الظلام.

مالت مارثا على المقود كي تفحص الطريق أمامها وهي تغامر بزيادة السرعة. همست:

- ليس هذا وقت حفلات شوارع.

قطب هوبر واستدار ينظر خلفه مرة أخرى، من مسافة نصف مربع سكني، رأى هوبر حجم الحشد الحقيقي المُضاء بالنيران. بالفعل بدا الأمر كحفل في الشارع.

صوت الارتطام دفع هوبر للنظر أمامه، سبَّت مارثا وأدارت عجلة القيادة موجهة السيارة إلى الحارة المقابلة. سبَّت مرة أخرى عندما وقف أحدهم أمام السيارة مجبرًا إياها على العودة إلى الحارة التي كانت تسير في حدودها. لم تكترث له، فقذف بنصف قالب من الطوب نحو بابها. اندفعت السيارة إلى الأمام. نظر هوبر خارج النافذة حين سمع صوت

تهشم زجاج. خلفهما بدأ الرجال الذين كانوا يقذفون سيارتهما بالحجارة في رشق واجهة متجر زجاجية. تجمهر الناس حول المتجر على ضوء النيران يخلعون ما تبقى من الواجهة البلورية حتى تعرَّت المعروضات تمامًا. قال هوبر:

- بدأت السرقات بالفعل. سيسوء الأمر.

- من الأفضل أن نخرج من هنا بسرعة.

- إلى أين نخرج؟ المدينة كلها غارقة في الظلام، وإن لم يعد التيار سريعًا ستنقلب نيويورك رأسًا على عقب.

- هذه كانت خطته. يوم الأفعوان. قطع التيار وإلقاء المدينة في خضم الفوضى. أغلق النور فيتكالب البعض على البعض وتُدمَّر المدينة. القديس جون يريد تدمير المكان بالكامل، ولديه جيشه. مع انقطاع التيار يصير هو الملك.

بينما يتحدثان، أضاء الشارع بالمزيد من النيران، وصارت الوجوه أكثر شراسة. يجري الناس يمنة ويسرة حاملين أكوامًا من الملابس. نظر هوبر عبر النافذة المجاورة لمارثا ليجد متجر ملبوسات محطم البوابات، وبضاعته منثورة على الرصيف. مال هوبر نحو مارثا وقال:

- اسمعي، لا أعرف ما قصتك، لكن أجل، ما زلت شرطيًّا وأؤدي عملي. أريد أن أصل إلى السلطات وأفترض أنك ستساعدينني وإلا لتخليتي عني منذ البداية، هل أنا مُحق؟

ركزت مارثا على الطريق أمامها ولم تتحدث، لكنها أومأت إيجابًا. ظهرت سيارة تقترب من خلفهما وهي تطلق النفير كي تبعد الناس.

- الأفاعي. يجب أن نفر منهم.

- الناس تتزايد في الطرقات، لن نستطيع المرور.

مسح هوبر الطريق أمامهما بعينيه ثم أشار هاتفًا:

- من هناك.

أمامهما مفترق طرق ذو أربعة اتجاهات. استدارت السيارة إلى واحد منها مزدحمًا من أوله إلى آخره بالسيارات التي تطلق النفير، دخلت مارثا في الاتجاه المعاكس الخالي واندسَّت السيارة في الظلام. بعد قليل أبطأت مارثا السيارة ومالت إلى الأمام لترى الطريق بشكل أفضل.

- ماذا حدث؟

- أحاول أن أرى أمامي.

ثم أضاء وجهها بضوء كشافي سيارة أعمت هوبر، التفت ليرى سيارة الأفاعي آتية من خلفهما.

- أسرعي!

- هذه هي أقصى سرعة لقطعة الخردة التي نركبها!

عبرت سيارة الأفاعي جوارهما، وأطل من النافذة الخلفية رجلان يصيحان في مارثا وهوبر. رأى هوبر لينكولن خلف المقود وللحظة تلاقت أعينهما.

زادت السيارة الحديثة من سرعتها، وعند نقطة معينة في نهاية الشارع دارت حول نفسها وانطلقت في مواجهتهما.

- اللعنة!

ضغطت مارثا المكابح، واستعد هوبر للصدام، إلا أنه لا يظن أن لينكولن بهذا الجنون كي يصطدم بهما، لكنه لم يُرِد أن يندم على ظنه هذا.

هنا ظهرت سيارة أخرى آتية من التقاطع عن يسار هوبر. شاحنة عملاقة رمادية، كتلة من الحديد المصفح. رآها هوبر في البداية بركن عينه، فأمسك عجلة القيادة من بين يدي مارثا وأدارها منحرفًا بعيدًا عن الحادث الذي على وشك الوقوع.

لم يكن هوبر واثقًا إن كان لينكولن رأى الشاحنة. مرت سيارة العصابة عند التقاطع، فاصطدمت الشاحنة بها ودمرت الجهة اليمنى. أبطأ التصادم الشاحنة نوعًا. بينما توقفت سيارة مارثا وهوبر عند نهاية الشارع وانزلقت لتسدَّه بالعرض، ظلت الشاحنة تدفع سيارة الأفاعي أمامها مُفجرة الشرار منها حتى قسمتها نصفين، وأكملت رحلتها معها حتى توقفت العربتان عند الرصيف.

طنَّت أذنا هوبر بينما تكورت مارثا جواره. لم تصدر أي حركة من جهة الأفاعي، ولم يتصور هوبر أن ينجو أيهما من التصادم. هنا خرج سائق الشاحنة ومن يجاوره وراحا يصرخان ويرفعان أذرعهما إلى السماء. كانا يرتديان سترات جلدية عليها شعار عصابة أخرى. لا بد وأنهما قد سرقا هذه الشاحنة وانطلقا يمضيان بها وقتًا ممتعًا.

- اللعنة!

نظر هوبر نحو مارثا التي كانت تعتدل خلف المقود، وعيناها مثبتتان على حطام السيارة.

- أجل، اللعنة. معذرة، ظننتك لا ترين الشاحنة فجذبت منك المقود.

- لو لم تفعل لقُتِلنا.

ارتعشت يدا مارثا وتهدجت أنفاسها. سألها هوبر:

- هل أُصبتِ؟

هزت رأسها نفيًا.

- حسنًا. لننطلق قبل أن ينقل عضوا العصابة هذان اهتمامهما إلينا.

تحركت السيارة بهما، وابتعدا عن الحادث. ظل هوبر ينظر خلفهما طيلة الطريق، لكن أحدًا لم يتبعهما.

الفصل الثالث والأربعون

كيف يعيش النصف الثاني؟

١٣ يوليو ١٩٧٣
جنوب برونكس، نيويورك.

للمرة المائة مالت مارثا على عجلة القيادة، فقد أوشكت السيارة على التعطل مرة أخرى. كانوا على الطريق منذ ربع ساعة. الشوارع الجانبية خالية وقد هرع أغلب من فيها إلى الطرق الرئيسية وسط الفوضى. لم يلُمهم هوبر فالظلام هنا وسط الشوارع الضيقة له جود مادي كثيف ككيانٍ حي يضغط على الأنفاس.

أمر هوبر نفسه أن يتوقف عن خياله هذا.

قالت مارثا وهي تبطئ سيارتها لتوقفها جانبًا:

- نحن نسير في الاتجاه الخاطئ. لو أننا سنذهب إلى السلطات، علينا أن نتجه جنوبًا نحو مانهاتِن.

- لمَ تساعدينني؟

نقرت مارثا على المقود وهي تشفط خديها إلى داخل فمها، ثم هوى كفاها على حِجرها وهي تنظر نحو هوبر وتقول:

- أنت شرطي، وفي البيئة التي تربيت فيها الشرطة تعني كارثة.

- لا أفهم.

تنهدت مارثا وقالت:

- ما أعنيه: هل يمكنني أن أثق بك؟ أحتاج إلى أن أثق بك. راهنت نفسي عليك وأتمنى حتى الآن أن أكسب الرهان.

- لديك حق. أنا شرطي متخفٍ، أعني كنت متخفيًا. مهمتي كانت معرفة ما يخطط له القديس جون مع الأفاعي وكيفية إيقاف مخططاته. عندما أحصل على هذه المعلومات أعود بها إلى الفيدراليين فيتحركون. لذا، يمكنك الثقة بي، وأحتاج إلى التأكد من إمكانية الثقة بك أنت، فيجب عليَّ أن أوصل المعلومات للسلطات فورًا وربما أحتاجك في هذا.

ـ ثق بي. أعرف أنني انتظرت طويلًا، لكن ربما لدينا فرصة الآن.

- ماذا انتظرتِ؟

- لست شرطية، لكنني كنت فقط أبحث عن أخي ليروي.

- تبحثين عنه؟! هو كان يحاول أن يُخرجك من هناك، ولهذا تورطت أنا في هذه المهمة. لقد أتى للشرطة وطلب منهم الحماية لو ساعدناه.

انفتح فم مارثا تعجبًا وهتفت:

- أكان عند الشرطة طيلة الفترة التي اختفى فيها؟!

ثم ابتسمت وأردفت:

- اللعنة. لكنه أخي الصغير.

اعتدلت في كرسيها وصمتت محاولة ابتلاع هذه المعلومات الجديدة، بعدها قالت لهوبر:

- لقد تطلب البحث عنه أعوامًا حتى وجدته. الحياة في بيتنا لم تكن سهلة، وأحيانا لا أستطيع لومه. لكن العصابات تمنحه الوعود وحياة مختلفة وقد قبل ما عرضوه عليه. هل تعرف كم كان عمره حين رحل؟ أحد عشر عامًا. الأحمق كان في الحادية عشرة حين انضم لعصابة ملوك برونكس. حاولت أكثر من مرة أن أساعده وقتها، وفي النهاية فقدت أي تواصل معه. أغلب عائلتنا ظنوا أنه قد مات؛ قُتل عند ناصية طريقٍ لعين من طرق المدينة

على الأغلب. لكن أمي لم تصدق ولم تيأس، وكذا أنا. أخبرتها أنني سأخرج بحثًا عن ليروي وسأعيده. تركت عملي وودعت أمي وخرجت بحثًا عنه. وقتها كان قد انتقل من ملوك برونكس إلى رفقة عصابة الغاضبون. حين وجدته معهم خاف ليروي أن أعيده إلى البيت وتحدث بالسوء عني. أنا أخته وأعرف أن أمر إعادته للبيت لن يكون سهلًا. كان متورطًا للغاية وعرفت أن أمامي الكثير حتى أصل إليه وأجذبه مما يغرق فيه.

- وبقيتِ على مقربة تراقبينه؟

- أجل، بالطبع. لقد وعدت أمنا. كنت لتفعل مثلي، أليس كذلك؟ أما كنت لتفعل مثلي؟

أومأ هوبر. نظرت مارثا إلى قدميها وأكملت:

- بالتأكيد. كنا نتحدث من وقت لآخر، وصار أقل غضبًا من وجودي جواره، وكان هذا مؤشرًا جيدًا. بقينا معًا حتى ظهرت الأفاعي وانضمت إليهم عصابة الغاضبون وكل العصابات الأخرى.

- وانضممت إليهم معه؟

- صدقني، كنت أبحث عن طريقة نخرج بها، لكن الكلام أسهل من الفعل. كل ما استطعت فعله هو العناية بأخي وحمايته وإبقاء عينيّ مفتوحتين.

ثم نظرت إلى هوبر مُردفة:

- وكما قلت لك، أتمنى أن تكون ثقتي بك في محلها لأنني في حاجة إلى الابتعاد عن هذه العصابة أنا وليروي.

- لست وحدك. يمكننا مساعدة بعضنا بعضًا. يبدو أنك تعرفين الكثير عن القديس جون والأفاعي وما يحدث الآن.

- أجل.. أعرف أكثر مما يعرفه الآخرون. لقد عشت فترة مع الغاضبون وقد قربني القديس جون إليه.

- أنت تعرفين أكثر مني بالتأكيد، ونريد أن ننقل أكبر قدر من هذه المعلومات للفيدراليين. هل ستساعدينني؟

- بالطبع! إن كان هذا سيعيد ليروي إلى أمي سأفعل أي شيء.

نظرت مارثا حولها إلى المباني على الصفين وقالت:

- لا أعتقد أن هناك فرصة لاستخدام الهاتف.

- نظام تشغيل الهواتف منفصل عن شبكة الكهرباء. ثمة مقصورة هاتف عند الناصية. هلا حاولتِ تشغيل السيارة مرة أخرى؟

أدارت مارثا المفتاح فعادت السيارة للحياة. اتجهت نحو المقصورة، وحين وصلت نزل هوبر يدور حول السيارة قاصدًا الهاتف، وقد ظن للحظة أنه رأى من يتحرك عن المنعطف. الظلال والأجسام تتراقص عند الزوايا وفوق الأسطح. تحقق هوبر مما حوله لم يجد أحدًا، فقط المباني المظلمة وخلفها السماء المنيرة بانعكاس ضوء ألسنة اللهب على السُّحُب إذ تحترق برونكس.

حتى الآن لم يريا أي سيارة شرطة أو يسمعا صوت صافرتها.

لم تطل يد التخريب مقصورة الهاتف، مما منح هوبر تفاؤلًا حذرًا. الهاتف نفسه كان في مكانه ويبدو كأنه كامل الأجزاء. حين رفع السماعة وجده ميتًا. ضغط على الزر عدة مرات بلا أي تغيير. لقد انقطع خط الهاتف مع انقطاع التيار.

خرج هوبر من المقصورة وسمع صوت نفير السيارات وصافراتٍ على مبعدة. خطا إلى منتصف الشارع ينظر إلى المنازل.

- هل حالفك الحظ؟

كانت مارثا تقف وساقها خارج السيارة والساق الأخرى بداخلها وهي مُرتكنة إلى باب السائق.

- كلا، أتسمعين هذا؟

أغلقت مارثا باب السيارة واقتربت منه. سار هوبر إلى مفترق الطرق، هناك كانت حديقة صغيرة مُحاطة بالأشجار يقطعها ممر معبَّد بالحصى يدور حول نافورة جافة في المنتصف. على الناحية الأخرى من الحديقة، في الشارع الموازي، رأى هوبر الطابق الأوسط من بناية مُضاء، والناس تتحرك فيه وسط صوت موسيقى. قالت مارثا:

- يبدو أن الأغنياء لا يقلقون بشأن انقطاع التيار. نظر إليها هوبر ثم نظر حوله مرة أخرى. كانت مُحقة، فالمنطقة حول الحديقة تبدو جيدة بالنسبة لباقي ما حولها. البنايات مكونة من خمسة طوابق، بعضها يتشارك في شُرفة كبيرة في الطابق العلوي، وبعضها له نوافذ فرنسية كبيرة كالتي رأى من خلالها الحفل المُضاء.

- أتظن في إمكاننا استخدام هاتفهم؟

أشار هوبر بإبهامه إلى المقصورة خلفه وقال:

- الهواتف معطلة. نحتاج أن نجد شرطيًّا ونستخدم جهاز اللا سلكي الخاص به.

- وهل رأيت أي شرطي حتى الآن؟ لقد تركوا برونكس تحترق. ماذا عن رجال الإطفاء. ألديهم جهاز لا سلكي؟

- يمكننا أن نجرب، لكني أعتقد أنهم سيكونون مشغولين للغاية.

دوت صفارة من الجوار، كأن أحدهم يحاول إيقاف سيارة أجرة. صاح أحدهم من شرفة:

- أهذا أنت يا فرانكي؟

قطب هوبر حاجبيه، وسار أمامًا كي يستطيع أن يرى ما خلف الأشجار. عَبَر الحديقة ومارثا جواره ورأيا عددًا من الأشخاص في الشرفة يتحدثون ويدخنون ويشربون. ثمة طاولة في الركن عليها جهاز كاسيت يعمل بالبطاريات يذيع أغنية لبروس سبرنجستين.

صاح هوبر:

- كلا، لستُ فرانكي.

تجمع عددٌ آخر من الأشخاص في الشرفة ومال بعضهم كي يرى أفضل. لم يستطع هوبر تبين ملامحهم جيدًا، فالضوء كان آتيًا من خلفهم. صاحت امرأة:

- أنت تشارلي؟

تبادل هوبر ومارثا نظرة، ثم هتف هوبر:

- كلا، ولا تشارلي كذلك.

- ليتك تجلب المزيد من الشامبانيا لأجل مايك.

وكتأكيد لوجهة نظر المرأة، صدر صوت فتح سدادة زجاجة ورافقه صوت ضحكة أحدهم.

ثم دوى صوت كأنه طلقة نارية. انحنى هوبر ومارثا على الفور. صرخ أحد ممن في الحفل، ثم صمت الصخب سوى من صوت الأغنية.

التفت هوبر إلى مارثا، ثم دوى صوت طلقة ثانية فثالثة. نقر على كتفها كي تتبعه نحو السيارات الواقفة تحت شرفة الحفل. ظلت مارثا تراقب الشارع من خلف السيارة، بينما

يراقب هوبر المبنى من خلفهم. ما زالت الشرفة مضاءة وأحدهم ينظر إليهما من حاجز الشرفة. صاح هوبر:

- فليدخل الجميع. أغلقوا الكاسيت والأنوار وابقوا بالداخل.

لم ينطق من في الشرفة، لكنه اختفى. بعد لحظات صمتت الموسيقى وأغلق النور وأوصِدت النافذة الكبيرة.

التفت هوبر إلى مارثا التي ما زالت تراقب المنطقة.

- لا أرى أي شيء. ربما كان الصوت من الشارع المجاور.

- تعالي.. يجب أن نتحرك. هل تعرفين أين نحن؟

- أجل. هل يمكننا التحرك؟

قام هوبر يمسح المكان. لم يسمع المزيد من طلقات الرصاص ولم ير أحدًا.

- أجل. لنتحرك بسرعة.

خرجت مارثا من خلف السيارة وقطعت الحديقة عدوًا، تفحص هوبر الطريق مرة أخرى ثم تبعها. وصلا السيارة في نفس الوقت وركباها فورًا. أدارت مارثا عجلة القيادة بقوة كي تدور السيارة حول نفسها في الشارع الضيق، لكن السيارة كانت طويلة حتى أن مارثا اضطرت لضغط دواسة الوقود كي ترفع عجلة السيارة الأمامية فوق الرصيف حتى تكمل استدارتها. حين دارت السيارة إلى الاتجاه الصحيح كانت كلتا العجلتين الأمامية والخلفية على اليسار فوق الرصيف، وتعطل المحرك مرة أخرى.

ثم دوى صوت ارتطام وغاصت السيارة إلى أسفل ثم ارتدت إلى أعلى وتأرجحت من جانب إلى آخر. نظرت مارثا إلى أعلى ثم صرخت إذ انبعج السقف فوقها مع صوت ارتطام جديد.

تمايلت السيارة مرة أخرى تحت ثقل ما سقط على سقفها. تلا ذلك صدمتان أخريان وبدأ الزجاج الأمامي للسيارة في التشقق أمام عيني هوبر حين مال السقف أمامًا.

حاولت مارثا تحريك السيارة بينما ظلت الأخيرة تتأرجح. نظرت إلى أعلى مرة أخرى وصاحت في مفاجأة. رأى هوبر ساقين وانزلق صاحبهما على الزجاج الأمامي ثم تمدد على مقدمة السيارة. ثم بدأ المزيد من الرجال في القفز فوق السيارة والانزلاق عنها من كل الجهات. راح هوبر يلتفت حوله، ثم ضغط زر إحكام غلق الباب جواره قبل أن يمد يده أمام مارثا يغلق بابها.

صارت السيارة محاطة بالرجال الذين قفزوا غالبا من الشرفة التي وقفت السيارة تحتها. كانوا سبعة رجال، وراحوا يؤرجحون السيارة من جهة إلى أخرى. ثم أتى المزيد من نهاية الشارع بعضهم يحملون أسلحة مُرتجلة؛ مضارب بيزبول، مِحراك مدفأة.. إلخ. وكانوا جميعًا يرتدون أزياء من الجينز الأزرق فاتح اللون وكأنه زي موحَّد.

عصابة أخرى. لم تكن الأفاعي، لكن هذا لم يُزد من فرصة نجاتهما منهم.

أدارت مارثا مفتاح السيارة فزأر المحرك، لكن حين حركت ذراع السرعة ماتت السيارة مرة أخرى. كررت ما فعلت بينما هوبر لا يجد ما يفعل سوى مراقبة من يؤرجحون السيارة التي صارت كسفينة في عرض بحرٍ هائج. مع الوقت ستنقلب السيارة وهم بداخلها.

رفع هوبر ذراعيه يحمي وجهه حين ضرب أحدهم الزجاج الأمامي ببلطة. لم ينكسر الزجاج لكن انتشرت التصدعات فيه. قفز الرجل على مقدمة السيارة وانتزع البلطة، وحين تحررت فقد توازنه وسقط على ظهره، لكن رجلًا آخر أخذ منه البلطة وضرب بها الزجاج مرة أخرى.

- تعالي!

صاح بها هوبر وهو يجذب مارثا من سترتها ويقفز معها إلى المقعد الخلفي. سقطت على أرضية السيارة جواره، لكنه لم يتوقف. أكمل طريقه نحو المساحة المفتوحة في خلفية

العربة فتبعته مارثا على الفور وتكورا وراء المقعد الخلفي وأعينهما مثبتة على زجاج السيارة الأمامي الذي كاد يتهشم بالكامل تحت ضربات عصي البيزبول بينما يكسر الرجل ذو البلطة مقدمة السيارة.

سواء كانت العصابة تعرف أنهما ما زالا بالداخل أم لا، فعليه أن يتصرف فورًا. نبش هوبر أرضية السيارة حتى خلع البساط بحثًا عن الفتحة التي توضع فيها العجلة الاحتياطية، فوجد ما كان يبحث عنه؛ مفك الإطارات الحديدي. أمسك به بينما فتحت مارثا الباب الخلفي للسيارة ثم التفتت إلى هوبر الذي صاح فيها:

- اذهبي وسأتبعك.

انزلقت خارج السيارة وراحت تجري، لاحظ أفراد العصابة محاولة هربهما وسمع رجلين منهم يعدوان مطاردين مارثا.

خرج هوبر من السيارة مُطوحًا مفتاح الإطارات، أصابت ضربته كلا الرجلين، فسقط واحد منهما بلا حراك، بينما تدحرج الآخر إلى الرصيف ممسكًا بوجهه والدماء تتدفق بين أصابعه.

رأى الآخرون ما حدث، وحين تهيأوا للانقضاض كان هوبر قد قطع مسافة طويلة، مؤرجحًا ذراعيه وهو يجري مُبتعدًا عنهم قدر استطاعته. أمامه رأى مارثا متكورة جوار سيارة. أشار إليها فخرجت وراءه.

وراحا يعدوان.

الفصل الثالث والأربعون

فرسان الجحيم

١٣ يوليو ١٩٧٧
جنوب برونكس، نيويورك

أحرزا المزيد من التقدم على قدميهما حتى أن هوبر تمنى لو أنهما قد تركا سيارة ليروي مبكرًا. يئست العصابة منهما بسهولة، فقد طاردوهما حينًا ثم تركوهما. حين توقف هوبر ومارثا ليرتاحا على الرصيف، ابتسمت له مارثا وهي تعب الهواء، وابتسم لها شاعرًا بالنجاة. كان يعرف أن الحظ حالفهما هذه المرة، فلو أن أفراد العصابة كانوا يحملون أسلحة نارية لاختلف الوضع بالكامل.

بعد أن ارتاحا، توجها نحو الشارع الرئيسي، فهما يحتاجان إلى جهاز لا سلكي ليتصل هوبر بديلجادو والعميل الخاص جالوب. أدرك هوبر أن فرصتهما في لقاء الشرطة في الشارع الرئيسي أكبر من فرصتهما في الشوارع الهادئة.

المشكلة أنه لم يكن ثمة أثر للشرطة. كانت الشوارع الكبيرة مزدحمة بعد أن زال عنها طمأنينتها مع غياب التيار الكهربي لعدة ساعات وغياب السلطات، وانقسم المواطنون في فرق كل يعني بنفسه وذويه.

مع سيرهما نحو الجنوب، وجد هوبر المزيد من السرقات وعمليات النهب، ولم يتبق من المتاجر شيء إلا أرفف خالية وواجهات زجاجية مكسورة.

مرا برجل مُسن جالس على مقعد خارج أحد المتاجر، معلقًا بندقية على كتفه وممسكًا بمسدس في يده بينما يُنهب متجر في نهاية صف البنايات. نظر الرجل لهوبر ومارثا وقبض على مسدسه، والمتجر جواره لم يُمس كأنه يحرسه.

قالت مارثا وهي ترمق الناس تدفع أمامها عربات تسوق مليئة بالمسروقات:

- المدينة تحتضر. لقد تحول المكان إلى حديقة حيوانات.

لم يقل هوبر شيئًا، وظل يرمق التدمير ويبحث عن أي علامة لوجود الشرطة.

ولم تكن هناك أي علامة.

توقفا عند التقاطع التالي، واختارا طريقهما بعيدًا عن الشارع المسدود بسيارات مقلوبة وأخرى تحترق، ومجموعة من الرجال والنساء يتعاركون بينما رجل وسطهم ممد على الأرض يُركل. الشارع الآخر كأنما انفجرت فيه قنبلة، لكن هوبر عرف أن التدمير قديم، فقد كانت نيويورك تتآكل من زمن قبل انقطاع التيار. عن يمين الطريق بناية مهمة تطل على ساحة خالية، وعلى الجانب الآخر رجلان يدخنان مستندين إلى سياج.

تسارعت خطا هوبر وحذت مارثا حذوه. عند الناصية سمعا استغاثة من امرأة عجوز. تردد الصوت عبر الطرقات وكان تحديد مصدر الصوت مستحيلًا. راح الصوت يعلو ثم انخفض حتى اختفى.

جزَّ هوبر على أسنانه ونظر نحو مارثا التي تحدق أمامها بلا تعبير. لقد كانت على حق. المدينة تُحتضر وتدمر نفسها.

لقد جاء يوم الأفعوان.

أقسم هوبر أن يجبر الأفاعي على دفع الثمن.

أكملا السير نحو الطريق الرئيسي إلى مانهاتِن، وصار الليل مُضاء بفضل الحرائق التي راحت تتزايد خلال رحلتهما. بعد بضعة مبانٍ ظهر شارع بالكامل يحترق. تُرى كيف ستبدو برونكس في الصباح؟

- هل تظن أن مانهاتِن في نفس الحال؟

- لا أعرف.. لم نر أي رجال شرطة هنا لأنهم مشغولون هناك بالحفاظ على السلام. هناك العديد من الأغنياء في المدينة.

- والعديد ممن لن يجدوا قوت يومهم هنا بعد انقضاء هذه الليلة.

بدأ الشارع في الازدحام مرة أخرى بالمزيد من السيارات التي يحاول أصحابها الهرب لكنهم عَلقوا في الزحام المروري. لم يمنع هذا السائقين من إطلاق النفير باستمرار. أجفل هوبر من علو الصوت وهو يمر بهم، ثم رأى بعض الدراجات البخارية عند التقاطع تدور حول السيارات الواقفة وتجتاز الزحام بسهولة.

لو أن معنا دراجة بخارية لوصلنا مانهاتِن منذ ساعات.

سمع هوبر صوت دراجة نارية تقترب من شارع جانبي ثم تتوقف، ويحدق سائقها فيهما ثم ينطلق بالدراجة عائدًا من حيث جاء بسرعة مذهلة.

توقف هوبر من التعب ومن تلاعب عقله به، لكن ظل لديه شعور سيئ تجاه ما سيحدث. توقفت مارثا وسألته:

- ماذا حدث؟

عاد صوت الدراجات البخارية كأنما هبط عليهم من السماء، التفتت مارثا وتبعها هوبر ينظر إلى السائق الذي عاد متبوعًا بست دراجات بخارية أخرى. توقف أولهم وصاح:

- مرحى! مرحى! لو أن هذه هي مارثا ورفيق فراشها من الشرطة فنحن محظوظون! مارثا! كيف يومك؟

كان المتحدث هو سيتي، ومن خلفه صدح صوت ضحكات رفاقه مسموعًا فوق صوت المحركات.

لقد وجدتهم الأفاعي.

الفصل الرابع والأربعون

تقرير إيريك الميداني

١٣ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

- لذا قلت لجورج، انظر.. لو كنت تريد صنع فيلم يعني شيئًا للجمهور، لا بد أن يعني شيئًا لك. نظر لي وقال: ماذا تعنين؟ فنظرت إليه وقلت: اسمع يا بني، أتعرف أي أوقات حياتك كانت الأفضل؟ عندما كنت في المدرسة. هذا هو الوقت الأفضل. ثم تخرجت وابتعد أصدقاؤك كلهم ثم.. حسنًا.. بخ! كل شيء انتهى. يمكنك صنع فيلم عن هذا.

نظرت ديلجادو إلى دايان نظرة جانبية، لكن تعبير وجه دايان بدا وكأنها تحاول كتم التثاؤب. لوح المونوبولي ما زال على طاولة العشاء أمامهن، لكن ديلجادو أصابها الملل سريعًا، ورغم التحذيرات قررت أن تسأل السيدة شايفر عن الأمر الممنوع ذكره.

بدت السيدة شايفر سعيدة للغاية وهي تجيب سؤالها، والآن، وبعد ساعتين، نجحت في إعادة حكي القصة بأربع روايات مختلفة اختلافًا طفيفًا عن الأخرى، لكن كلها عن كيف أنها ألهمت مخرجًا يُدعى جورج لوكاس بفيلمه الأيقوني كما قالت. لم يكن عند ديلجادو فكرة إن كانت تلك الحكاية صحيحة أم خيالًا غزا عقل امرأة عجوز.

ربما لم تكن لعبة المونوبولي على ضوء الشموع بهذا السوء.

وقفت إيستر جوار النافذة المطلة على الشارع، وظلت هناك حينًا تنتظر عودة زوجها بينما تثرثر السيدة شايفر. قالت دايان:

- لو خرجت لن تجديه، ثم سيعود وستكونين أنت بالخارج وسيضطر للنزول للبحث عنكِ.

كانت محقة. كل ما في وسعهن فعله هو الانتظار. كن يعرفن أن التيار قد انقطع عن المدينة كلها كما سمعن من المذياع قبل أن تفرغ بطاريته. أمضين نصف ساعة يبحثن في الشقة عن بطاريات ولم يجدن، فأشعلن الشموع.

استطاعت ديلجادو أن تتصل بجالوب، ولم تعرف لماذا شعرت بحاجة لإخباره، لكن هذا منطقي. أخبرته بكل ما عرفت وقد بدا عليه لمحاتٍ من اهتمام، وأسعده ما تلقى من معلومات حتى أنه تناسى كيفية معرفتها بعملية هوبر السرية، العملية التي لم تكن ديلجادو طرفًا فيها وما زالت.

أخبرت جالوب بمكانها في حالة كون أزمة انقطاع الكهرباء ممتدة عبر المدينة. وأخبرها جالوب بأن تبلغ المعلومات لديها لرؤسائها في شرطة نيويورك، لكن بمجرد أن أغلقت الخط معه، انقطع الاتصال تمامًا. فكرت في أن تبلغ أقرب مكتب شرطة بالجوار، لكنها استبعدت الفكرة على الفور.

لقد وعدت هوبر بأن تحمي أسرته.

- لقد عاد!

صمتت السيدة شايفر وجرت إيستر نحو باب الشقة خارجة منه. سمعت ديلجادو صوت خطواتها تنزل الدرجات وهي تعدو نحو مدخل البناية. بعد لحظات، عادت برفقة زوجها إيريك. هتفت دايان واقفةً:

- إلهي! إيريك، لقد غبت لساعات! أين كنت؟

أضاء إيريك كشافه ووضعه على الطاولة ثم جذب كرسيًّا وجلس، فأمسكت إيستر بيده.

- لقد تحولت المدينة إلى سيرك! الكثير من الناس والكثير من السيارات. لم أر شيئًا كهذا من قبل. ذهبت إلى بيت تشارلز وجون. كانا بخير وقد قرر تشارلز أن يأخذ جولة بنفسه، فنزلنا معًا. معذرة، فلم أدرك أنني غبت كل هذا الوقت. لقد مشينا حتى شارع ويلوجبي.

صمت إيريك. نظرت كل امرأة إلى رفيقاتها، ثم جذبت ديلجادو كرسيًّا وجلست جواره.

- ماذا حدث؟

- لا أعرف ماذا يجري. ثمة شيء غريب.

- غريب؟

- في شارع ويلوجبي بناية مُضاءة.. ربما لديهم مولد كهرباء أو شيء من هذا القبيل. كانت كلها مُضاءة. وكان هناك المئات من الأشخاص.. لا أعرف.. كانوا في مسيرة نحوها وكانوا يرتدون سترات متشابهة ويحملون أسلحة.

قالت السيدة شايفر:

- الجيش! كنت أعرف أنه سيتحرك لمساعدتنا.

- كلا، لم يكن الجيش. بمجرد أن أدركنا كنههم عدنا سريعًا إلى هنا. لقد كانوا عصابة ضخمة يرتدون سترات على ظهورها رسم أفعى.

خفق قلب ديلجادو في صدرها.

- أفعى؟

- أجل.

غاصت ديلجادو في كرسيها، وضغطت إيستر على يد زوجها وهو ينظر إلى المحققة.

- هل يعني هذا شيئًا؟ أتعرفين من يكونون؟

تجاهلت ديلجادو مؤقتًا هذا السؤال.

- قلت أن هذا حدث في ويلوجبي؟ أتذكُر أين تحديدًا؟

- بالتأكيد.. البناية المضاءة هي معهد روكوود.

الفصل الخامس والأربعون

الهرب إلى الخطر

١٣ يوليو ١٩٧٧
جنوب برونكس، نيويورك

أوقف سيتي دراجته البخارية بزاوية وأنزل ساقًا واحدة على الأرض. ابتسم وهو يدير المقودين بقبضتيه مُسرِّعًا حركة المحرك باستمرار وهو يتحدث.

- اللعنة يا فتاة. كنا نبحث عنك في كل مكان!

ميز هوبر لكنة جنوبية في كلامه.

- ألم تخبرك أمك ألا تخرجي مع غرباء؟ هه؟

شعر هوبر بتوتر مارثا جواره. لقد ظلت مع الأفاعي لفترة طويلة كي تعتني بأخيها، وتقربت للغاية من أعضاء العصابة بمن فيهم الشاب الذي يدعونه سيتي.

خلف سيتي، اصطفت الدراجات الست الأخرى مُزيدين سرعة محركاتهم مثلما يفعل قائدهم. فقط أحدهم بدا متحمسًا زيادة عن اللازم وراحت عجلة دراجته الأمامية تتملص من تحته. لا يعرف هوبر الكثير عن الدراجات البخارية إلا كونها خفيفة مُصممة للحركة على الطرق الممهدة. نظر هوبر إلى مارثا فتلاقت أعينهما. همس لها:

- حين أقول اجري، اجري.

أومأت مارثا بخفة. صاح سيتي:

- مهلًا! لا تخبئي أسرارًا عن إخوتك يا مارثا. سوف نعيدك إلى القديس. يمكنك الركوب معي.. تعرفين ما أعني؟ عليك أن تتمسكي بي بقوة الآن.

أزاد سيتي السرعة مرة، مرتين، ثلاث مرات، وفعل الآخرون مثله وهم يضحكون.

- اجري!

اندفع هوبر يمينًا متجهًا نحو الرصيف عابرًا الطريق نحو سياج حديقة المدينة التي كانت أكبر من الحديقة التي مرا بها من قبل. وصل إلى السياج ونظر خلفه فلم يجد أثرًا لمارثا.

- اللعنة!

لقد جرت في اتجاه مختلف. أمامه رأى ثلاث دراجات تتهيأ للالتفاف وتعقب مارثا، بينما الدراجات المتبقية اندفعت نحوه بقيادة سيتي.

نزل هوبر من تحت السياج وتعثر إذ كان الطريق من تحته مائلًا. أمامه امتدت الحديقة في الظلام والطريق يلتف حول الأشجار، والأرض غير ممهدة ومليئة بالحفر. عدا هوبر مُتوكئًا على الأشجار كي يحافظ على عزمه وسرعته. صوت الدراجات قريب إذ اندفع سيتي ورفاقه عبر السياج وطارت الدراجات للحظات قبل أن تنزل على الأرض المنخفضة. سقطت إحدى الدراجات جانبًا في هبوطها، فلم يعبأوا بها وانطلقوا خلفه. وجد سيتي هوبر، فاعتدل يطارده بحماس وغضب.

توارى هوبر خلف شجرة حتى عبر سيتي ثم عاد يفتش بين الأشجار بينما رفاقه غير قادرين على المناورة مثله. كما توقع هوبر، فالدراجات البخارية ممتازة في الطرق غير الممهدة إن كان يقودها شخص ذو خبرة، بينما تسهل قيادتها في الشوارع التي صُممت خصيصًا لأجلها.

- هوبر!

توقف هوبر خلف شجرة أخرى بينما تدور أضواء الدراجات في أنحاء الحديقة. عند الجهة الأخرى من الحديقة رأى مارثا تلوح له وقد زادت ملابسها البيضاء وضوحها في الظلام. جرت نحوه فاردة ذراعيها للاتزان، وبعد لحظات سقطت أضواء الدراجات عليها مع ظهور الأفاعي الثلاثة الآخرين عند المدخل ودخولهم خلفها.

وصلت مارثا إلى هوبر في نفس اللحظة التي وجده فيها سيتي. رفع قائد المجموعة عجلة الدراجة الأمامية في الهواء، فراحت تدور على ارتفاع قامة. عدا هوبر في اتجاه، ومارثا في اتجاه آخر. ثم دفع هوبر بقدميه سحابة تراب عالية. التفت سيتي مطاردًا هوبر وقد أحال كشاف دراجته التراب إلى سحابة برونزية خانقة.

تصايح الأفاعي وهم يندفعون نحو هوبر ومارثا. وقف هوبر خلف شجرة وكذا فعلت مارثا حتى مرت بهم الدراجات تملأ الهواء بالمزيد من الغبار. رأى هوبر الأفاعي يتوقفون كي يستديروا مستكملين المطاردة فاستغل هوبر الموقف وغيّر مكانه إلى شجرة أخرى متخفيًا خلف الغبار. أشار لمارثا أن تظل مختبئة لكنه لم يكن واثقًا أنها رأته خلف كل هذه العوالق في الهواء.

نادى سيتي رفاقه، وبدأت الدراجات في التقدم ببطء الآن تضيء كشافاتها الهواء المُترب. كما خطط هوبر، فقد ضلل الأفاعي. ظل هوبر جالسًا على الأرض، تتحسس يداه سطحها بحثًا عن شيء أكبر من الحصى والزلط. أخيرًا وجدها، مغروسة في الأرض؛ صخرة في حجم كرة البيزبول، وبدت مناسبة.

حين اقتربت الدراجات، رفع هوبر الحجر ورماه بعيدًا من فوق سحابة الغبار المُضاءة. غابت في الظلام ثم بعد ثانية سمع صوتها تصطدم بشجرة.

فورًا التفتت كشافات الدراجات نحو الصوت وتحركت تجاهه. قام هوبر وعدا خلف آخر دراجة وجذب طرف سترة راكبها. سقط الرجل إلى الخلف وانزلقت الدراجة من تحته ومالت جانبًا. جثم هوبر بركبتيه على صدر الرجل مُخرجًا الهواء منه، ثم لكمه في وجهه فشعر بأنف الرجل تنبعج تحت قبضته وتلوثها بالدماء.

قام هوبر وخطا فوق الأفعوان متجهًا نحو الدراجة التي كانت تدور عجلاتها بأقصى سرعة لها وهي ساقطة. سيطر عليها ونظر خلفه فرأى مارثا تظهر من خلف الشجرة وتجري نحوه.

ركب هوبر الدراجة ومارثا خلفه وصاحت:

- هل أنت واثق من أنك تعرف كيف تقود هذا الشيء؟

- مر وقت منذ أن ركبتها آخر مرة.

رغم أن هذه الدراجة غريبة على هوبر، لكنه قد ركب مثيلاتها من قبل، وبمجرد أن يخرج من هذه الحديقة سيكون أمر قيادتها سهلًا. نقرت مارثا على كتفه لتنبهه أن سيتي عائد نحوه.

انطلق هوبر نحو مدخل الحديقة، وحين عبرها أزاد من سرعته حتى شعر أنهما سيُقذفان من فوق الدراجة. صاحت مارثا بشيء في أذنه، لكنهما كانا في طريق الفرار، واعتبر هوبر هذا انتصارًا لهما.

***

اتجه هوبر إلى الغرب، ثم سار بمحاذاة نهر هارلِم متخذًا طريقًا ضيقًا بين ساحات معشوشبة خالية وقضبان القطار.

قبل ذلك سلك هوبر طرقًا عشوائية وقد سمحت له سرعة وثبات الدراجة الفرار من الأفاعي. والآن محرك الدراجة يبتلع الطريق المنبسط بسهولة.

مع اتجاههما إلى الجنوب، تزايد الزحام وتوقفت السيارات تطلق الأبواق في عصبية، لكن الدراجة ستستطيع أن تعبر بهما الزحام.

المنطقة أمام الجسر كانت مزدحمة لا كأي زحام. اضطر هوبر للتوقف. كان الجسر مغلقًا بمتاريس ضخمة لمنع السيارات من دخول مانهاتِن. خلف المتاريس وضعت كشافات عملاقة مُضاءة بمولدات كهرباء، وخلف كل هذا وقف صف من سيارات الشرطة بعرض

حارات الجسر. الجنود يرتدون الخوذات ذات واقيات الوجه، ويحملون الدروع والعصي الخشبية. بينما وقفت الخيول بفرسانها جوارهم وسط هواء الليل الدافئ.

قال هوبر:

- أخيرًا الشرطة!

اقترب قدر ما استطاع بدراجته من الجنود.

- قف حيث أنت!

أوقف هوبر الدراجة البخارية. في نهاية صف الفرسان ضابط يمسك مكبر صوت في يده. اقترب بحصانه الذي راح يتفلت من تحته يمنة ويسرة.

- انزل عن دراجتك وابق مكانك!

نزلت مارثا عن الدراجة، ثم نزل هوبر وسار إلى الأمام.

- قف مكانك وأبق يديك حيث أراهما.

توقف هوبر ورفع يديه. عليه أن يغامر. هو الآن رجل مطلوب للعدالة، لكن وسط هذه الفوضى كان يشك أن القوات عند الجسر ستعبأ به لو لم يتعرفوا على اسمه.

- اسمي المحقق جيم هوبر. أعمل في القسم رقم 65 في بروكلن. جنايات.

أنزل الفارس مكبر الصوت واقترب من زملائه، ومال متحدثًا مع أقربهم إليه، التفت الأخير متجهًا نحو عُمق الجسر، بينما أعاد الآخرون ترتيب وقفتهم ليغلقوا الفجوة مكانه.

تنهد هوبر وبدأ في السير نحوهم.

- هوبر، انتظر!

التفت إلى مارثا، ثم سمع صوت خطوات لحصان من خلفه ليجد أن فارسين يقتربان منه فتوقف رافعًا يديه.

- اسمعاني. أنا ضابط شرطة! أحتاج إلى الاتصال بمكتبي عبر اللا سلكي. لديّ معلومات تهم المباحث الفيدرالية.

دار الفارسان حول هوبر، يعزلانه في منتصف الجسر، ويجبران مارثا على الابتعاد.

- اركع وضع يديك فوق رأسك!

رفع هوبر بصره إلى الفارس، لكنه لم يتبين وجهه خلف الواقي. رفع الشرطي عصاه إلى أعلى.

- اركع!

تنهد هوبر ثم أطاعهما وركع على الأسفلت الساخن وكفاه متشابكان خلف رأسه.

انفرج صف الفرسان وعبرت سيارة شرطة متبوعة بشاحنة سوداء، نزل من العربتين عدد من الشُّرَطيين يرتدون الزي الأزرق المميز قصير الأكمام، والتفوا حول هوبر حاملين أسلحتهم.

- ابتعدا عني!

نظر هوبر نحو الصوت، ورأى مارثا مُقيدة وشرطيان يسحبانها إلى حافلة صغيرة، وحين استدار هوبر قابلت وجهه لكمة قوية. تمايل العالم حوله إذ تهاوى على الأرض شاعرًا بدوار لم يصل إلى حد فقدان الوعي. ملأ فمه طعم معدني وسال سائل دافئ من بين شفتيه.

انضغط وجهه على الأرض حين دفعه الجنود ليقيدوا ذراعيه خلف ظهره ويجذبوه ليقف، ولم تمس قدما هوبر الأرض وهم يجرونه إلى الحافلة ليلقوه فيها.

٢٦ ديسمبر ١٩٨٤

كوخ هوبر

هوكينز، إنديانا.

توقف الثلج عن الهطول، وهو أمر جيد للغاية. نظر هوبر عبر نافذة المطبخ وهو يغسل كوب القهوة. يبدو أنه قد شرب جالونًا منها اليوم.

في حجرة المعيشة، استلقت إيل على الأريكة مُندسة تحت تلٍ من الأغطية وشعرها المموج يُطل مُنسدلًا على المسند. لم تتحرك منذ حين، فقد تأخر الوقت ولا بد وأنها نامت أثناء فترة الراحة من الحكي.

هذا أفضل.

ظل هوبر يحكي منذ المساء حتى آخر الليل، ولا يعرف إلى متى يستطيع الاستمرار رغم أن حنجرته لم تؤلمه بعد.

يمكنهم استكمال الحكاية في الصباح. في الواقع سوف يحكي لها ملخصًا مُعدلًا، فتلك الأيام التي قضاها في نيويورك عام 1977 كانت مُعقدة، والقصة الكاملة أكبر من قدرتها على الاستيعاب.

أليست كذلك؟ أم أنه يضرها بهذا التنقيح؟ هي ذكية وليست كالأطفال في سنها، وهي بالفعل تستمتع بالقصة وتنصت إليها باهتمام. كان يكشف لها عن عالم جديد كامل، ويريها نفسه على ضوء مختلف تمامًا.

تمنى لو تراه على هذا الضوء الجديد كشخص صالح. لقد فعل كل ما في وسعه وقتها، ولم يُرِد أن يكذب عليها، أو يدعي أنه كان شخصًا لم يكنه.

القصة مظلمة ومرعبة حتى بعد تعديلها. ربما لا بأس في هذا، فالأطفال يحبون أن يُفزعوا فزعًا آمنًا. وأي أمان لها أكثر من عودته من مغامرته تلك سالمًا، وقد طمأنها على ديلجادو من قبل؟

ما زال في القصة المزيد من الأحداث والموت.

تنهد هوبر. ربما كان يفكر أزيد من اللازم، وربما هو يستخف بقدرة استيعاب إيل.

تقلبت إيل على الأريكة، فعاد هوبر إلى حجرة المعيشة ليجدها قد جلست. سألته:

- ماذا حدث بعد؟

- ظننتك نمتِ!

هزت إيل رأسها نافية وهي تثني ساقها تحتها وتسأل:

- هل كان القديس جون مثلك؟

حرَّك هوبر فكيه للحظات بحثًا عما يقول، ثم أخيرًا سألها:

- مثلك؟

- أجل.. مختلف.. مميز.

حكَّ هوبر ذقنه. سؤال إيل جيد وغالبًا كان يدور في رأسها منذ وقت خاصة مع تجربتها مع دكتور برينَر ومشروع إم كي ألترا. هذا استنتاج منطقي منها.

استنتاج ليس ببعيد عن الحقيقة.

- حسنًا.. هو لا يستطيع تحريك الأشياء بقوة عقله مثلك، لكنه كان جزءًا من مشروع مختلف عن مشروع برينَر. دعينا لا نسبق الأحداث.

جلس جوارها ووضع يده على ساقها المُغطاة وأردف:

- ولا أريد أن تزورك الكوابيس.

فكرت إيل فيما قاله بجدية، ثم نظرت إلى هوبر وأومأت وتمددت على الأريكة منتظرة أن يُكمل حكايته.

واستمرت المغامرة.

الفصل السادس والأربعون

مقارنة الملحوظات

١٣ يوليو ١٩٧٧
نيويورك

- هل ترين شيئًا؟

نظرت مارثا الجالسة في مؤخرة الحافلة عبر المربع الصغير المصنوع من الزجاج المُدعم، الذي كان نافذتهم الوحيدة على العالم الخارجي.

تنهدت وتراجعت جالسة على واحد من المقعدين المعدنيين المتقابلين المُثبتين إلى جانبي الحافلة من الداخل.

- كلا. لا أعرف أين نحن.

حاول هوبر أن يستريح في جلسته أمامها بلا فائدة. كان رأسه وخده وشفتاه تؤلمه إثر اللكمة، والحافلة من الداخل كانت أصغر من أن تلائم رجلًا في حجمه، فلم يكن يستطيع الجلوس على المقعد بشكلٍ كامل، بل ظل جالسًا القرفصاء على حافته، تؤلم الزوايا المعدنية الحادة ردفيه، بينما يداه مقيدتان خلفه.

توقفت الحافلة أكثر من مرة في طريقهم عند عددٍ من نقاط التفتيش، رأى هوبر من خلال النافذة الضيقة الفرسان وسيارات الشرطة في كل مرة يتوقفون فيها.

بعد عشر دقائق، توقفوا وظلوا في مكانهم لعشر دقائق أخرى قبل أن تستمر رحلتهم إلى المجهول. ثم بعد عشر دقائق توقفت الحافلة لنصف ساعة دون أن يُغلق المحرك. لم يسمع هوبر أحدًا ينزل من مقدمة السيارة ولم يتحقق أحدهم من السجناء.

سألته مارثا:

- هل تظن أن هناك من سيستمع إلينا؟ عضوة في عصابة وشرطي فاسد هارب؟

قطَّب هوبر جبينه، فقد كانت مُحقة.

- يجب أن نجرب. لو استطعت أن أصل إلى أي من رجال جالوب فسيعرفون من أكون.

رفعت مارثا حاجبًا وقالت:

- المدينة تحترق، لن يوصلنا أحد إلى أي شخص. سيرموننا في زنزانة مع الآخرين، ولن يكتشفوا أننا نقول الحقيقة قبل الكريسماس.

مسح هوبر أسنانه بلسانه، فقد كانت على حق مرة أخرى. ثم خطر على باله أمر؛ ربما لن تتوافر زنزانات خالية لحبسهما من الأساس وسيتركونهما في هذه الحافلة للأبد.

عادت مارثا إلى النافذة وضغطت أنفها عليها محاولة أن ترى ماذا يحدث بالخارج. مال هوبر إلى الأمام كي يريح ظهره، فشعر بشيء يكز ذقنه؛ خارطة الأفاعي تطل من ياقة سترته. قال هوبر لمارثا:

- أخبريني ماذا تعرفين عن خطة القديس جون؟

جلست مارثا على مقعدها وأجابت:

- لا أعرف الكثير. لقد أطلع القديس جون البعض -وأنا منهم- على تفاصيل قليلة من خطته، بينما أبقى لنفسه أكثر التفاصيل. لقد كان يؤسس عصابة الأفاعي منذ عامين تقريبًا.. يفتت العصابات الأخرى ويُجنِّد أعضاءها ويستولي على مناطق نفوذها وممتلكاتها.

- وأسلحتها.

- بالطبع. كان قد عقد صفقات مع تجار سلاح كبار من كولومبيا والمكسيك يعملون في قسم كبير من نيويورك. عرف كيف يتعامل معهم وحصلوا على ما يريدون منه.

- ماذا أعطاهم؟

- لا أعرف. المال.. طرق سريعة في المدينة. كان يعرف ما يفعل جيدًا. كان بارعًا في السيطرة على العقول، هل تفهم ما أعنيه؟ يعرف كيف يتعامل مع الناس ويستولي على عقولهم ويرغمهم على فعل كل ما يريد. لقد رأيت أشخاصًا يقتلون أنفسهم لأنه أمرهم بهذا يا رجل!

صمتت مارثا. تذكر هوبر ليزا سارجيسون التي أمرها أن تقفز لتلقى حتفها. رأى هذا بعينيه لكنه لم يفهمه حتى الآن. مارثا رأت ذلك أيضًا على الأغلب، فقد كانت على سطح المستودع معه.

حدق هوبر إلى أرضية الحافلة المعدنية. ثمة صلات لا يفهمها وقطع من البازل لا تناسب مكانها، لكنه شعر أنه يقترب من حل هذا اللغز.

ربما اقترب بالفعل، لكنه لم يكن بالقرب الكافي.

- علم النفس.

- ماذا؟

نظر هوبر إلى مارثا وقال:

- علم النفس. لدى القديس جون مجموعة من الكتب خلف مكتبه؛ أبحاث، مراجع، مجلدات. مكتبة بحثية خاصة. أخبرني أنه كان متورطًا في شيء غامض في فايتنام يُطلق عليه: مهام خاصة. ماذا لو كانت تلك المهام الخاصة متعلقة بغسيل المُخ؟

ضيقت مارثا عينيها وسألت:

- هل هذه الأمور حقيقية؟

- لا أعرف. لم أرَ هذا بنفسي لكني سمعت أقاويل. لقد رأينا ما يمكن للقديس جون فعله. لديه نوع خاص من القوى يسيطر بها على الناس، ومن هنا جاء كل هذا الهراء عن السحر الأسود. كان في حاجة إلى طُعم غريب لم يخطر ببال أحد.

- القديس جون كان مهتمًا بكل أنواع الغرابة.

- لكنه لم يستطع السيطرة عليكِ؟

- ربما حاول، لكن كما قلت لك، كانت لدي مخططاتي الخاصة، هل تعرف ما أعنيه؟ ظللت محافظة على تركيزي وفعلت ما فعلت كي أنجو وأبقي ليروي آمنًا.

- لكن القديس جون سيطر على ليروي، أليس كذلك؟ ربما عجز عن إقناعك، لكنه أقنع أخاكِ.

هزت مارثا رأسها في أسى وقالت:

- ظننت أن في وسعي منعه عن ذلك.. أعني.. لقد كان يبلي بلاء حسنًا، أو على الأقل كنت أحسبه كذلك، لكنني كنت مخطئة.

- كلا، لم تكوني مخطئة، فقد أتانا أخوكِ وطلب منا العون كي نُخرجك أنت من العصابة. كان يجاهد كي يفلت من قبضة القديس جون، وكاد ينجح.

- كاد ينجح.. لكني أعرف ما يمكن للقديس جون فعله، ورأيته.

- كما قلت، الأمر لا يخرج عن نطاق علم النفس. هو يعرف كيف يعمل العقل البشري، ويعرف كيف يُرعب أشخاصًا مُعينين عن طرق إيهامهم بسلطته وقدراته. الخوف هو الأداة الأكثر قوة على الإطلاق. هو لا يؤمن بأي مما يقول، لكن يكفيه إيمان أتباعه، ويقوي هذا الإيمان بإلباس الأفاعي العباءات من وقت لآخر والإيحاء إليهم بالقيام بجرائم قتل طقسية.

- جرائم قتل.. ماذا؟!

- قبل أن نعرف أن للأفاعي صلة بتلك الجرائم، كنت أحقق في سلسلة منها أنا وشريكتي. جرائم القتل كانت طقسية لكنها بلا معنى بمفردها. لقد كانت جزءًا من طقوس سيطرة القديس جون على أتباعه.

تنفست مارثا بصوت عالٍ ببطء، ثم قالت:

- لا أعرف شيئًا عن هذا.. لا يمكن هذا أبدًا.

- ماذا تعرفين عن خطته؟ هو وراء انقطاع التيار، لكن ما السبب؟

انفتح باب الحافلة الخلفي، فالتفت هوبر ومارثا إلى مصدر الصوت مُضيقين أعينهما أمام الضوء المبهر الصادر من كشافات الجنود الذين يرتدون معدات مكافحة الشغب. سحبوا هوبر ومارثا ولاحظ الأول أن الجنود أقرب للجيش منهم للشرطة؛ فمعداتهم أكثر تطورًا وتمنحهم حماية أكبر. على مقدمة صدرياتهم المُضادة للرصاص استطاع أن يقرأ كلمتين مطبوعتين:

"عميل فيدرالي".

أدار هوبر عينيه حول المكان، فقد كانوا في منطقة واسعة مفتوحة محاطة بمبانٍ طويلة مظلمة مُسطحة الجوانب. تطلب الأمر دقائق حتى أدرك هوبر أنه في ميدان التايمز.

دفع أحد العملاء هوبر برفق كي يُديره نحوه، وفك وثاقه. هز هوبر ذراعيه كي يُجري الدماء فيهما. هرول عميل آخر نحوه وكان يرتدي بذلة غامقة اللون فوقها صديري مضاد للرصاص.

صاح العميل جالوب:

- المحقق هوبر، سعيد أنك استطعت اللحاق بالحفل. اتبعني لو سمحت.

الفصل السابع والأربعون

المُلخص النهائي

١٣ يوليو ١٩٧٧
مانهاتِن، نيويورك

مركز القيادة المُرتجل كان في خيمة بيضاء كبير تشغل عرض شارع برودواي عند تقاطعه مع ميدان التايمز.

المركز كان يعج بالحركة حين رافق جالوب هوبر ومارثا إلى الداخل، يختلط جنود الشرطة في زيهم الموحد بالعملاء الفيدراليين بأشخاص في زي مدني وآخرين يرتدون أوفرولات وخوذات واقية. المجموعة الأخيرة كانت متحلقة حول طاولة يدرسون مخططات ما. رأى هوبر كذلك جهازًا لا سلكيًا ميدانيًا عسكريًا في رُكن وجواره مولد كهرباء يعمل بالديزل ويصدر صوت همهمة مستمرة.

وبدأ جالوب يحكي لهما التفاصيل...

التيار الكهربي انقطع بالكامل، واضطرت شركة الكهرباء «كون إيديسون» إلى قطع التيار عما تبقى من أماكن قليلة تصلها الكهرباء كي تستطيع محاولة إعادة التشغيل مجددًا والبحث عن المشكلة. بالرغم من ذلك، فبعض مناطق كوينز وروكوايز لا يزال يصلها تيار حيث تتصل تلك المناطق بشركة كهرباء لونج آيلاند لا شركة كون إيديسون.

سحب جالوب هوبر ومارثا جانبًا حيث لوحة عمودية مثبت إليها أسطوانة ورقية كي يستطيعون الكتابة عليها، وكانت اللوحة مُغطاة تقريبًا بالمعلومات.

أكمل جالوب تلخيصه للموقف، لكن ظلت فكرة واحدة تدور في عقل هوبر وتطرد أي شيءٍ سواها.

سمع شخصًا يتحدث، رمش بعينيه وسمع الشخص يتكلم مرة أخرى.

- مُحقق هوبر؟

أفاق هوبر من سكرته على صوت جالوب، فقال له:

- لقد فعلت كل ما أردت، والآن يجب أن تساعدني، اتفقنا؟ لا مزيد من الهراء، أريد العودة إلى بيتي، إلى دايان وسارة. هذا الموقف سيُرعب دايان خاصة مع انقطاع التيار الكهربي في كل مكان حتى في بروكلِن.

خطا جالوب خطوة نحو هوبر ووضع كفه على كتفه وقال:

- هما بخير.

- ماذا تعني أنهما بخير؟

- المحققة ديلجادو معهما.

- ماذا؟ ديلجادو؟

- جاءتنا أمس وعرضت علينا معلومات جمعتها في غيابك، وحين انتهى اجتماعنا أخبرتنا أنها ستتوجه إلى شقتك كي تحفظ وعدها. وحسنًا فعلت، فليس لدي من أرسله إلى عائلتك الآن مع انقطاع الكهرباء. هي ما زالت هناك وقد اتصلت بنا بعد انقطاع التيار فورًا.

كاد هوبر أن يختنق في ضحكته، وقد انزاح الهم عن كاهليه بعد أن تصور أنه لن يشعر بالراحة مرة أخرى. زوجته وابنته في أمان وسط هذه الفوضى.

نظر هوبر نحو جالوب وقال:

- أريد أن أذهب إليهما.

ثم نظر إلى مارثا المُحدقة إلى اللوحة وأردف:

- لا يوجد ما أفعل هنا. مارثا تعرف أكثر مني عما يجري.

فتح هوبر سترته المنتفخة وأخرج منها خريطة مقر الأفاعي وأضاف:

- ستنفعكم هذه، لو أغرتم على الأفاعي الآن فسوف...

رفع جالوب يده مقاطعًا وقال:

- من السهل القول ومن الصعب الفعل أيها المحقق. قواتنا غير مستعدة فقد تفرق أعضاؤها في المدينة ينتظرون تعليمات لن تصلهم.

- ماذا تعني بأنهم ينتظرون؟

- أجهزة اللا سلكي معطلة في ظل عدم وجود كهرباء ولا أجهزة إعادة إرسال. لو كنت حاولت الوصول إليّ عبر لا سلكي الشرطة ما كنت ستصل. علمت بقدومك حين جاءني شرطي على دراجة بخارية يخبرني بما حدث في برونكس.

قالت مارثا:

- برونكس تتحول إلى ساحة حرب. هذا هو ما يحدث في برونكس.

قال جالوب:

- ثقي بي، فأنا أعرف. بعد انقطاع التيار وقبل تعطل خطوط الهاتف، صدرت أوامر لكل أفراد الشرطة أن يذهبوا إلى أقرب مراكز قريبة لسكنهم.

صح هوبر:

- ماذا؟ هذه أسوأ فكرة ممكنة!

- لا يمكن أن تلومهم على محاولاتهم أيها المحقق.

- أفراد الشرطة لا يعيشون عادة بالقرب من مراكز عملهم، ولا يعيشون في برونكس على وجه الدقة!

ثم استدار نحو مارثا وأردف:

- هذا يفسر عدم تواجد الشرطة هناك!

قال جالوب:

- هذا ليس صحيحًا تمامًا، من المفترض أن يتواجد من هم في وردية الليل هناك.

هتفت مارثا:

- لن يكفوا أبدًا لمواجهة ما يحدث هناك!

قال جالوب:

- عمومًا، نحن نستخدم جهازًا لا سلكيًّا احتياطيًّا.

وأشار نحو جهاز اللا سلكي الميداني في الركن مُضيفًا:

- لكن علينا الوصول إلى قوات تنفيذ المهام سريعًا، ويحتاج هذا إلى وقت، لكننا سنصل إلى الأفاعي قريبًا.

قال هوبر لجالوب:

- حسنًا.. لكن يجب أن أرحل الآن.

- مفهوم. يمكنني التواصل مع مارثا هنا، وسآمر لك بدراجة بخارية من دراجات الشرطة.

التفت جالوب ونادى على واحد من الجنود، وشعر هوبر فجأة بـ.. *بالذنب*؟

كل هذا العمل، كل هذا الوقت، والخطر الذي تواجهه المدينة، والقديس جون ينفذ أيًّا ما كان يخطط له في برونكس، وكل ما يفكر فيه هو..

دايان..

سارة..

لكن، إن كان واجبه هو خدمة وحماية المدينة، فواجبه أيضًا خدمة وحماية عائلته، وقد نفذ كل ما طُلب منه، وعاد بمعلومات متمثلة في شخص مارثا.

عاد جالوب بعد لحظات حاملًا هاتفًا ميدانيًّا كبيرًا وقال:

- يجب أن تعرف كيف تعمل هذه الأشياء.

وناوله لهوبر. الهاتف كان يزن طنًا، ولم يتغير أبدًا عما كان يستخدمه في فايتنام.

- أعرف كيف يعمل.

- ثمة دراجة بخارية تنتظرك بالخارج. حظًّا سعيدًا.

الفصل الثامن والأربعون

لا نوم حتى بروكلِن

١٤ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

وصل هوبر شقته بعد متصف الليل بقليل. كان جالوب قد وفر له دراجة بخارية فاخرة أفضل بكثير من تلك الدراجة الخشنة التي أخذها من الأفاعي. عبر منهاتِن وصولًا إلى بروكلِن رغم الزحام المروري. أثناء رحلته أدرك هوبر أن الأوضاع مستقرة أكثر في هذه البقاع من المدينة، وقد ملأ جنود الشرطة الشوارع لحسن حظها وسوء حظ برونكس.

أوقف هوبر دراجته عند الرصيف، وأطفأ المحرك، ثم سارع بإخراج اللا سلكي من العربة الجانبية للدراجة وهرع يصعد درجات منزله.

دفع هوبر بوابة البناية، فشعر كأن شخصًا يدفع في الاتجاه المُعاكس من الداخل. ركل الباب وكاد يتعثر في شيء خلفه. كان المدخل مُضاءً بالشموع، وحين نظر إلى أسفل رأى رجلًا متكومًا على الأرض.

صاح الرجل وهو يقوم مستندًا إلى كوعه:

- يا للمسيح! أهذا أنت يا جيم؟

كان الرجل هو إيريك فان سابِن. نظر إليه هوبر ثم توجه إلى الدرجات وهو يهتف:

- أجل يا إيريك، معذرة!

طرق هوبر باب شقته، ولم يُرد أن يفتح بالمفتاح فيخيف من بالداخل.

- ديان، هذا أنا! افتحي!

سمع صوت جر شيء ثقيل من خلف الباب، ثم صوت المزلاج.

- جيم!

كادت دايان أن تسقط بين ذراعيّ هوبر. دفنت وجهها في صدره وجسدها يرتجف بالبكاء. ممسكًا جهاز اللا سلكي، ضغط هوبر على جسدها ودس وجهه في شعرها متنشقًا رائحتها.

- أنا هنا..

ظل يكرر عبارته حتى توقفت دايان عن البكاء. ابتعدت عنه بحرص ونظرت إلى وجهه. أزاح عن وجهها خصلات شعرها وابتسم، فاختلطت دموعه بدموع زوجته.

- أين سارة؟

دخلت دايان الشقة وتبعها هوبر، حين أغلقت الباب حدقت إلى الجهاز الضخم في يده وتساءلت:

- ما هذا؟

انتقل هوبر إلى طاولة المطبخ وقال:

- لا سلكي ميداني. أين سارة؟

كان قد تحرك بالفعل نحو حجرة النوم.

قالت دايان وهي تتبعه:

- هي نائمة، لا تقلق. كانت قد نامت بالفعل قبل انقطاع التيار.

فتح هوبر باب حجرة نوم سارة ودخل. سارة نائمة على بطنها وقد أزاحت عنها الأغطية. الحجرة كانت دافئة. جلس بهدوء على الفراش. فتحت سارة عينيها ونظرت إلى أبيها، ثم أغمضتهما مرة أخرى. ظل هوبر جالسًا جوارها يُمسد شعرها.

أنا هنا.. أنا هنا.. أنا هنا..

تنهد ومسح وجهه، ثم قام وهو لا يُبعد عينيه بعد عن ابنته النائمة. خرج هوبر ودايان إلى الصالة، وسمعا صوت طرقات على الباب. فتحت دايان لتجد إيريك. حيَّاه هوبر في حرج وقال:

- هل إيستر بخير يا إيريك؟

- أجل. لقد أخلدت إلى النوم، والسيدة شايفر تنام في حجرة نومنا الإضافية كذلك. هل أوقظهما؟

رفع هوبر كفه وهتف:

- كلا، طالما هما بخير.

ثم نظر حوله وسأل:

- أين ديلجادو؟

تبادل إيريك ودايان النظرات، ثم قالت الأولى:

- هذا ما كنت سأسألك عنه.

- ماذا؟

سأل إيريك:

- ألم تقابلك؟

- تقابلني؟ أين؟

- في معهد روكوود.

***

تطلَّب الأمر بضع دقائق حتى شغَّل هوبر جهاز اللا سلكي. وبينما يحاول الوصول إلى جالوب، لخصت دايان لإيريك كل ما أخبرتها به ديلجادو عن مهمة هوبر.

ديلجادو التي انطلقت وحدها إلى حيث لا يعلم أحد ما سيحدث لها.

أخيرًا صدر صوت من جهاز اللا سلكي، فخيم الصمت على الحجرة.

- تي سبعون سبعون من القيادة، أسمع، انتهى.

تنهد هوبر في ارتياح وضغط على زر التحدث.

- معك المحقق هوبر، أريد العميل الخاص جالوب. انتهى.

- عُلِم.

ساد الصمت برهة، ثم دوى الصوت:

- هوبر. أسرِع. انتهى.

- ديلجادو ليست هنا. ذهبت إلى معهد روكوود. انتهى.

اختفى الصوت مرة أخرى، وظن هوبر أن جالوب ربما ينقل المعلومات إلى مارثا، لكن بعد لحظات أدرك أن العميل الخاص ربما لا يعرف ما هو هذا المكان أو ما يعنيه للقديس جون.

وهل تعرف مارثا في الأساس؟

نظر هوبر إلى زوجته، ثم ضغط زر التحدث.

- هل أكرر ما قلت؟ انتهى.

- معذرة، كنت أتحدث إلى مارثا. لا نعرف ما يعنيه هذا. أتعرف العنوان؟ انتهى.

مسح هوبر وجهه. لا وقت للخوض في تاريخ القديس جون مع هذا المكان، ليس الآن وليس عبر اتصال لا سلكي سيئ.

- أعرف. لقد شوهدت الأفاعي يتوجهون إلى هناك في موكب كبير. يبدو أن التيار الكهربي يصل للمكان. انتهى.

- وهل كان هذا كافيًا كي تذهب ديلجادو إلى هناك؟

- روكوود مكان هام بالنسبة للقديس جون. هل أخبرتك مارثا عن ليزا سارجيسون؟ انتهى.

- أجل. انتهى.

- معهد روكوود هو المكان الذي قابلها فيه القديس جون لأول مرة قبل أن يُطلق سراحه من السجن الفيدرالي. سأشرح لك كل هذا لاحقًا، لكن كل شيء بدأ من هذا المكان. لو أن الأفاعي يتوجهون إلى هناك، فالقديس جون يقودهم. ديلجادو كانت تظن أنني ما زلت معهم وذهبت بحثًا عني. انتهى.

- حسنًا. ابقَ في مكانك وسأرسل من أستطيع من العملاء إلى المعهد. لو أن ما تقوله صحيح، فيمكننا القبض على القديس جون هناك.

فكر هوبر في قوة تسليح الأفاعي.. صاح:

- كلا، كلا! لو أرسلت عملاءك فسينتهي الأمر بحرب.

صدر صوت عال من الجهاز وكأن هناك من يضغط على زر التحدث مرات متتالية. نظر هوبر إلى الجهاز في يده وكان يعمل بكفاءة، والضوء الأحمر أعلاه يعني أن السماعة مغلقة من طرفه.

سألت دايان:

- ماذا يحدث؟

- ثمة مشكلة لديهم.

- هوبر!

الصوت الصادر من اللا سلكي لم يكن صوت جالوب. ضغط هوبر على زر التحدث.

- مارثا؟

تكرر الصوت السابق مرة أخرى، ثم ظل الخط على الجهة الأخرى مفتوحًا. سمع هوبر أصواتًا مكتومة وصوت شخصين يتجادلان، بعد لحظات علا الصوت أكثر.

- ابتعد عني!

كان هذا هو صوت مارثا. انقطع الخط ثم عاد مرة أخرى.

- إلهي! هوبر.. أما زلت هنا؟

- أنا هنا، ماذا يحدث؟ انتهى.

- أنا أستعير اللا سلكي لثوانٍ فقط.

- هل سمعت ما قلت؟ انتهى.

- أجل. اسمع، لو أن الجميع في روكوود فليروي سيكون معهم أيضًا.. أأأ.. انتهى.

هز هوبر رأسه عالمًا بما سيقال لاحقًا.

- مارثا، ابقي حيث أنت. أستطيع تدبير الأمر بينما يُعد جالوب عملاءه. اتفقنا؟

- كلا يا هوبر، مستحيل. أريد أن أخرِج ليروي قبل أن يحدث أي شيء، ولن تستطيع أنت أو العميل جالوب منعي.

- مارثا! انتظري! مارثا؟

صمت الصوت هنيهة ثم عاد جالوب يتحدث:

- ابق حيث أنت أيها المحقق، سنتولى الأمر.

- شكرًا لك. حول، وانتهى.

وضع هوبر السماعة على المنضدة وأغلق الجهاز. رفع عينيه ليجد إيريك ودايان يحدقان إليه.

- سأذهب خلفها.

فتح إيريك فمه تعجبًا لكنه لم ينطق. تجاهله هوبر وأولى دايان انتباهه. لم تتكلم وكأنها تنتظر شيئًا.. تنتظر سببًا أو تفسيرًا لقرار زوجها.

ولم يملك هوبر سوى الحقيقة.

دار حول المنضدة ولف ذراعيه حولها، لكنها راحت تهز رأسها في رفض.

- جيم..

- آسف. ربما تكون ديلجادو في ورطة. يجب أن أساعدها وأوقف ما يحدث. لو أنني أستطيع أن أفعل هذا بسلام قبل أن يصل الفرسان، فلا بد أن أحاول.

- من هي مارثا؟

- شابة تحاول إنقاذ أخيها، وهي قادرة على فعل ذلك. هي في طريقها إلى المعهد، ومعًا يمكننا أن نوقف كل هذا.

نظرت إليه دايان لثوانٍ ثم أخفضت رأسها وقالت بعينين دامعتين وابتسامة واهنة:

- فقط خذ حذرك.

ضمها هوبر مرة أخرى، وتمايلا معًا. نظر هوبر من فوق كتفها إلى إيريك الواقف في منتصف الحجرة.

- إيريك.. اعتنِ بعائلتي من أجلي.

أومأ إيريك.

افترق هوبر عن دايان وقبلها على جبينها ثم أردف:

- سأعود في أسرع وقت.

قالها ثم غادر الشقة، ولم يجرؤ على النظر خلفه.

الفصل التاسع والأربعون

اقتحام عُش الأفعوان

١٤ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك.

كانت الشوارع الخلفية لبروكلِن مظلمة هادئة، وصارت أعمال الشغب التي واجهها هوبر كحلم في عقله.

أوقف دراجته البخارية في ساحة إيقاف سيارات وسار المسافة المتبقية نحو معهد روكوود.

كان يعرف ما يحدث لعقله؛ الأدرينالين والإرهاق والظمأ والإصابات التي أصيب بها في رحلة فراره تنال من صفاء عقله. لقد عاش كل هذا من قبل في فايتنام وأدرك أنه لن يستطيع المواصلة بهذه الحالة.

الوصول إلى المعهد لم يكن صعبًا، فقد كان مبنى ضخمًا مزينًا بزخارف وأعمدة قوطية يبدو أقرب لكنيسة. كان كذلك المبنى الوحيد المضاء وسط مساحات من الأميال المظلمة. كل ما على هوبر فعله هو اتباع الضوء ومسيرة الأفاعي الواقفة أمام المعهد. كانوا قد تركوا وسائل النقل التي أتت بهم إلى هنا وأكملوا مسيرتهم مشيًا مثله. لم يعرف هوبر لماذا فعلوا ذلك، ولم يهتم لأن شيئًا مقلقًا بدا عليهم. فلم يكونوا يتحدثون.. فقط يسيرون بوتيرة واحدة لا يصدر عنهم صوت إلا صوت خطواتهم.

لم يستطع هوبر إحصاء عددهم، لكنهم كانوا أكثر بكثير من العدد الذي كان في المستودع، وكانوا يرتدون نفس السترات المطبوع عليها شعار الأفعى، ويحمل كل منهم سلاح كلاشنيكوف معلقًا على كتفه.

جيش القديس جون الخاص المسلح يسير نحو..

ماذا؟

على هوبر أن يدخل المبنى قبلهم، فقد كان من يصل منهم يقف أمام المبنى منتظرًا على ما يبدو تعليمات زعيمهم. ذكَّره المشهد باجتماع السطح الذي شهده، الاجتماع الذي أسفر عن مقتل ليزا.

أزاح هوبر هذه الذكرى جانبًا وراقب الجمع للحظات، ثم عقد عزمه.

لن ينتظر مارثا، فأمامها وقت حتى تصل إلى هنا إن كانت قد نجحت في إقناع جالوب أن يعيرها وسيلة تنقل. هو لا يعلم أين هي الآن ولا إن كانت ستأتي من الأساس لذا فلم يكن لانتظارها معنى. وتمنى هوبر أن تظل بعيدة حين ترى الحشد أمام المعهد، وألا تورط نفسها فيما هو أكثر..

لأنه كان على وشك توريط نفسه الآن..

عدا هوبر عبر الشارع الخالي والتفت مرتين عند التقاطع ليجد نفسه عند نهاية مسيرة الأفاعي التي لم تكن متماسكة، وراح كل فرد فيها يسير على حدة. على جانبي الشارع اصطفت الأشجار الضخمة، فاتخذ هوبر إحداها كغطاء ليراقب السائرين، حتى رأى آخرهم. طوق رقبته بذراعه وضغط مُغطيًا فمه كي يمنعه من الصراخ حتى أفقده وعيه، ثم خلع عنه سلاحه كي لا يسقط ويلفت نظر الآخرين، وسحبه إلى ما وراء سيارة.

حين تأكد أن الرجل فقد الوعي تمامًا، خلع سترته عنه وارتداها فوق قميصه الأصفر الملطخ بالدماء.

علق السلاح على كتفه وهرع يلحق بالمسيرة. وقف في نهايتها بعيدًا عن الأنظار بينما اصطف الجميع يحدقون إلى المبنى المضاء باللون الأبيض..

لكن لحظة..

فارق هوبر مؤخرة الحشد واختبأ خلف سيارة. عليه أن يدخل المبنى، ولم يكن المدخل الأمامي متاحًا بالطبع. لكن المبنى كان ضخمًا ويحتل مكان عدة مبانٍ مجتمعة.

جرى هوبر بمحاذاة السيارات حتى وصل عند المنعطف المظلم القريب من المدخل، وألصق ظهره بالحائط مُنصتًا.

كان مكشوفًا بلا شيء يختبئ خلفه. تحرك هوبر نحو الشارع المظلم بحثًا عن مدخل آخر. وجد ضالته بعد هنيهة، فعند ظهر البناية كان الحائط منحنيًا إلى الداخل فوجد هوبر نفسه في ساحة خلفية كبيرة فيها صندوق قمامة محاط بأكياس النفايات وجواره باب يكاد يكون مخفيًا وراء حائط قصير من القرميد. كان الباب موصدًا، فدفع هوبر ظهره إلى الحائط ووجه للباب أربع ركلات قوية بكعب حذائه حتى كاد ينخلع من إطاره، فدفعه هوبر بكتفه حتى فتحه بالقوة.

المكان حالك بالداخل. أخذ هوبر نَفَسًا عميقًا وتوغل في أعماق المبنى.

***

اعتادت عيناه على الظلام سريعًا؛ فقد كانت الحجرة التي دخلها مظلمة إلا من شعاع ضوءٍ يتسرب من أسفل بابٍ موصد آخر. توجه هوبر نحوه بحرص وأدار مقبضه، فانفتح. تحقق من القاعة خلف الباب ثم عبر.

كانت حوائط القاعة مُبطنة بالخشب، وتتدلى من سقفها وحدات إضاءة معدنية. الأرضيات لامعة نظيفة.

الوجود داخل مكان مُضاء بعد كل الظلام الذي مر به هوبر لم يكن مُريحًا، خاصة إذا أضفنا حقيقة أن هذا المبنى هو الوحيد المضاء في المدينة. أنصت هوبر، ليسمع صوتًا بعيدًا، صوت مولد كهرباء ربما يأتي من قبو ما بالأسفل.

تقدم هوبر بحرص، والسلاح مُستقر في قبضته. بعد دقائق أسرعت خطى هوبر، فقد كان المكان مهجورًا، لكن على عكس مستودع الأفاعي، فقد كان معهد روكوود نضيفًا مُرتبًا والأثاث مصفوفًا بعناية إلى جوار الحوائط. ذكره هذا بنهاية العام الدراسي، حين كان طفلًا يساعد مدرسيه وزملاءه في صف المناضد والمقاعد جوار الحوائط استعدادًا لغلق المدرسة في الإجازة الصيفية.

ظل هوبر يستكشف المكان غير عالم إلى أين ستقوده خُطاه، لكنه عزم على ألا ييأس.

ديلجادو في مكان ما هنا، وكذا القديس جون. وكل ما عليه فعله هو العثور عليهما.

***

في الطابق الثالث وجد هوبر خارطة للمبنى مؤطرة بشكل أنيق ومعلقة جوار الدراجات. لم يعرف هوبر في أي غرض كان يستخدم المبنى قبل أن تستولي عليه المباحث الفيدرالية، لكنه شكر معماريي القرن التاسع عشر على رسمهم لتلك الخارطة البديعة المُعقدة. بعد دقائق فشل هوبر في استنتاج أي شيء منها، فقرر أن يكمل طريقه، فلا وقت للبحث والتدقيق.

أمامه باب مزدوج مُطعم بزجاج نصف شفاف، من وراء الزجاج بدا الضوء وكأنه يتحرك.. يتأرجح. وارب هوبر الباب ليلقي نظرة مدفوعًا بفضوله، ثم سبَّ وفتح الباب على مصراعيه وانطلق داخلًا إلى الغرفة الشاسعة التي بدت كقاعة اجتماعات أو محاضرات، لكنها كانت بلا أثاث ومضاءة بمئات من الشموع السوداء، وفي منتصف دائرة الشموع وجد ديلجادو مستلقية على ظهرها ويداها وقدماها مفرودة في أربع اتجاهات، ومن تحتها رسم لنجمة خماسية. حول النجمة المزيد من الرموز مرسومة بلون أحمر قان، كأنه طلاء كثيف.

كانت عينا ديلجادو مغلقتين، لكنها بعد تتنفس.

تجمد هوبر عند الباب يحدق إلى الرجل الواقف عند رأس ديلجادو.

القديس جون.

كان يرتدي العباءة السوداء وقد انزلق غطاء رأسه إلى الخلف، فراح ضوء الشموع ينعكس على عدستي نظارته.

- أهلا يا أخي.

شعر هوبر بالصرخة تعتمل في نفسه قبل أن يفتح فمه. اندفع أمامًا ناسيًا وجود سلاحه إذ وقف القديس جون عاقدًا كفيه مبتسمًا. توقف اندفاعه فجأة وشعر بزوجين من الأيادي على ذراعيه من الخلف تدفعه كي يركع على ركبتيه.

هوى هوبر أرضًا وسحبوا منه سلاحه. ألقى ليروي السلاح جانبًا، ثم عاد وضغط على كتف هوبر مرة أخرى، وعند الكتف الأخرى وقف روبين يثبته إلى الأرض. أعين الرجلين تلمع ووجهاهما بلا تعبير.

تمامًا مثل الآخرين بالخارج.

القديس جون يُحكم السيطرة.

نظر هوبر إلى زعيم العصابة الذي كان يخطو حول ديلجادو نحوه. صاح هوبر:

- لأي غرض كل هذا؟! إلامَ سيوصلك ما تفعل؟

توقف القديس جون أمام هوبر، ثم جلس القرفصاء كي يكون عند مستوى نظر سجينه. حدق هوبر مرة أخرى إلى انعكاسه في النظارة.

لم يتحدث القديس جون.

هز هوبر رأسه في حنق وقال:

- ما هذا الهراء الغامض؟ لقد كنتَ قائدًا من قبل، أليس كذلك؟ في فايتنام؟ كنت تقود الرجال وتُصدر الأوامر، وتتبع الإرشادات. لم يكن هناك أي سحر في الأمر لا وقتها ولا الآن.

نظر هوبر إلى الطريقة العجيبة التي جهز بها القديس جون الحجرة، ثم أردف:

- كل هذا الهراء عن يوم الدينونة وقدوم الشيطان إلى نيويورك ويوم الأفعوان.. كل هذا تمثيلية لا تؤمن بها، وليس عليك أن تؤمن، فقد كانت مجرد أفكار تزرعها في عقول أتباعك وتمنحهم ما يهابونه، وما يطيعونك من أجله لأنك بالنسبة لهم الوحيد الذي يحول بينهم وبين الشيطان، أليس كذلك؟

أمال القديس جون رأسه ولم يتحدث.

حاول هوبر أن يرى ما خلف نظارة الرجل وهو يقول:

- أنت تستمتع بكل هذا، أليس كذلك؟ يمنحك الخداع السلطة، وتشعر بالقوة حين تجمع حولك الضعفاء. أنت مُتلاعب.. مخادع تتحكم بالعقول.. زعيم.. مُخطط. ثق بي فأنا أفهمك. كنت تخطط لهذا منذ زمن. كانت عبقرية منك أن تقطع التيار ولا أعرف كيف فعلتها.. بداية موفقة ليوم الأفعوان المزعوم.

نظر هوبر خلف القديس جون، ما زالت ديلجادو ساكنة، والشموع تتراقص كأنما من أثر النسيم لكن هوبر لم يكن يشعر بأي هواء في المكان.

ظهر طرف لسان القديس جون من بين شفتيه، ثم أومأ وقال:

- أهنئك على تحقيقاتك يا هوبر. كنا سنصبح حقًّا قوة كبيرة.. أنا وأنت.

لم يتجاوز صوت هوبر الهمس وهو يسأل:

- لمَ كل هذا؟ فقط أخبرني، لماذا تفعل كل هذا؟

قام القديس جون ضاحكًا. عبر من فوق ديلجادو وهو ينظر إليها، ثم عاد إلى هوبر رافعًا ذراعيه جانبًا وكُمي عباءته يرفرفان كجناحين.

- أنت قلتها بنفسك. هذا هو يوم الأفعوان. الساعة المُحددة التي سيأتي فيها الشيطان مطالبًا بعرشه.

جلس القديس جون مرة أخرى أمام هوبر وأردف:

- لقد جاءني وقتها، وأنا أحبو في الوحل وأقتل اتباعًا للأوامر. جاءني وأخبرني بخطته وأراني المستقبل. أخبرني كي أمهد له الطريق وكيف أجري الطقوس.

قام القديس جون وتوجه نحو ديلجادو، ثم عاد إلى هوبر مُكملًا:

- خمس تضحيات كي يحل ستار الظلال على الأرض.

شعر هوبر بنبضه يُحرك صدغيه..

لقد فهم كل شيء على نحو خاطئ..

القديس جون لا يتلاعب بالأفاعي فقط، لكنه يصدق كل كلمة..

يؤمن بها..

أخرج الزعيم بطاقة بيضاء من داخل عباءته، وأراها لهوبر.

بطاقة زينر يدوية الصنع، تحمل رمز المربع المُفرغ. ثم ركع جوار ديلجادو ووضع البطاقة فوق مكان قلبها.

راح هوبر يحصي الضحايا في عقله..

جوناثان شنيتزر.. سام باريت.. جايكوب هويلر..

ليزا سارجيسون..

وروساريو ديلجادو.. خمسة.

استحضر هوبر غضبه، وحاول الإفلات من الرجلين اللذين يبقيانه في مكانه دون جدوى. جزَّ هوبر على أسنانه وبرزت أوتار رقبته وهو يحاول التملص منهما بينما يتقدم القديس جون ويُخرج شيئًا آخر من عباءته.

رأى هوبر شيئًا فضيًّا، وشعر بكهرباء تسري عبر رقبته..

ولم يرَ شيئًا آخر.

الفصل الخمسون

الضحية الأخيرة

١٤ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

تتراقص الأضواء في الظلام.. نيران تشتعل بعيدًا، تحرق، تتوهج في ليلٍ في حلكة الأفعوان.

أفاق هوبر صارخًا وجلس يعب الهواء وهو يحاول استيعاب ما حوله.

كان لا يزال في نفس الحجرة وديلجادو ممدة فوق النجمة الخماسية.

وجد هوبر من تحته كرسيًّا خشبيًّا، وكفاه تقبضان على مسنديه بلا أي قيد. وأمامه منضدة مستديرة خلفها كرسي مماثل لكرسيه يجلس عليه القديس جون. بينهما على الطاولة كأس فضية مفعمة بسائل مسود، والخنجر الشبيه بالصليب على الطاولة بينهما يشير نصله نحو هوبر.

حاول هوبر رفع ذراعه لكنه لم يستطع. حاول مرة تلو الأخرى، أصابعه تتحرك على المسند لكن ذراعيه مثبتان. حاول تحريك ساقيه لكنهما كانتا مخدرتين. كان يصارع اللا شيء عاجزًا عن تحريك أوصاله مقدار بوصة واحدة.

سأل وهو ينظر إلى القديس جون:

- ماذا فعلت بي؟

رفع زعيم العصابة كتفيه ثم أنزلهما وقال:

- أنا؟ لم أفعل شيئًا. أنت المُتسبب فيما يحدث لك.

حاول هوبر الحركة ولم يفلح سوى في أرجحة الكرسي من جانبٍ إلى الآخر. نظر إلى أسفل مُتسائلًا عما يُثبته بهذه الطريقة. نظر خلفه ليجد ليروي وروبن يقفان بعيدًا جوار الباب. التفت هوبر ليواجه آسره الذي قال:

- كنت محقًّا. فايتنام. والآن صرنا في الجحيم، أليس كذلك يا جيم؟ الأشياء التي فعلناها هناك.. الأشياء التي قمت أنا بها هناك. لم أتطوع في البداية، فقد اختاروني من ضمن أفراد وحدتي وقالوا لي أنني مناسب. أمروني أن أبلُغ قاعدة مخبأة في عمق الأدغال، قالوا لي أنني أسدي خدمة جليلة لوطني بكوني معهم. وكأن لديّ خيارًا.

تنفس هوبر عميقًا وقال:

- نوع من العمليات السرية؟ سمعت أن المخابرات المركزية الأمريكية كانت تُجري تجارب على الجنود باستخدام العقاقير وبعض الأمور الغريبة الأخرى. لم أصدق أيًّا من هذا وقتها. هل اشتركت في تلك التجارب؟

- عاملوني وكأنني فأر تجارب. الحالة صفر.. كان هذا اسمي. أخبروني أنهم يحاولون صنع جنود أكفأ وصدقتهم. ظننت أنني أؤدي واجبي ولم أفهم أي شيء عن حقيقة ما يفعلونه في البداية. لكنني لم أمُت وهذا ما أذهلهم. ما جربوه عليَّ لم يقتلني، لكنه قتل الآخرين بالطبع.

تنهد هوبر وقال:

- آسف لما حدث لك.

- لا تأسف. لقد نجوت وتعاونت معهم، ثم انضممت إلى الباحثين وفعلت مع الآخرين مثلما فعلوا هم معي. ساعدتهم في التجارب وفي تحسين نتائجها.

ابتسم مُردفًا:

- أدينا عملنا بكفاءة، وتعلمت الكثير عن المخ.. الإنسان هو عبارة عن كيمياء وكهرباء.. هل تعرف هذا؟ العقل والروح مجرد وهم، نتاج حساء من الموصلات العصبية والهرمونات والتفاعلات الكيميائية والنبضات العصبية. كل هذا يجري الآن داخل جماجمنا ويجعلنا ما نحن عليه. يخلق الأحلام.. يدفعنا للإيمان.

أخفض يديه وأكمل:

- أنا وأنت مجرد تفاعل كيميائي. بمجرد أن تعرف كيف يحدث، ستعرف كيف تُحدثه، وتغيره، وتتحكم به. يمكن أن تستخدم العقاقير أو أي شيء آخر لتحويل العقل إلى آلة وبرمجته وتهيئته لتلقي التعليمات والأوامر، وإرغامه على فعل أي شيء لعين تُريده.

- آسف.

- لقد تأسفت من قبل، وتكرار أسفك لن يعني أنك تعنيه أكثر مما عنيته في المرة الأولى.

نظر هوبر حوله وسأل:

- ما هذا المكان؟ وهل حقًّا أعيد تأهيلك فيه؟ ماذا حدث؟

التوى ركن فم القديس جون إلى أعلى في ابتسامة وقال:

- ماذا حدث؟ هل كنت تنصت إلى ما أقول؟ ما حدث هو فايتنام. وحين انتهوا من محاولتهم لتحويلي إلى رجل خارق، وحين انتهت محاولاتي لتحويل الآخرين إلى خارقين، أعادوني إلى بلدي وقالوا لي انس كل شيء. أخبروني أن كل هذا لم يحدث وأنني حلمت به أو تخيلته. قالوا أنني أعاني من أوهام ما بعد الصدمة، لكني كنت أعرف أن ما حدث قد حدث فعلًا.. هل تعرف كم هو قاسٍ أن يكذبك الجميع ويرفضوا الاستماع إليك؟ مهما حاولت لن يروا ما تراه.

- كم أمضيت في إعادة التأهيل؟

ضحك القديس جون وقال:

- لطالما كنت دومًا في محاولات مستمرة للتأهيل، لكنني وجدت خلاصي هنا في معهد روكوود، لأنني هنا سمعته مرة أخرى. مر وقت طويل منذ آخر مرة تواصل فيها معي، وكنت أعرف أنه سيأتي مرة أخرى. لم يصدقوا هذا أيضًا فتعلمت الصمت. بمجرد أن عبرت هذه الأبواب سمعته.. ذكرني بطريقي وبما عليَّ فعله. هنا تفتح عقلي وأدركت أنني كنت منغلقًا عن العالم. حاولت أن أتجاهله لكنه كان دومًا هنا، وبمساعدة ليزا سمعت صوته مرة أخرى. من العار ألا تكون ليزا هنا لتشهد فلاح خطته المجيدة، لكنها كانت دومًا جزءًا من الخطة.

رفع القديس جون رأسه إلى السقف، وابتسم، ورأى هوبر تفاحة آدم في حنجرته تتحرك وكأنما ضربته موجة من العواطف.

- أفهم لمَ اختار هذا المكان للفصل الأخير من خطته.

قال هوبر:

- أنت تحتاج إلى مساعدة، وأنا أستطيع أن أساعدك. أنا مثلك، هل تذكُر؟ لقد مررت بكل هذا وعدت ويمكنك أنت أيضًا أن تعود. عليك أن تثق بي.. أستطيع أن أساعدك في إصلاح كل شيء.

أخفض القديس جون وجهه، ونظر إلى هوبر من فوق عدستي نظارته. لأول مرة لمح هوبر عيني الرجل. كانتا بنيتين صافيتين و... فقط. كان القديس جون إنسانًا مثل أي شخص آخر مما أحبطه.

القديس جون مجرد رجل.

- تصلح كل شيء.. أجل. لقد أرسلونا إلى هذا الكابوس، ولأي غرض؟ من أجل أمريكا؟ من أجل نيويورك؟ نيويورك هي كابوس أمريكي. حطام.. أرض خرِبة. هو يستطيع إصلاح كل هذا، وأراني كيف أصلحه.

أدرك هوبر جنون القديس جون، لقد دمرته تجربته في فايتنام، وقد أرسل إلى عالم من الألم.. أرسله أعداؤه وذووه. وحين عاد إلى وطنه وجده لا يزال متجهًا نحو نفس الهاوية.

لقد فهم هوبر كل هذا وكره نفسه لذلك.. لكنه فهم. لقد عاد هو نفسه من فايتنام كي يغير كل شيء، كي يصلح كل شيء.. كي يتحكم في كل شيء.

وكذا فعل القديس جوناثان. محاربان يحاولان أن يجدا دربًا جديدًا في الحياة، ومكانًا في العالم.

لَشدَّ ما اختلف درباهما.

قال هوبر:

- صناديق جايكوب هويلر التي كانت عندك في المستودع، أنت من سرقتها أو أحد أفاعيك، أليس كذلك؟

عقد القديس جون أصابعه على صدره وقال:

- جايكوب، جايكوب، جايكوب! تلك الملفات في الصناديق كانت ملكي أيها المحقق. سجلات عملي في الأدغال التي قالوا أنها لم تحدث قط. لكن كل شيء كان مثبتًا في هذه السجلات.

- هل سرقها جايكوب لحسابك؟ كانوا قد أرسلوه ليندس وسط الأفاعي لكنكم كشفتموه وعرفتم لأي حساب يعمل، أليس كذلك؟ لذا فقد استغللتموه لسرقة السجلات.

أصدر القديس جون طرقعة بلسانه وكأنه قد ملَّ هذه المحادثة. انتهز هوبر الفرصة وحاول تحريك يديه لكنه فشل.

- عمل جايكوب هويلر لحسابي بالفعل. كان من السهل إفساده ليطيعني. لقد أبقى السلطات بعيدة عني ومنحني الوقت كي أنفذ مخططاتي. كانت لديه سلطة تمكنه من جلب سجلاتي. في تلك الصناديق أبحاث أهم كنت أريد استكمالها.

- وماذا حدث؟ هل نجح في الإفلات من سيطرتك وحاول استعادة السجلات؟ لذا قتلته تحت ستار طقوسك واستردت صناديقك؟

رفع القديس جون رأسه وقال:

- لم تكن طقوسي ستارًا أيها المحقق.

تجاهله هوبر وأكمل:

- قتلته مثلما قتلت سام باريت وجوناثان شنيتزر.

- جيمس هوبر.

- مجموعات الدعم والتأهيل كانت ساحات لاختيار مجنديك. كنت تبحث فيها عن الضعفاء والمذعورين، لأن الخوف هو المفتاح، أليس كذلك؟ لو أنهم خافوا فسيسهل عليك التحكم فيهم.

- كفى!

- اسمعني يا جوناثان، أستطيع أن أساعدك.

ابتسم القديس جون وقال:

- يمكنك مساعدتنا جميعًا.

قطب هوبر جبينه، فأشار القديس جون إلى الشيء على المنضدة بينهما.

- ستأخذ الخنجر وتقتل شريكتك، ثم ستشرب ما في الكأس وستموت. ضحية له، وضحية لي.

- ماذا؟

- ستفعل الصواب. ستفعل كما آمرك. ستجد الدرب وستتبعه لأنه هو الدرب الحق.

شعر هوبر بغرابة. لم يكن شعورًا مألوفًا، وكان أقرب للانفصال عن العالم.

- أنت تريد أن تأخذ الخنجر. تريد أن تقتلها. تريد أن تشرب.

رمش هوبر، وشعر أن الحجرة على مسافة آلاف الأميال، وكأنه ينظر إليها عبر الطرف الخاطئ من مجهر.

أراد أن يأخذ الخنجر. أراد أن يقتل. أراد أن يشرب. أراد تلك الأمور لأنها الصواب والحق.

شهق بعنف، وشعر بلعاب يتناثر على ذقنه. يداه قابضتان على مسندي الكرسي بقوة حتى آلمته أصابعه.

كان القديس جون يتحدث، لكنه لم يكن قادرًا على سماعه. رأى شفتاه تتحركان بتعليمات ما.

لقد خدرني..

الوضوح المفاجئ للفكرة أعاد الحجرة إلى طبيعتها وظهر صوت القديس جون عاليًا.

لقد خدره القديس جون بعقار مما كان يستخدمه في فايتنام، شيء يتدخل في كيمياء المخ ويجعله قابلًا للإيحاء، مطيعًا لأوامر القديس جون.

حاول هوبر أن يركزعلى رفض إيحاء زعيم العصابة، وعلى استعادة سيطرته على عقله وجسده، فبدأ بترديد الأبجدية بالعكس.

"ياء.."

خذ الخنجر.. خذ الكأس.. هذه هي حقيقتك.

"واو.."

اقتل المرأة.. اقتل نفسك.. هذه هي حقيقتك.

"هاء.."

أنت تخدم القادم فقط.. هذه هي حقيقتك.

"نون.."

أنت تعرف ما عليك فعله. أنت تعرف ما تريد فعله. هذه هي حقيقتك.

نظر هوبر إلى القديس جون، ولعق شفتيه وقطب جبينه.

"نو..".

مال رأس هوبر على صدره، وتنهد بقوة.

- افحصه!

شعر بأصابع باردة على رقبته تفحص نبضه، ثم بيدين ترفع رأسه وتفتح جفنيه.

- لقد فقد الوعي. أعطوه شيئًا يعيده، لكن قيسوا الجرعة بدقة.

ضوضاء من خلفه، صوت معدني. شخص ما لعله ليروي يُعد محقنًا مليئًا بخليط جديد يضبط الجرعة التي أساء القديس جون تقديرها.

تحرك ليروي خلف هوبر ودفع رأسه إلى الجانب. شعر بأنفاس الشاب قربه إذ مال عليه ليحدد مكان الحَقن بدقة.

قام هوبر فجأة ورفع كوعه يضرب حنجرة ليروي، فشهق الأخير مُسقطًا المحقن. دار هوبر حول الكرسي وجذب ليروي من ياقته ليضرب أنفه برأسه، فسمع صوت تهشم الأنف وانفجرت جبهة هوبر بالألم.

كان يحتاج إلى الألم، وإلى دفقة الأدرينالين لتُفيقه وتُجلي حواسه. دار حول نفسه حين هجم عليه روبن مُطوحًا قبضة تفاداها هوبر ببراعة، موجهًا ضربة إلى معدة الرجل. تكور روبن وأسقط الطاولة في ترنحه. طارت الكأس في الهواء لتسقط على رأس روبن في نفس اللحظة التي كان يحاول فيها القيام، وأغرق السائل الأحمر القاني وجهه.

زأر القديس جون وأحاط كتفي هوبر بذراعيه مستخدمًا وزن جسده لإسقاط المحقق على الأرض. ضم هوبر كفيه ورفعهما إلى أعلى محاولًا الإفلات من قبضة زعيم العصابة، لكن الأخير كان قويًّا. تدحرجا على الأرض فسقطت الشموع. دفع هوبر القديس جون، ودفع القديس جون هوبر فوق جسد ديلجادو المُمدد، ثم حاول الوقوف وطرف ثوبه يلامس الشموع. سمع هوبر صوت «وامب» واشتعلت العباءة. نظر القديس جون إلى أسفل مُشتتًا للحظة، فانتهز هوبر الفرصة وركله ليسقط.

تدحرج القديس جون محاولًا إخماد النار الممسكة في طرف ثوبه. حاول هوبر مقاومة الدوار ليقوم. التمع شيء أمام عينيه، وكان هذا هو الخنجر الفضي الساقط على الأرض بالقرب منه. التقطه في نفس اللحظة التي هجم فيها القديس جون عليه، فدفع هوبر نفسه

تجاهه. انثنى نصل الخنجر وبدا وكأنما سينكسر، ثم تحركت يد هوبر نحو الرجل أكثر إذ انغرس النصل في كتف القديس جون حتى نهايته.

صرخ القديس جون في ألم، وقد خارت قواه فجأة. تراجع مصطدمًا بالأرض وراح يتقلب وهو ممسك بكتفه بيد، وبالأخرى يحاول أن يستند على الأرض ليقوم، لكنه فشل.

استعد هوبر للهجمة التالية، لكنها لم تحدث.

كان روبن ممددًا على الأرض والزبد يتدفق من فمه إذ تسلل السم من السائل في الكأس إليه. دفع ليروي نفسه على الأرض ليقف، ووجهه غارق في الدماء النازفة من أنفه. ثم بدأ ليروي يضحك. توتر هوبر غير واثق مما سيفعله الشاب.

أخرج ليروي مسدسًا من بنطاله، نفس مسدس هوبر الذي أخذه من لينكولن في المستودع. يبدو أنه قد أخذه أثناء مناوشاته مع مارثا.

- ليروي، اسمعني!

لأي حد وصلت برمجة القديس جون لعقله؟ هل خدر أتباعه قبل مسيرتهم إلى معهد روكوود؟ تذكر هوبر حالة ليروي حين جاءهم مستغيثًا في القسم. كان يفيق مما يخدرهم القديس جون به.

هل يستطيع هوبر اختراق هذه البرمجة أم أن ليروي سيستمر في طاعة سيده؟

انتصب هوبر واقفًا وأرخى قبضتيه كي يُطمئن الشاب.

- ليروي.. تعال يا رجل، أنا أساندك. اسمع صوتي.. تذكر مارثا، فهي تبحث عنك وتريدك آمنًا. هذا هو ما نريده جميعًا؛ أن نكون آمنين وأحرارًا. أستطيع أن أساعدك. لا تفكر في أي شيء آخر. ركز على صوتي. سأخرجك من هنا. مارثا تنتظرك. سنخرج أنا وأنت من هنا.

اهتز المسدس في يد ليروي، توتر هوبر وعيناه لا تفارقان فوهته. اقترب أكثر بحرص من الشاب ونظر إليه.

- أنزل المسدس. هذا أنا، أتذكرني؟ حاولت أن أساعدك من قبل، ويمكنني مساعدتك الآن وإخراجك من هنا لنذهب إلى أختك. مارثا بالخارج تنتظرك. فقط أنزل المسدس.

تزايد الاهتزاز، وظهرت معالم الألم والعذاب على وجه ليروي، وانقبضت عضلات فكيه وهو يحاول الخلاص مما هو فيه.

ثم أنزل يده التي تحمل المسدس.

تنفس هوبر الصعداء، وخطا خطوة أخرى تجاهه.

- ليروي، يمكنني مساعدتك. ركز على صوتي وسنخرج من هنا.

ارتعد ليروي، ورفع المسدس مرة أخرى. توقف هوبر مكانه ورفع يديه عاليًا وقال:

- يمكنني مساعدتك يا ليروي.

أنزل الشاب ذراعه مرة أخرى. تحرك هوبر أمامًا وصرخ ليروي مُعذبًا، ثم رفع المسدس وضغط الزناد.

تأخر هوبر، فقد أبعد ذراع ليروي بعد أن انطلقت الرصاصة وأصمَّهما صوتها. شعر هوبر بدفعة في ذراعه الأيسر، ثم بعد لحظة تفجر الألم الحارق.

لقد أطلق عليه النار. لا يعرف مدى سوء الإصابة، لكن ذراعه يتحرك، وظل شاكرًا لهذا وهو يكمل مصارعة ليروي.

زالت مقاومة الشاب سريعًا، وأسقط المسدس. لف هوبر ذراعه حول رقبة الفتى كي يُفقده الوعي، وسرعان ما تهاوى على الأرض.

سقط هوبر على ركبتيه، ويده قابضة على ذراعه الغارق في الدماء.

سينجو.

قام واقفًا مهمومًا بشيء أهم.

ديلجادو.

أثناء العراك مع القديس جون، دُفِعت إلى الجانب، وهي الآن راقدة وشعرها المنتثر قريب من شمعتين. انطلق هوبر نحوها وركع دافعًا الشموع بعيدًا، ثم قلب شريكته على ظهرها. تحقق من نبضها وتنفسها. أنَّت وفتحت عينيها ورفعت رأسها ناظرة نحو هوبر للحظات قبل أن يهوي رأسها إلى الأسفل مرة أخرى مرتطمًا بالأرض فتألمت.

لقد بدأت في التعافي. نظر هوبر نحو القديس جون المستلقي على الأرض مواجهًا هوبر ويده قابضة على كتفه. كان يلهث والدم يسيل من ركن فمه.

نظارته فُقدت أثناء العراك، وظهرت عيناه المحدقتان إلى هوبر. قام هوبر منتويًا دفع زعيم العصابة إلى الأرض والضغط على جرحه لوقف الدماء التي تدفقت بعد خروج الخنجر من مكانه. بدا الجرح أسوأ مما اعتقد هوبر، لا بد أن الطعنة أصابت شريانًا نظرًا لكمية الدماء المتدفقة منه.

حين لمس القديس جون، حاول الأخير دفعه بعيدًا لكن قواه كانت قد خارت.

- مهلًا.. استرخِ. يجب أن أوقف النزف.

لم يتكلم القديس جون، لكنه ابتسم. وحين أراحه هوبر على الأرض بدأ يضحك.

وجد هوبر الفتحة في العباءة ودس إصبعه فيها كي يمزقها فيكشف الجرح. دماء فاتحة اللون تتدفق من الشريان كالينبوع.

- التضحية..

استطاع القديس جون أن يهمس، ونظر إلى هوبر بعينيه البنيتين الكبيرتين مُردفًا:

- أنت.. تصدقني.. أليس كذلك؟

لم يُجب هوبر وراح يبحث عن طريقة لإيقاف التدفق.

هل يحوي جسم الإنسان كل هذه الدماء؟

أغمض القديس جون عينيه وقال:

- أحيانًا.. ما يضطر الرجال الطيبون.. إلى فعل أمورٍ خبيثة. أحيانا.. لا يملكون.. الخيار.

رقد بلا حركة، وشحب وجهه. دماؤه تغرق العباءة وتغرق هوبر والنجمة الخماسية على الأرض.

ركع هوبر جواره للحظات، ثم قام واقفًا.

- آه.. هوبر؟

التفت إلى ديلجادو التي تحركت مرة أخرى. ذهب إليها وساعدها على الجلوس، فمالت مُريحة رأسها على صدره. ضم وجهها بيديه الملوثتين بالدماء.

وظلا على وضعيهما حتى وصل العملاء.

الفصل الحادي والخمسون

تداعيات الإرهاب

١٤ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

بعد أن أخاطوا ذراع هوبر، شعر وكأن الرصاصة ما زالت فيه رغم أن الجرح كان مجرد خدش ولم تصبه أي رصاصة.

جلس هوبر عند باب سيارة الإسعاف الخلفي، وضم الغطاء على كتفيه أكثر وهو يرتجف. لم يكن الليل باردًا، لكنه ظل يشعر برعدة سببها خياله على الأرجح.

امتلأ المكان حول معهد روكوود بسيارات الشرطة والإطفاء والإسعاف، وراحت كشافات السيارات العلوية تدور فيسبح المكان في ومضات من الضوء.

لم يكن تأثير المخدر قد زال تمامًا عن هوبر، وشعر بأنه منفصل عن العالم وكأنه كان جالسًا مكانه منذ ألف عام، وأن ما حدث في روكوود كان حلمًا بعيدًا.

قام من مكانه ووقف للحظات ليتأكد من قدرته على التماسك، ثم سار نحو سيارة الإسعاف الأخرى حيث جلست ديلجادو فوق محفة تُجيب على أسئلة سريعة يسألها المُسعف وهو يقيس ضغط دمها. تلاقت أعين هوبر وديلجادو فابتسمت الأخيرة أومأت برأسها في ضعف قبل أن تريحه على الوسادة.

لقد نجت..

وكذا نجا ليروي..

تحرك هوبر نحو سيارة إسعاف أخرى، يرقد فيها ليروي على محفة، بينما يختبر مُسعفٌ حدقتي عينيه. رآه ليروي فرفع ذراعه، لكن المسعف أخفضه. كان واعيًا لكن تحت تأثير أيّ ما خدره به القديس جون.

لكنه كان حيًّا.

التفت هوبر إلى الشارع. لم يتبق من جيش الأفاعي إلا القليل، بينما الأغلب مُتحفظ عليهم في سيارات الشرطة، أو لاذ بالفرار مع ظهور أول العملاء الفيدراليين.

ابتعدت سيارتا شرطة لتقف مكانهما سيارة أخرى بلا أرقام. نزل منها جالوب ومارثا. ألقى هوبر الغطاء عن كتفيه وهرع ينضم إليهما.

نظرت مارثا إليه من أعلى إلى أسفل وسألته:

- هل أنت بخير؟ ماذا حدث بحق الجحيم؟

نظر هوبر إلى ملابسه الغارقة في دماء القديس جون، ثم قال:

- أنا بخير. أعتقد أنك لم تجدي طريقة للمجيء إلى هنا رغم كل شيء.

رمقت مارثا جالوب وقالت:

- أجل.. لُم هذا الأحمق. قال أنه سيمنحني سيارة، ثم حَبَسني!

دارت حول نفسها متسائلة:

- أين ليروي؟ هل هو هنا يا هوبر؟

أشار هوبر إلى واحدة من سيارات الإسعاف، فهرعت مارثا نحوها تكاد تتعثر، ثم اقتحمتها وألقت بنفسها فوق ليروي تعانقه. رآه هوبر الشاب يرفع ذراعيه في وهن ويلفهما حول أخته.

- لقد انتهى الأمر أيها المحقق.

مسح هوبر وجهه والتفت إلى جالوب. أخذ نفسًا عميقًا ليتماسك، فقد كان مُتعبًا للغاية. ربَّت جالوب على كتفه مُردفًا:

- لقد انتهى الأمر. عُد إلى بيتك وعائلتك.

***

بُعيد الفجر، وصل هوبر إلى منزله، وراح يعدو على الدرجات صاعدًا، بينما يُبدد ضوء النهار الوليد أضواء سيارة الشرطة التي أوصلته.

قبل أن يصل إلى البوابة، فتحتها دايان حاملة سارة لنائمة. ضحكت سارة ضحكة خلاص وعانقته في مدخل البناية، واحتوى عناقهما جرح هوبر وألمه. صار آمنًا بين زوجته وطفلته.

استيقظت سارة ونظرت إلى أبيها وأمها وهي تحك عينيها بظهر كفها وتسأل:

- بابا، أهذا أنت؟

قبَّل خدها وهمس:

- أجل يا حبيبتي.. لقد عدت.

الفصل الثاني والخمسون

أبطال ليومٍ واحدٍ فقط

٢٦ يوليو ١٩٧٧
بروكلِن، نيويورك

- إذًا يا شير، هل أنت واثق أنك تريدين فعل هذا؟

- أليس من المفروض أن تقفي وتدُسي قبضتيك على جانبي خصرك؟

- أحمق!

- انتظري لحظة..

- ماذا؟

- أنا سوني، وأنتِ شير! لا العكس!

- ولمَ أكون أنا شير؟

- ماذا؟ لأن شير امرأة. أنا سوني وأنتِ شير.

- شير امرأة؟!

- أتريدين أن تقولي أنك لا تعرفين سوني وشير؟

- وهل من المفترض أن أعرفهما؟

- لا بد وأنك تمزحين! قولي أنك تمزحين الآن.

- لا تلُمني، فأنا من كوبا!

- لستِ من كوبا، أنت من كوينز وتعرفين من هما سوني وشير.

- المهم أجب سؤالي.

- أي سؤال؟

- هل أنت مستعد لذلك؟ لأنك تعرف ما ينتظرنا خلف هذا الباب.

- أجل، لكن...

- إذًا أنت واثق أنك تريد فعل هذا؟

- هل تقولين أن لدينا خيارًا؟

- يمكنك فهم ما قلت على هذا النحو.

- ربما لن يفعلوا شيئًا.

- هذا لا يُفاجئني.

- هذا ليس رأي النقيب الشخصي، أليس كذلك؟

- أجل.

- ربما لا يوجد شيء، ربما لم يفعلوا شيئًا.

- هذا صحيح.

- هل تعرفين ما يعنيه هذا أيتها المحققة ديلجادو؟

نظرت ديلجادو إلى شريكها مبتسمة في مكر وقالت:

- هذا يعني أننا قد تأخرنا عن العمل. لكن أعتقد أن مسموح لنا التأخير. أعني، هذه المرة فقط، أليس كذلك؟ لقد مررنا بالكثير، وقد أمضيت ليلة في المستشفى، تخيل؟ ليلة كاملة أيها المحقق هوبر!

ضحك هوبر وقال:

- كان عليَّ إرسال أزهارٍ لك.

- لديّ تحسس منها. كيف حال ذراعك؟

رفع هوبر ذراعه المُضمد وقال:

- ما زال يؤلمني.. يؤلمني كثيرًا في الواقع.

- واحد.

- واحد؟!

- أحصي المرات التي تخبرني فيها أن ذراعك يؤلمك. المفترض ألا تقول ذلك أكثر من أربع مرات في اليوم واعتبر هذا كرمًا مني. سترى أن صبري سينفد مع الوقت.

حيا هوبر شريكته تحية عسكرية بذراعه المُضمد وقال:

- أوامرك يا سيدتي.

هنا انفتحت ناحية من الباب المزدوج لمكتب المحققين، ووقف النقيب لافورنيا في فرجته يهز رأسه.

- هل ستدخلان أم تريدان دعوة من العمدة؟

قال هوبر:

- دعوة مطبوعة لو سمحت.

- هذه مجرد أمانٍ. لا تستطيع المدينة توفير أي هراء من هذا. كفى تَلَكُّعًا.

ابتعد لافورنيا عن المدخل ممسكًا ضلفة الباب وأشار لهما بالدخول. تبادل المحققان النظرات وقاوم هوبر الضحك.

حين دخلا، انفجرت الحجرة بالتصفيق الحاد. توقف هوبر وديلجادو بينما تحلق حولهما المحققون الآخرون يحتفلون بعودة زميليهم. حتى أن الشاويش كونلي من وردية الليل قد بقي ليرحب بهما.

شعر هوبر بكفٍ ثقيلة على ظهره. وقف النقيب لافورنيا بين المحققين واضعًا كفًّا على ظهر كلٍ منهما، وهتف:

- أيها الناس! كفى.. ربما يسمعنا أحد ويظننا قد حللنا لغز قضية.

أنزل كفيه مع توقف التصفيق، وخطا أمامًا مخاطبًا المحققين.

- لن تُتاح لنا فرصًا كثيرة لنحتفل بنجاح كهذا. زميلاكما قد أديا واجبهما. ربما تظنون أن هذا مديح غير كافٍ، لكنني أتوقع من كل واحد منكم أن يؤدي واجبه مثلهما. هذا سبب وجودكم هنا. لذا، عندما أقول أن أحدكم قد أدى واجبه، فهذا آخر مستوى لديَّ في الإطراء. أداء الواجب هو ما يجعل هذه المدينة آمنة.. العمل الجاد سينقذنا ولا شيء سواه.

سرت همهمات متعجبة، وضحكات خافتة بين المحققين، أغلبها صادر من أفراد وردية الليل.

استدار النقيب مواجهًا هوبر وديلجادو وأردف:

- أحسنتما أيها المحققان. وما زال أمامنا عمل أكثر ننجزه، ولا سيما التقرير الذي ستسلمانه في واشنطن يوم الخميس. اتصل العميل الخاص جالوب وقال أنه وزملاءه متحمسون لتقرير طويلٍ ومُجدٍ منكما ومن مارثا وليروي.

رفعت ديلجادو حاجبًا ونظرت جانبًا إلى شريكها مُتسائلة:

- طويلٍ ومُجدٍ؟

- يبدو أن هذا سيكون ممتعًا.

أشار النقيب إلى مكتبيهما وقال:

- ماذا لو أعدتما مؤخرتيكما إلى مقاعد مكتبيكما لتبدآ التقرير الآن؟

ثم ابتسم وصفق مرة واحدة وأضاف:

- والمشروبات في حانة ماهوني على حسابي الليلة.

ضحك هوبر وقال:

- شكرًا أيها النقيب. سعيد بعودتنا.

أومأ لافورنيا إليهما وعاد إلى مكتبه. عاد المحققون للتحلق حول هوبر وديلجادو لتحيتهما بشكل منفرد، وإذ عاد هوبر إلى مكتبه، بدأت ابتسامته في الخفوت تدريجيًا.

سألته ديلجادو وهي تجلس إلى مكتبها المجاور:

- ماذا بك؟

زمَّ هوبر شفتيه وقال:

- نحن بطلان عائدان، أليس كذلك؟

قالت شريكته مازحة:

- هوبر، لا تدع خطبة النقيب تنفذ إلى عقلك!

ابتسم هوبر ابتسامة واهنة وقال:

- كنت بطلًا من قبل.. لمرة. أو هكذا أخبروني.

- لقد منحوك ميدالية. هذا دليل كافٍ لي.

أخفض هوبر عينيه إلى المكتب وهمس:

- لكن.. ليس الحصول على التكريم هو سبب فِعلنا لما فعلنا. النقيب مُحق.

- في الواقع كان مُحقًّا بالفعل. نحن هنا لنؤدي واجبنا، وهذا ما فعلناه.

حدق هوبر إلى مكتبه. تنهدت ديلجادو ثم فتحت درج مكتبها وأخرجت زجاجة سكوتش ووضعتها بينهما. نظر إليها هوبر متسائلًا:

- هل يشربون السكوتش في كوبا؟

- كلا، يشربون السكوتش في كوينز أيها الأحمق.

صبت ديلجادو القليل في كوبها وكوب هوبر، ثم قالت وهي ترفع مشروبها عاليًا:

- في صحة الواجب.

رفع هوبر كوبه وقال:

- في صحة الواجب.

وأفرغ المشروب في جوفه، ثم أشار لشريكته بالكوب الفارغ، فضحكت وصبت له المزيد.

- أتشرب في العمل يا هوبر؟ ماذا سيقول عنك النقيب؟

رفع هوبر ذراعه المُضمد وقال:

- أشرب كمُسكِّن.. ذراعي ما زال يؤلمني.

- اثنان..

أشار هوبر بكوبه ضاحكًا وقال:

- في صحة المرة الثانية.

٢٧ ديسمبر ١٩٨٤
كوخ هوبر
هوكينز، إنديانا

خيم الصمت مرة أخرى على كوخ جد هوبر. هوبر نفسه كان يجلس على مقعد وثير وإيل على الأريكة أمامه تحت الأغطية ترمق شيئًا في المسافة بينهما.

كان الليل قد تجاوز منتصفه، لكن لم يكن لديهما مخطط لليوم التالي، ويمكنهما النوم كما يشاءان لاحقًا.

نظر هوبر إلى إيل وانتابه القلق من أن يكون قد تجاوز حدود التفاصيل.

- إيل..

ثم توقف حين نظرت إيل إليه وقالت:

- شكرًا لك.

- أنا.. حسنًا.. كنت فقط أريد أن أقول أنني آسف.

اعتدلت إيل في جلستها ونظرت إليه متسائلة. أردف هوبر:

- آسف لأنني حكيت لك تلك الحكاية. أعني.. ربما أنت صغيرة على تفاصيلها.

قالت إيل:

- كلا.. لقد تعلمت منها. أنت ساعدت الناس.

ضحك هوبر وقال:

- شكرًا لك!

- لماذا كنت حزينًا؟

نظر هوبر إلى إيل، والضحكة تموت في حنجرته وسألها:

- حزينًا؟

- أنت أنقذت الناس، لكن...

- وشهدت موت أشخاص آخرين.

- كنت بطلًا.. والأبطال أخيار.

ضحك هوبر ضحكة سريعة ثم قال:

- هذا صحيح. لكنني أرى أنني أمضيت أغلب الوقت أحاول الخروج من المشاكل والبقاء حيًّا. اسمعي يا صغيرتي.. البطولة أمر جيد ومفيد، لكنها ليست السبب الذي نساعد الآخرين من أجله. لا يجب أن يكون هدف المرء البطولة، كل ما علينا أن نفعل الصواب. البطولة ليست وظيفة، العمل الشُّرَطي هو وظيفتي، وعملي هو طريقتي لفعل الصواب. لقد أديت واجبي وحاولت أن أؤديه على أكمل وجه.

أومأت إيل، ثم تثاءبت. قاوم هوبر التثاؤب، لكن ملامحه وهو يقاوم أضحكت إيل، فاستسلم وقام يتمطى.

- وقت الفراش الآن يا صغيرتي. يمكنك أن تنامي مُتأخرًا الليلة فقط، لكنني لن أسمح أن تكون عادة لاحقًا، اتفقنا؟

قامت إيل متحررة من الأغطية وتوجهت نحو غرفتها. في الطريق توقفت عند المنضدة الحمراء وأمسكت بواحدة من بطاقات زينر الموضوعة داخل كيس الأدلَّة. شاهد هوبر ابنته وهي تنظر إليها حينًا، ثم تعيدها إلى صندوق ملفات نيويورك وتغلق غطاءه، ثم تتوجه إلى غرفتها وتغلق الباب خلفها دون أن تلمسه.

ابتسم هوبر. كان مرهقًا لكنه كان سعيدًا كذلك. ربما عرفت إيل شيئًا عنه، عن ماضيه، عن حياته السابقة في مدينة بعيدة حين كان يؤدي عملًا مجزيًا محفوفًا بالمخاطر.

حياته القديمة..

حمل هوبر صندوق الملفات إلى حجرة المعيشة، ثم ركع وسحب البساط. فتح باب مساحة التخزين الإضافية في أرضية الكوخ. مد يده بالداخل وأضاء المكان الصغير. وضع هوبر الصندوق بالأسفل، ثم أغلق النور والباب، وغادر إلى حجرة نومه.

٢٥ ديسمبر ١٩٧٧

بروكلِن، نيويورك.

لم يكن الثلج ينهمر، بل كان الصقيع ينزل كالسيول تدفعه ريح حادة عاصفة. الشارع بالخارج كان كابوسًا جليديًّا لا أكثر.

وأحب هوبر كل دقيقة من هذا اليوم، ففي شقته الدافئة كانت عائلته من حوله يحتفلون بعيد الميلاد المجيد.

وأحب هوبر عيد الميلاد المجيد.

جلس على الكرسي مُغلق العينين، وحين فتحهما بعد لحظات، وجد دايان تحدق إليه من مجلسها أمامه على الأرض حيث كانت تُخرج الهدايا الملفوفة من تحت شجرة الميلاد بمساعدة سارة.

كانت تمسك بهدية كبيرة مستطيلة مسطحة. نظرت دايان إلى هوبر عابسة، وقالت:

- كل شيء على ما يرام يا جَدي؟

فتح هوبر فمه، ثم أغلقه مرة أخرى. ضحكت سارة وقالت لأمها أنه أبوها وليس جدها، وقولها هذا يجعلها أكثر الأمهات حماقة في المدينة، بل في العالم كله.

- جدي؟

قالها هوبر أخيرًا وهو ينظر إلى ملابسه مردفًا:

- أهذه هي الطريقة التي تخبرينني بها أن السترة الجميلة التي أهدتها لي زوجتي الجميلة تجعلني أبدو ناضجًا وقورًا؟

ضحكت دايان، ورافقتها ابنتهما في الضحك وهي تُلبِس دميتها الجديدة فستانًا مختلفًا. كانت هذه هي أولى هدايا عيد الميلاد المجيد. جوارها على الأرض كانت هديتها الثانية؛ كتابًا مصورًا كبيرًا عن عجائب الفضاء الخارجي. أراد هوبر قراءة الكتاب هو الآخر حين تتاح له الفرصة.

قالت دايان:

- لا.. لم أقصد السترة، لكنني سعيدة أنها أعجبتك.

- أعجبتني؟ لقد أحببتها حقًّا.

- كنت أقصد عينيك المغلقتين وتنهيداتك. عليك أن تشتري غليونًا وخفين مُبطنين كذلك.

ابتسم هوبر وقال:

- لو أنني تنهدت -ولا أعرف إن كنت تنهدت حقًّا- فهذا يعني أنني راضٍ.

ثم استرخى على كرسيه وضم كفيه على بطنه، وراح يتصنَّع الشَّخير، فانفجرت سارة ضاحكة.

فتح هوبر عينيه على صوت يد دايان تطرق على الهدية في يدها. ضحك ومال إلى الأمام وتناول الهدية. فتح البطاقة المرفقة وهتف:

- أوه! مهلًا!هذه هدية خاصة لسارة من أمها وأبيها. تعالي يا صغيرة لتفتحيها! تعالي!

قامت سارة من على الأرض وهرعت نحو كرسي هوبر. جلست على فخذيه قبل أن تأخذ الهدية. كذلك جلست دايان على مسند المقعد جوار زوجها ولفَّت ذراعها حول كتفيه.

فتحت سارة الغلاف كاشفة عن كتاب ذي غلاف مقوى عليه رسم لفتاة شقراء ترتدي فستانًا أزرق اللون وتنظر إلى مرآة.

تعرفت سارة فورًا على الفتاة على الغلاف، وراحت تقلب الصفحات في حماس، وتشاهد الرسومات الملونة بالداخل.

أمسك هوبر بيدي سارة كي يسيطر على حماسها المجنون وقال:

- مهلًا.. الكتاب جديد يا طفلتي!

عدَّل وضع الكتاب أمامها وعاد إلى الغلاف الذي يحمل عنوان: «ما وراء المرآة. ماذا وجدت آليس هناك».

قرأ هوبر العنوان وهو يشير إلى كل كلمة بإصبعه. صاحت سارة:

- آليس! أحب آليس كثيرًا لأنها تتناول الشاي مع الملكة والقط، ولأنها سقطت في الحفرة العميقة.

مسَّدت دايان شعر سارة وقالت:

- هذا صحيح يا صغيرتي. وهذه قصة جديدة حدثت لها. يمكن أن يبدأ بابا قراءتها لك الليلة.

التفتت سارة إلى أبيها وقالت:

- هل يمكنني الذهاب إلى الفراش مبكرًا الليلة كي تقرأ لي؟

- يمكنك أن تذهبي إلى الفراش الآن، أو تتحولي إلى "جدو" مثلي!

ضحكت سارة.

مالت دايان على هوبر وهمست:

- أعتقد أنني لم أقرأ هذه القصة من قبل.

- لقد أعجبتها القصة الأولى كثيرًا، وأذكر أنها أعجبتك كذلك.

قرَّبت دايان هوبر إليها وقالت:

- ربما آتي معكما لأسمع هذه القصة أيضًا.

قلبت سارة الكتاب كي ترى الغلاف الخلفي، ثم طوته للخلف وقالت:

- أعتقد أن بابا يستطيع أن يبدأ القراءة الآن، لأنه يمكننا قراءة الكتب أي وقت من اليوم، لا قبل النوم فقط.

قال هوبر:

- أتعرفين؟ لديها حق!

- فعلًا!

قال هوبر وهو يضم سارة إليه أكثر:

- تجمعا، تجمعا.. حان وقت قصة عيد الميلاد! أعني.. قصة نقرأها في ليلة عيد الميلاد لا قصة عن عيد الميلاد..

- هيا يا أبي!

- يا لكما من جمهور مُتعجل!

ثم فتح الكتاب، وابنته على فخذيه، وزوجته إلى جواره، وبدأ يقرأ.

1. الغلاف
2. الظلام عند اطراف المدينة
3. © 2019 by Netflix CPX, LLC and NETFLIX CPX International, B.V
4. الظلام عند اطراف المدينة آدم كريستوفر ترجمة: شيرين هنائي رواية
5. ٢٦ ديسمبر ١٩٨٤ كوخ هوبر هوكينز، إنديانا...
6. جيد. لم يكن في وسعه فعل شيءٍ بصدد الطقس...
7. الفصل الأول
8. ٤ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك كانت الرد...
9. تبعوا العائلات المُتوجهة نحو الباب الأما...
10. الفصل الثاني
11. ٢٦ ديسمبر ١٩٨٤ كوخ هوبر هوكينز، إنديانا ...
12. الفصل الثالث
13. ١٧ مايو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك لم تكن حجر...
14. سحبت ديلجادو كفها وتراجعت إلى المكتب الش...
15. ٢٦ ديسمبر ١٩٨٤ كوخ هوبر هوكينز، إنديانا ...
16. الفصل الرابع
17. ٤ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك كان الليل...
18. الفصل الخامس
19. ٥ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك كان هوبر ش...
20. تسعة أيام منذ آخر ضربة لابن سام منذ بداي...
21. ثم ابتعد خطوتين وكأن الأمر لا يعنيه حقًّ...
22. الفصل السادس
23. 23

24. ٥ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك. "أخبار مُ...
25. الفصل السابع
26. 26
27. ٥ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك. أوقف هوبر...
28. تجمد هوبر، فلا بد وأن القادم هو أحد رجال...
29. الفصل الثامن
30. 30
31. ٥ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك.
32. وقفت ديلجادو واضعة كفيها عند خصرها وراحت...
33. - على أية حال، صعدت كي أطلب منهم أن يكفو...
34. الفصل التاسع
35. ***
36. ***
37. الفصل العاشر
38. 38
39. ٦ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك
40. ***
41. ٢٦ ديسمبر ١٩٨٤ كوخ هوبر هوكينز، إنديانا ...
42. الفصل الحادي عشر
43. ***
44. ٢٦ ديسمبر ١٩٨٤ كوخ هوبر هوكينز، إنديانا ...
45. الفصل الثاني عشر
46. ***
47. - ليروي! نظر هوبر أمامه، كان مَكجويجن ومِ...
48. الفصل الثالث عشر

49. ٧ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك. المكان ال...
50. الفصل الرابع عشر
51. 51
52. ٧ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك. وقفت ديلج...
53. لفَّت ليزا المجلة حول نفسها ودسَّتها داخ...
54. ٢٦ ديسمبر ١٩٨٤ كوخ هوبر هوكينز، إنديانا ...
55. الفصل الخامس عشر
56. ٧ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك كانت رحلة ...
57. الفصل السادس عشر
58. 58
59. ٧ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك. أعادت الم...
60. الفصل السابع عشر
61. ٧ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك بدأ هوبر ف...
62. الفصل الثامن عشر
63. ٨ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك جلس هوبر ف...
64. ٤ يونيو ١٩٧٢
65. بروكلِن، نيويورك - أخضر تفاحي؟! تراجع هو...
66. الفصل التاسع عشر
67. ٨ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك
68. ***
69. الفصل العشرون
70. ٨ يوليو ١٩٧٧ نيويورك جلس هوبر في مقعد ال...
71. الفصل الحادي والعشرون
72. مانهاتن العُليا، نيويورك. حسب توجيهات م...
73. ٢٤ ديسمبر ١٩٨٤ كوخ هوبر هوكينز، إنديانا ...

74. الفصل الثاني والعشرون
75. ***
76. الفصل الثالث والعشرون
77. ٨ يوليو ١٩٧٧ جنوب برونكس، نيويورك المنطق...
78. الفصل الرابع والعشرون
79. ٩ يوليو ١٩٧٧ بروكلين، نيويورك جلست ديلج...
80. الفصل الخامس والعشرون
81. ***
82. الفصل السادس والعشرون
83. ٩ يوليو ١٩٧٧ جنوب برونكس، نيويورك لم تكن...
84. الفصل السابع والعشرون
85. ٩ يوليو ١٩٧٧ بروكلين، نيويورك كانت القهو...
86. الفصل الثامن والعشرون
87. ١٠ يوليو ١٩٧٧ مانهاتن، نيويورك وصلت ديل...
88. الفصل التاسع والعشرون
89. ١٠ يوليو ١٩٧٧ بروكلين، نيويورك وصلت ديلج...
90. الفصل الثلاثون
91. ١٠ يوليو ١٩٧٧ بروكلين، نيويورك انتهى اج...
92. ٢٦ ديسمبر ١٩٨٤ كوخ هوبر هوكينز، إنديانا...
93. الفصل الحادي والثلاثون
94. ١٢ يوليو ١٩٧٧ بروكلين، نيويورك رفعت ديلج...
95. الفصل الثاني والثلاثون
96. ١٣ يوليو ١٩٧٧ بروكلين، نيويورك - لا أفهم...
97. الفصل الثالث والثلاثون
98. ١٣ يوليو ١٩٧٧ بروكلين، نيويورك كانت ديلج...

99. الفصل الرابع والثلاثون
100. ١٣ يوليو ١٩٧٧ جنوب برونكس، نيويورك حسنًا...
101. الفصل الخامس والثلاثون
102. ***
103. ٢٦ ديسمبر ١٩٨٤ كوخ هوبر هوكينز، إنديانا ...
104. الفصل السادس والثلاثون
105. الفصل السابع والثلاثون
106. ***
107. الفصل الثامن والثلاثون
108. ***
109. ***
110. الفصل التاسع والثلاثون
111. ***
112. صعد هوبر إلى سطح البناية وألصق نفسه بحائ...
113. ثم رفع القديس جون رأسه مرة أخرى. - أنتم ...
114. الفصل الأربعون
115. ١٣ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك نظرت ديل...
116. الفصل الحادي والأربعون
117. ١٣ يوليو ١٩٧٧ جنوب برونكس، نيويورك وصلت...
118. الفصل الثاني والأربعون
119. ١٣ يوليو ١٩٧٧ جنوب برونكس، نيويورك فاجأ ...
120. ١٣ يوليو ١٩٧٣ جنوب برونكس، نيويورك للمر...
121. الفصل الثالث والأربعون
122. ١٣ يوليو ١٩٧٧ جنوب برونكس، نيويورك أحرزل...
123. الفصل الرابع والأربعون

124. ١٣ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك - لذا قلت...
125. الفصل الخامس والأربعون
126. ***
127. ٢٦ ديسمبر ١٩٨٤ كوخ هوبر هوكينز، إنديانا...
128. الفصل السادس والأربعون
129. ١٣ يوليو ١٩٧٧ نيويورك - هل ترين شيئًا؟ ن...
130. الفصل السابع والأربعون
131. ١٣ يوليو ١٩٧٧ مانهاتِن، نيويورك مركز الق...
132. الفصل الثامن والأربعون
133. ***
134. الفصل التاسع والأربعون
135. ***
136. الفصل الخمسون
137. ١٤ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك تتراقص ال...
138. أصدر القديس جون طرقعة بلسانه وكأنه قد مل...
139. الفصل الحادي والخمسون
140. ***
141. الفصل الثاني والخمسون
142. ٢٦ يوليو ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك - إذًا يا...
143. ٢٧ ديسمبر ١٩٨٤ كوخ هوبر هوكينز، إنديانا ...
144. ٢٥ ديسمبر ١٩٧٧ بروكلِن، نيويورك لم يكن ...